سعيد ســـالم

استرســـــــــال

تقاسـيم روائيـــة

- ١ -

اتصل بى محام مشهور من القاهرة طالبا سرعة الحضور الى مكتبه لأمر عاجل وخطير وفى غاية من الأهمية. ماذا ينتظر مهندس متقاعد راض بمعاشه الشهرى من مفاجآت هامة وقد رتب حياته على قدر دخله فى رضا وقناعة. كل ما كنت أملكه من مدخرات أنفقتها على أولادى الثلاثة حتى تزوجوا وأصبح كل منهم مسئولا عن نفسه.لا مدخرات بنكية ولا أراضى ولاعقارات ولا أطيان ولا صكوك نقدية فى أى صورة من صورها والحمدلله. أصبحت كما يقولون فى الأمثال الشعبية على الحميد المجيد ، وان كان هذا لايزعجنى فى شىء على الاطلاق.

ياه!!..أمر عاجل وخطير وفى غاية من الأهمية؟!!..

لم يعد فى حياتى ما يدعو الى الاهتمام أو الاثارة من مفاجآت متوقعة أوغير متوقعة. اتصالاتى بالناس انكمشت وصارت محدودة للغاية. كلما مر الوقت تمكنت منى حالة الاستغناء التى رحت أدرب نفسى عليها بحثا عن سكينة النفس وتحررا من رغبات الحياة وشهواتها ومغرياتها وخاصة تجارب الحب العديدة التى عشتها وسعدت بها ابتداء من زوجتى وانتهاء بمريم التى كنت أدللها بماريا . بدأت فى إغلاق كل دفاترى القديمة الواحد تلو الآخر محاولا ترك الدنيا من خلفى حتى لاتكون أمامى فأركض من جديد ورائها بعد أن شبعت فيها ركضا وهرولة دون أن أجنى فوق ما قدر لى . الشهوة الوحيدة التى تبقت لى حتى الآن هى شهوة الطعام ، ورغم ذلك فأنا أحاول – ولو أننى أجد صعوبة شديدة فى ذلك- أن أقلل من حدتها قدر المستطاع، فالمشكلة أننى أحب جميع أصناف وأنواع الطعام والمأكولات والمشروبات التى خلقها ربنا. أما لذة التدخين - ومشتقاته - فقد حرمت منها بعد اصابتى بضيق فى الشرايين. حتى البيرة امتنعت عنها بعد أن أديت فريضة الحج رغم حبى الشديد لها. ظللت ممتنعا عنها لعدة سنوات دون أن تغيب عن بالى أو أن ينتهى شوقى وحنينى اليها. استمر الحال كذلك حتى استمعت الى فتوى من أحد علماء الدين تبيح خمر الشعير مادام شاربها لايصل الى حد السكر، ولسوف أحكى حكايتى مع البيرة تفصيليا ضمن الاسترسال.

علاقاتى النسائية توقفت منذ سنوات عديدة. لم يتبق لى من النساء غير قلة لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة ، وكلهن أصبحن عندى فى مقام أخواتى تماما ، ليس عن ملائكية وفضيلة ، وإنما هو فعل الزمن الذى تولى عنى بغدره المعهود ازاحة ما تبقى لدى من رغبة فى الجنس الجميل الآخر.

تبقى متعة الابداع والتى كثيرا ما أعتبرها شهوة كسائر الشهوات..

غير أن قريحتى قد بدأت تجف فيما يبدو ، إذ توقفت عن الابداع منذ مايزيد عن خمس سنوات ، لاقتناعى بأنه لم تعد لدي فكرة جديدة أو موضوعا مثيرا يستحق الكتابة. فى ذلك الحين بدأت تهاجمنى موجات اكتئابية حادة خشيت علي نفسى من عواقبها. نصحنى نديم قبل سفره بأن أتسلى بالاسترسال فى كتابة ذكرياتى عن حكايات الصبا والشباب حتى لايتوقف قلمى عن الكتابة وأستعيد توازنى النفسى من جديد..وجدتها فكرة رائعة فاستجبت لها على الفور، ورحت أسترسل فى تلك الحكايات – كماجن ورع - بغير ضوابط أو حدود، ولقد وجدت فى ذلك الاسترسال متعة فائقة لم أجربها من قبل فى كتاباتى السابقة ، خاصة وأننى رحت أكتب بغير قيد زمانى أو مكانى قد يعوق تدفق الأحداث والمشاعر والأحاسيس فى تلقائية صافية.....

****

حكايات الصبـــا والشباب

****

●صغير وسط الكبـــــــار:

فى طفولتى وضعت فى مأزق غير عادى لاناقة لى فيه ولا جمل. ذلك أننى لم أجد من الاصدقاء بين أبناء الحى من يقاربنى فى السن ، كان معظمهم يكبروننى بسنوات وسنوات. أصغرهم كان من جيل أخى نديم الذى يكبرنى بأربعة أعوام. عندما كانت تجمعنا مظلة الشاطىء كل يوم كانت تترامى الى مسامعى كلمات غريبة فى موضوعات تتجاوز ادراكى الذهنى. غير أن هناك موضوعا واحدا من بين هذه الموضوعات هو الذى استأثر باهتمامى ومحاولة تفهمى لكل ما يقال عنه من قصص ومغامرات. إنه الحب. كلمة كان لها وقع السحر على أذنى. تستهوينى قصص الغرام التى كان الشباب يروونها ، بغض النظر عن كونها حقيقة حدثت أم تهويمات من وحى الخيال ينفسون بها عن رغباتهم المكتومة، ويتبارون بها لاثبات دونجوانيتهم الزائفة. لقد ترتب على هذا الخلل القدرى أمور عديدة أربكتنى وأرهقتنى فى البداية ، لكن دأبى واصرارى على أن أكون ندا لهؤلاء الكبار دفعنى الى الفضول والقراءة وحب المعرفة حتى أتمكن من فهم كل ما غمض علىّ من موضوعات .. ومرت سنوات حتى جاء على يوم شعرت فيه أننى قد تجاوزت هؤلاء الكبار فى الكثير من الأمور ، بل وكنت أرى أحيانا فى نفسى الكبير وفيهم الصغار.

فهمت الحب ورأيته وأحسست به فى مظاهر عديدة. فى حضن أمى. فى سمكة تتراقص بصنارتى. فى نورس يحط على صخرة. فى عصفورة تلتقط حبة. فى فتاة ترقص على أنغام أغنية.فى ابتسامة طفل صغير.فى قبلة ساخنة لحبيبة القلب. فى موج البحر.فى ضحكات أمى الحنون وأنا أمرح بين اخواتى واخوتى . فى عود الخال حنفى. فى عمل أتقنه. فى نجاح أحققه.فى قصيدة شعر.فى لوحة تشكيلية مؤثرة .فى صديق يهتم بأمرى ويشاركنى الأفراح والاتراح. الخلاصة أننى أحببت الحياة وكنت أتفنن فى البحث عن الحب فى كل مكان وفى كل وقت وفى كل شىء دون أن أدرى. تمنيت أن أحب وأحب حتى الشيخوخة. أصبحت على يقين من أننى حين أموت فسوف أموت شهيدا للحب لا لسبب آخر.

****

● البحـــــــــــر:

تعطينى أمى نصف فرنك وهو عملة مسدسة الشكل تساوى قرشين، ومعها مصفاة مستديرة وتقول لى:

- هات لنا سمك من الجرافة ياوله

الجرافة هى مركب الصيد التقليدية ذات الشبكة الطويلة التى تلقى فى وسط البحر ثم يسحبها الصيادون بالحبال الى البر وسط تزاحم الصبية والنساء على الشاطىء بانتظار تفريغ محتوياتها من الأسماك والكابوريا والجمبرى والمحراث ، كل يحمل مصفاته أو غلقه. لم تكن الأكياس البلاستيك قد وجدت فى ذلك الوقت. أعود بمصفاتى محملة بالمرمار والشراغيش والبطاطة والعديد من أصناف الأسماك الأخرى مختلطة بالرمال والأعشاب والطحالب الخضراء.. غير أنى أشعر بسعادة غامرة حين يكون السمك من صيدى لا من الجرافة.

أنزل من البيت بلباس البحر. اتجه مباشرة الى الشاطىء.ألف حول وسطى خيوطا من أشعة الشمس وأفرج عن ضوء القمر الكامن فى صدرى وأطلق نجوم السماء فى أعماق الماء بحثا عن عروس البحر التى تنتظرنى من الأزل دون أن أعرف السبيل الى وصل يجمعنا بلا فصل..عاشق أنا للبحر بأمواجه وأسماكه وعرائسه وجنياته ورائحة أعشابه وتقلبه من حال الى حال. أسبح فى الماء كسمكة مكهربة حتى أصل الى الجزيرة الصغرى ذات الصخور الملونة، فالجزيرة الكبرى ذات الصخور السوداء لايجرؤ على السباحة اليها الا الكبار. أتسلق صخور الجزيرة فى نشوة وثقة حتى أعتلى قمتها.أستخرج"الأورمة" من جيب المايوه وأستخرج الصنارة من جسدها الفلينى، وأسحب شعر الصيد الملفوف حولها بدءا من قطعةالرصاص الصغيرة التى يتفرع منها فرعين بكل فرع صنارة.. انا أستطيع أن أغير هذا العالم المحيط بى وسأغيره حقا بعد أن أستجلب لنفسى وبنفسى كل أدوات التغيير المطلوبة. أنا أستوعب الكثير من أسرار الكون التى لايعرفها الكبار ولكنى لا أستطيع التعبير عنها بالكلمات ، فأنا صغير فى اعتقادهم ولكنى أكبرهم بمئات الأعوام ولو حدثتهم عن الهواتف الغامضة التى تخاطبنى ، ما صدقونى بحال من الأحوال.. الله وحده يصدقنى فهو الذى استودعنى تلك الأسرار.

أستخرج الطعم من الجيب الآخر. قليلا ما أشترى البرغوث- الجمبرى الصغير- لأنى أفضل عليه ديدان الصخور الحمراء التى أستخرجها بيدى من تحت الحجارة القابعة على الشاطىء والتى يصلها قليل من ماء البحر سواء فى المد أو الجزر. الديدان لاتكلفنى شيئا أما البرغوث فيكلفنى قرشين وهو مبلغ ليس بالهين. يسعدنى كثيرا أن أشم رائحة العطن التى تفوح من تحت الطوب حين أرفعه. أنبش الرمال بيدى وأظل أحفر حتى تظهر الديدان فى العمق وهى تتصارع ملتفة حول بعضها البعض من بين الأعشاب المطمورة فى التربة الطينية الرطبة. أتعجب للقتال الوحشى الدائر بين هذه الديدان والذى لم أكن أتصوره قبل أن أرفع الطوبة. يدهشنى أن يدور هذا القتال على الأعشاب المستقرة فى باطن الأرض العطنة المغطاة بالأحجار دون أن يدرى به أحد. لوزادت كمية الماء أو نقصت عن هذا القدر اليسير تحت الطوب لما ظهرت الديدان فهى لاتعيش الا على العطن.

لم أكن أستوعب كطفل فى السابعة مغزى ذلك الصراع الجهنمى ، كما لم أكن أعرف بالطبع أن مشهد الديدان المتقاتلة سيظل عالقا بذهنى وذاكرتى حتى ينطلق من لسانى بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما حين قلت فى محفل ثقافى:

- أنتم يا كتاب الاسكندرية وأمثالكم من كتاب الأقاليم المهمشة تتشنجون و تتناحرون على لاشىء دون أن يشعر بكم أحد، بينما يستقر "أنجر" الفتة فى العاصمة وحدها بعيدا عن عيونكم وأياديكم، ليخطف منه من يشاء مايشاء كل حسب قدرته على إزاحة الأيادى الأخرى المتدافعة الى قلب الأنجر القاهرى.

أستقر على الصخرة وألقى بالصنارتين بعيدا قدر استطاعتى. الصيد بالأورمة يختلف تماما عن الصيد بالبوصة. لكل خبرته ومهارته لو استبعدنا منطق الحظ ومفهوم الرزق. يباغتنى ملك البحار الذى لم يره أحد فى هذا العالم غيرى. يجلس بجوارى على الصخرة .يعلمنى كيف أسبح لله وأحمده. يهمس فى ضميرى أن كل شىء فى هذه الدنيا الى زوال، وأن الانسان بكل جبروته مصيره النهائى الى التراب لتأكله الديدان.
أجمع فى"غلق "صغير ما اصطدته من مرمار وبطاطة وشراغيش وعروس. أفكر فى خال أمى- حنفى- الذى يترك أى طعام تجهزه له أمى ولا يأكل الا السمك الذى أصطاده بعد أن تقليه فى زيت التموين الحكومى الغامق.تسعدنى فرحته البالغة حين أريه ما اصطدته وأفرح برضاه عنى. خالى حنفى- كما أناديه- لا يأكل أسماك النيل كالبلطى وغيره فهو يعشق أسماك البحر ويظل يقلبها بيديه قبل قليها فى نشوة بالغة بينما هى قابعة فى الغلق يتقافز من بقى منها على قيد الحياة بين بقايا العشب الأخضر الداكن المائل الى السواد. أما عشقه الأكبر فهو أصداف الجندوفلى التى أصطادها له خصيصا من أعماق الميناء الشرقى. أكتم نفسى وأغوص حتى القاع. أغرس يدى فى "القرار" تحت رمل المناطق التى تغمرها الأعشاب حيث تكثر الريتسة وأصداف الجندوفلى وام الخلول. عندما أحتاج الى الاكسيجين أطفو الى السطح وأضع صيدى فى الغلق المربوط الى كتفى ثم أغوص من جديد. كل ما أطمع فيه هو أن يرضى عنى الخال حنفى فيعزف لى البشارف والسماعيات القديمة على عوده القديم المرصع بالصدف. رغم أنه تجاوز الثمانين الا أنه يلتهم أطباقا كاملة من السمك والجندوفلى غير واضع فى اعتباره من يشاركونه الطعام، لا عن نهم أو أنانية ولكن عن غفلة الشيخوخة البريئة، وممارسة الشهوة الوحيدة المتبقية له من الحياة ، مرددا فى سعادة بالغة:

- عفارم عليك يا صمير

وصمير هذه تعنى سمير، فهو لايستطيع نطق اسمى الا بحرف الصاد. كانت أمى قد غيرت اسمى بعد موت أبى من سعيد الى سمير حين تناقض عندها مدلول السعادة مع وفاة الزوج والحبيب.
قبل أن يبدأ فى تناول الطعام لابد أن يردد:

- سبحان من حلل الحلال وحرم الحرام

وبعد أن ينتهى من مسح صحنه عن آخره بشهية شاب فى الأربعين وسط تعجب الجميع وتبادلهم نظرات الدهشة، أسارع بصب الماء له من القلة الفخارية فى كوبه المخصص له. أثناء الشرب يصدر أزيزا قويا من بين لسانه وفمه وحنجرته يعقبه بعبارته التقليدية المكررة فى كل وجبة:

- الله على أكلك الحرش يا تحية

ثم يصمت قليلا ويتجشأ بصوت مسموع رغم انه يضع يده على فمه ، وشعور بالزهو يسيطر على نظراته وكانه اختطف من الدنيا فى غفلة منها مغنما كبيرا تتقاتل عليه أمة خلقه. أنظر اليه فيما يشبه التوسل حتى يعجل بالعزف والغناء :

صحت وجدا يانداى واصلونى / أو دعونى انى صب فى هواكم
سال دمعى من عيونى / ذبت من شوقى تماما / فانصفونى وارحمونى
ان جننت اليوم فيكم / فاعذرونى فى جنونى

وأقدم له القهوة السادة التى تعدها له أمى فور أن يطلبها، ثم يواصل العزف والشدو:

يامن لعبت به شموله/ما ألطف هذه الشمائل
نشوان يهزه دلال / كالغصن مايل
لايمكن الكلام لكن / قد حمل طرفه رسايل

ما أطيب وقتنا وأهنا / والعازل غائب وغافل

تهتز أمى وتتمايل طربا مع ألحانه، وأحيانا تصفق بيديها على الايقاع مرددة معه الكلمات وقد حفظتها عن ظهر قلب. أكاد أطير من الفرحة والسعادة دون أن أعرف السبب . يقول لى هاتفى الذى أسمعه دون أن أراه، أن خلايا الانسان الحقيقى ما هى الا أنغام موسيقا ومشاعرحب ، فأزداد احتراما وعشقا لأمى. فى مرة توقف خالى حنفى عن الغناء وراح يعزف تقاسيما شجية على العود كان تأثيرها على أقوى من السحر، إذ رأيت نفسى طائرا فوق السحاب بصحبة سرب ملون من الطيور. دهشت حين رأيت قطرات من الدمع تنساب من عينى أمى، لكنى لم أفهم السبب. دائما أرى فى الدموع لغزا يحير عقلى الصغير.السعيد يبكى مثلما يبكى الحزين.الدموع واحدة رغم اختلاف الحال.قال لى الهاتف ان كل متعة يكمن بداخلها عذاب وكل لذة يكمن بداخلها ألم.. غموض الأسرار الكامنة فى صدرى تهدهده نغمات العود الشجية ، فأرى الدنيا والكون والحياة والموت والماضى والمستقبل فى صدى تلك الأنغام على روحى المتوهجة بحب الحياة التى لم أفهم بعد معناها الحقيقى.

****

● الميـــــــراث

علمتنى الأيام أن الملكية هى المصدر الأساسى المثير للخلاف والكراهية بين الناس عامة وبين الأهل خاصة. ميراث صغير لايزيد عن بيت متواضع فى كوم الدكة يتكون من طابقين ودكان لبيع الأقمشة كانوا يطلقون عليه آنذاك مانيفاتورة. تسبب هذا البيت فى خلاف شديد وقع بين أبى وعمى ، انتهى الى خصام وقطيعة.

لم أحب عمى اسماعيل كما أحببت الخال حنفى. كنت لا أرتاح لوجهه المستطيل وأنفه المعقوفة وعينيه البارزتين. محاولاته الدائمة للتلطف معى لم تسفر عن شىء. فى العيد كان يعطينى عدة ملاليم جديدة مصنفرة لامعة لاتتجاوز قيمتها قرشين، معتقدا أن لمعان العملة وبريقها الأخاذ أهم عندى من قيمتها الفعلية، والحق أنه كان مخطئا فى اعتقاده. فكرت أكثر من مرة أن أعيد اليه ملاليمه وأطلب جنيها كاملا، لكنى كنت أتراجع خوفا من نظرات عينيه القاسية التى تتناقض تماما مع نظرات الخال حنفى الرقيقة ونظرات أمى الحانية التى كنت أسبح فى حنانها كلما نظرت الى النجوم فى السماء.

أمى وخالتى متزوجتين من شقيقين. انتقل الخلاف الذى وقع بين أبى وعمى الى خلاف مناظر بين أمى وخالتى حول نفس الميراث الضئيل.استولى عمى وخالتى على الميراث بأكمله فكانت القطيعة التامة بين الاسرتين. لم يعد عمى يزورنا فى الأعياد منهيا بذلك عهد ملاليمه اللامعة ذات البريق الخداع.

مات أبى وهو فى الخامسة والأربعين. كانت أمى وقتها فى الخامسة والعشرين. قالت لأخى الأكبر كامل:

- أنت الآن رجل البيت المسئول عنى وعن اخوتك

ومرت السنين..التحقت نادية بكلية الآداب ونديم بكلية التجارة وكانت كلية الهندسة من نصيبى. سعدية لم تحصل الا على الشهادة الابتدائية ثم تزوجت. كانت مصاريف الجامعة تلتهم كل ماتكسبه الحاجة تحية وما يكسبه كامل الذى كان يرتعد خوفا من ضياع حبيبته فريدة.عرض على الحاجة الاتصال بالعم ومحاولة الحصول على حقنا منه بأية وسيلة فرفضت الحاجة بشدة أن يتصل أحدنا به مادامت على قيد الحياة.

كان كامل قد صرح لها بحبه لفريدة بنت الجيران وبأنه يريد التقدم لخطبتها. خاطبته أمى بنبرة رقيقة وإن كانت محملة باللوم والعتاب. أفهمته أنه لم يعد من حقه التمتع برفاهية الأمل فى الحب والزواج بعد أن أصبح عائل الأسرة الأساسى. كانت تختزن الأسى لأجله فى قلبها لادراكها الغريزى بأحلام الشباب وأمانيه وأحقيته فى حياة طبيعية ينعم فيها بشبابه ويفجر فيها طاقته.

جاء التهديد لكامل من مدرس تقدم لفريدة وكان يستعد للاعارة الى دولة عربية. أصرت الحاجة على أن نلتحق ثلاثتنا بالجامعة رغم ضيق ذات اليد. كان تصميمها أقوى من الحياة. قالت لكامل:

- لو كانت فريدة تريدك لرفضت العريس وانتظرتك حتى تتحسن ظروفك
- قالت لى انها سترفضه
- وأنا اقول لك انها ستقبله

كانت صدمة كامل فى سرعة زواج فريدة كفيلة بأن تفقده الثقة فى صدق المرأة حين تدوس على قلبها اجلالا للمال.

أما نديم فقد كتم فى قلبه غضبا عارما من فريدة التى كان يضرب المثل بعفتها وطهارتها، وطلب منا ألا يذكر احد اسمها مرة ثانية أمامه. تعجبت من أمره فالمصاب لايعنيه فى شىء، ولكنى قلت ربما كان غضبه تعاطفا مع أخيه، حين ردد أمامى مقولة قال انه سمعها من عجوز، أن"الحرائر والإماء كلهن فى الغدر سواء".

اندفع كامل فى علاقات غرامية عديدة دون حب حقيقى من جانبه.كانت أمى تحذره دائما من التمادى فى هذه العلاقات حتى النهاية المحظورة:

- خل بالك.الزنا يورث الفقر

من المؤكد أنه حملنا –نحن اخوته- قسطا كبيرا من مسئولية ضياع حبيبته، فلولانا لكان الطريق أمامه ممهدا دون عوائق. كنت أشعر أحيانا أنه لم يعد يطيق رؤية أحد منا، خاصة فى بداية أزمته، لكن الأحداث والمواقف أثبتت سوء ظنى به وقد استسلم لقدره وراح يقوم بدور الأب البديل بالتضامن الذى لامفر منه مع أمه.

جنيهاته القليلة لم تكن تغنى ولاتشبع من جوع، فكانت أمى تساهم بالقسط الأكبر من دخل الأسرة بالانكفاء معظم اليوم على ماكينة خياطة قديمة ماركة سنجر.تصنع الفساتين لبنات الحى ونسائه بمهارة وإتقان ولا تغالى فى الأجر. دفعت بأخى الكبير نديم الى العمل المبكر الى جانب دراسته بالاعدادية. تمنت أن يحصل على الشهادة الجامعية عوضا عن اضطرار كامل للاكتفاء بالدبلوما المتوسطة التى أتاحت له وظيفة متواضعة بإحدى المصالح الحكومية. عمل نديم ممرضا بعيادة أحد الأطباء بعد أن خاض امتحان اعطاء الحقن بنجاح. تساءلنا جميعا متى وأين تعلم نديم هذه الحرفة، لكنه كان يعرف كيف يحصل على القرش بشرف واجتهاد فى صمت وسرية وغموض . دفعت بى أيضا الى المشاركة فى إطعام الأسرة فسلمتنى الى الحاج محمد صاحب مصنع تعبئة الشاى الشهير بشاى القويرى. كنت أتقاضى فى اليوم قرشين ونصف قرش، وكان نديم يتقاضى ثلاثة جنيهات فى نهاية كل أسبوع.

فى الليل كانت تتابعنا باهتمام شديد حتى تتأكد من أن كلا منا يذاكر دروسه رغم عودتنا من العمل مجهدين. التعليم عندها كان أمرا مقدسا لايحتمل النقاش. كانت على استعداد للتضحية بالغالى والرخيص حتى نكمل تعليمنا.

أسرتنا بأكملها توارثت العمل الوظيفى أبا عن جد. لم يظهر بينها أحد يدير عملا خاصا أو يمتلكه، كأنه كتب علينا أن ننضم جميعا الى قافلة محدودى الدخل حتى نموت.نديم كان له موقف آخر يضمره فى نفسه. أدرك بفطرته أن الوظيفة ستعلمه الخوف والجبن، حيث يطول عليه الشهر وكأنه دهر فى انتظار اليوم الأول من الشهر التالى حتى يتسلم راتبه المعروف والمحدد بالقرش والمليم. تنتابه حسرة مؤلمة كلما رأى كامل ممسكا بقلم وورقة ليوزع راتبه على ايجار المسكن والنور والمياه والمأكل والملبس، فلا يمر شهر واحد دون عجز أو احتياج لما يكمل به أيامه الثلاثين، اما بالاقتراض من قريب أو صديق، وإما بسلفة من العمل مرهونة برضا المدير واقتناعه بقوة الحجة الكاذبة المطروحة عليه للموافقة على السلفة. طالما عبر لى نديم عن شعوره بالذل والاهانة أمام وضعنا الاقتصادى.يقول دائما كلما واجهنا نفس المشكلة:

- الحل مرهون بمغادرة هذا البلد.. لو بقيت فيه فسوف أصبح مثلكم

يتحدث عنا كما لو كان قد خلق من عجينة أخرى. يخيل الى انه يرى الفقر مجسدا فى صورة كيان مادى مرئى ومسموع ومحسوس ، وانه قد كتب عليه قتاله حتى الموت بلا بديل آخر..وأتساءل ياالهى لم خلقت أناسا فقراء وآخرين أغنياء. ما حكمتك فى ذلك وأنت الحكيم الخبير.أتذكر قول جلالته فى حديثه القدسى:"ان من عبادى من لايصلح ايمانه الا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لايصلح ايمانه الا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك". أدرك الهاتف حيرتى فهمس لى محذرا:

- لاتجهد ذهنك ياسعيد فيما لايفيد، فوراء كل ذلك حاكم عادل مهما عجزت عن فهمه.

قال لى نديـــــــم:

- من المؤكد أننى لن أستطيع مواصلة الحياة بهذه الكيفية. أنا لم أخلق لأكون موظفا مستسلما لثوابت المرتب والعلاوة ومؤامرات الموظفين وضيق ذات اليد والوقوع تحت أسر المقارنة

البغيضة بين حالتى وحالة أولئك الغارقين فى تخمة الثراء ومتعته ونعيمه. بقائى فى وظيفة ثابتة فى مصر لن يحقق لى أحلامى العريضة فى الارتقاء والصعود كى أحقق ما تصبو اليه ذاتى الطموحة العادلة. تقول لى يا سعيد ان الانتماء الى الوطن ما هو الا وثيقة مواطنة موقعة من طرفين هما الوطن والمواطن ، فإذا غاب توقيع أحد الطرفين أصبحت الوثيقة لاغية وتبدد الانتماء. أنا أتفق معك فى الرأى ، لكنى لا أريد الانتماء لوطن لم يوقع معى على وثيقتك الوهمية. وطن مرتبك فى كل شىء. لماذا لاأعيش فى قصر به حمام سباحة مثل فلان وعلان ممن يفلقوننا بأحاديثهم الكاذبة عن الوطن والوطنية؟.."ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها"؟..

الفساتين التى كانت تصنعها أمى كانت تجلب لنا القسط الأكبر من دخلنا الشهرى. مساهماتى أنا ونديم كانت – رغم ضآلتها - شديدة الأهمية عندها لأنها كانت تدرك أنها تصنع منا رجلين صغيرين يمكن الاعتماد عليهما حين يكبران وقد تعودا تحمل المسئولية.. كما أن تلك المساهمات لم تكن منتظمة كشأن راتب كامل وفساتين الحاجة تحية، فنديم طرد من العيادة بعد اتهامه بسرقة شىء من العيادة لا أتذكره. يومها بكت أمى قهرا فقد كانت واثقة من أمانة ابنها.. ولما اكتشف الطبيب براءته وعرف اللص الحقيقى جاء الى الحاجة معتذرا ، لكنها عاملته بجفاء شديد ولم تقبل اعتذاره وانصرف آسفا مندهشا.

امتنع نديم عن الطعام والكلام لما يقرب من يوم كامل عقب زواج فريدة مباشرة . صب جام غضبه من الحياة على جنس المرأة واصفا اياها بالحقارة والنفعية والانتهازية ، وبأنها لاتعرف غير مصالحها ورغباتها. تعجبت من وجهة نظره الغريبة فى المرأة والتى فجرها فجأة على غير توقع رغم أن أمر فريدة لم يكن يعنيه فى شىء. تكوم فى سريره صامتا عازفا عن الجميع.كان شروده فى ذلك اليوم مخيفا حتى ظنت أمى ومعها كامل أنه قد أصيب بصدمة عصبية عنيفة قد تتسبب فى أذيته ، ومن ثم فلا مفر من أخذه الى المستشفى ليتم الكشف عليه.

فوجئنا به فى اليوم التالى سعيدا باسما يأكل بشهية مفتوحة وكأنما اهتدى الى الحل النهائى لمشكلته مع الفقر والحياة. تمنيت لو دفعت عمرى ثمنا لمعرفة مايدور بعقل هذا الكائن الغريب، لكنه أبدا لايفصح عن مكنون نفسه لأحد إلا فيما ندر.

أما أنا فقد ذهبت فى أحد الأيام متأخرا بخمس دقائق عن موعد العمل فشتمنى الحاج محمد قائلا:

- يخرب بيت اصحابك

سألت جارتى بركن التعبئة الذى نعمل به عن معنى مقولته. أفهمتنى أن المقصود بهؤلاء الأصحاب هم أهلى أى أبى وأمى. رغم انى غليت غضبا الا أنه لم يخطر ببالى أن أضحى بهذا العمل الذى يدخل الى البيت قرشين ونصف كل يوم. ولما عدت الى البيت كاتما بصدرى ماحدث، تفحصتنى نظرات أمى الثاقبة فأدركت ما بى من غم واستنطقتنى بما حدث. قالت لى بحسم رائع:

- من بكرة تلزم بيتك

كانت فرحتى بقرارها عارمة، إذ أشعرتنى أن قيمتى عندها غالية، وأكبر من ان تتعرض للسباب من عجوز أحمق مغتر بماله. حاولت أن أعوضها عن القروش المفقودة فارتديت ملابس البحر وعلقت الغلق على ذراعى استعدادا للصيد. اعترضت طريقى قائلة فى حنان:

- البحر هائج اليوم يابنى
- لا تخافى يا أمى أنا سباح ماهر
- كلمة واحدة. اخلع هذه الهدوم واقعد ذاكر لك كلمتين.

فكرت حينئذ فى الحاج محمد الذى شتمنى والطبيب الذى ظلم أخى فقال لى الهاتف الغامض الذى يلازمنى فى ليلى ونهارى وصحوى ومنامى ان الناس هم جحيم بعضهم البعض، فقلت له اننى لم أفهم ماقال. جاءنى بعد عشرات السنوات وراح يتصفح مذكراتى التى كتبت فيها:"...وأنا اتفق مع سارتر فى أن الآخرين هم الجحيم – بعد أن صرت وجوديا مؤمنا- بل انى أرى فى بعضهم ما هو

أفظع من الجحيم، اذ تضامنوا عن قرب و بعد وعن معرفة ونكران فى استخراج الأديان الثلاثة التى أؤمن بها من أعماق سريرتى والالقاء بها فى فضاء الكون. قال لى هاتفى انه من السهل أن أتخلى عن ايمانى ، لكن الحياة بغير ايمان ستكون جحيما لايحتمل ، والحق أن الحياة فى غياب هؤلاء الآخرين هى الأخرى جحيم لايطاق وان اختلفت طبيعة الجحيمين، وليس هناك من يفوق الزمن فى قدرته على الشهادة بصدق ادعائى"..

ثم فكرت فى مسألة الميراث والتوريث فوجدت أن هناك بعض الناس يكدسون أموالهم فى البنوك دون الاستمتاع بإنفاقها فى دنياهم، واذا بهم يموتون فجأة – رغم أنهم كانوا على يقين من أنهم سيموتون يوما ما- فيسارع الأهل والأقارب – فى نهم شديد- الى سحب تلك الأموال لينفقوا منها بالحق والباطل فى الخير والشر، وقال لى الهاتف :

- **المال أعظم خادم وأسوأ سيد، اذا استخدمته خدمك واذا خدمته استخدمك.**

****

● عمـــى والموت والبحر:
كنت قد تجاوزت السابعة والعشرين حين قررت التمرد على قرار أمى بمقاطعة العم والخالة، وأن أذهب اليهما بنفسى لأتعرف عليهما لأول مرة منذ طفولتى. كان استقبالهما لى حافلا بالترحيب والاهتمام خاصة من الخالة التى انهارت فى البكاء وهى تأخذنى فى حضنها. أما العم فما أن نطق بعدة كلمات يلوم فيها أمى على مقاطعتها لهم ، حتى أدركت أنه انسان مسكين لاحول له ولاقوة.
شعرت بعد هذا اللقاء أن مقاطعة العم والخالة أو الابقاء على العلاقة معهما أصبحا – عندى - أمران متشابهان متساويان. نادية كانت دائمة الانحياز الى وجهات نظر أمى. أما نديم فقد كان أكثرنا كراهية للعم اسماعيل . لست أدرى لماذا وكأن بينهما ثأر قديم. حاولت إغراءه أكثر من مرة بزيارته من وراء الحاجة وكامل حتى نتعرف عليه فربما استطعنا اجتلاب عطفه ومودته وعونه.
قال نديم بحرقة:
- ان رجلا يسرق مال أبناء أخيه اليتامى لايستحق الحياة
- هل أفهم من هذا انك تخطط لقتله مثلا؟
- أنا لن أقتله ولكنى عاهدت نفسى ألا أراه ماحييت
- وهل هذا يحل المشكلة؟
- لم تعد هناك مشكلة فالفلوس سرقت وصرفت وانتهينا..المهم أن نجد وسيلة نفلت بها من الفقر
- كيف؟
- الآن لست أعرف ، ولكنى عاهدت نفسى أمام الله أن أجد هذه الوسيلة ولو دفعت حياتى ثمنا لذلك
- هل هناك رقم معين من المال فى تصورك ينبغى أن نحصل عليه حتى نضمن معيشة مستورة؟
- المهم هو نقطة البداية
كالمعتاد لم يكشف لى عما يدور بذهنه أو عما ينوى أن يفعله لحل مشكلة أزلية تعهد أن يأخذ على عاتقه انقاذنا من براثنها.
مات عمى اسماعيل بعد أشهر قليلة من زيارتى له. كانت مسيرة الجنازة موازية لشاطىء البحر وكان الجو شديد الحرارة. . نظرت بشوق جنونى الى البحر. لم أستطع مقاومة نداء حبيبتى القابعة فى قراره. لم أكن حزينا أو سعيدا.كانت مشاعرى متجمدة. تأثيرات الموت اذن متفاوتة وفى العموم هى غير مفهومة، بدليل أنها تنسى بعد دفن الميت وكأن شيئا غير عادى لم يحدث. لم أشعر بنفسى وأنا أنسحب تدريجيا من خلف النعش ثم خارج مسيرة الجنازة متجها الى البحر مباشرة. خلعت ملابسى جميعا عدا اللباس الداخلى وقذفت بنفسى الى الماء تاركا الأمواج تداعبنى فى نشوة أنستنى الأموات والأحياء. أمضيت ما يقرب من الساعة أسبح فى هدوء وأنا منفصل عن الزمن تماما. خذلتنى عروس البحر فلم أجدها بانتظارى ، وانما وجدت أسرابا كثيفة من الأسماك الملونة تحيط بى وترقص من حولى على موسيقا منبعثة من أعماق القاع ، أشجتنى وأبكتنى حتى امتزجت ملوحة دموعى بملوحة ماء البحر وقد تطهرت تماما من أدران الحياة. لما خرجت من الماء كنت مضطرا للجلوس فى الشمس طويلا حتى يجف ملبسى الداخلى قبل أن أرتدى بقية ملابسى.
تذكرت لقائى الوحيد مع عمى فى حياته وما انطبع فى ذاكرتى عنه من مشاعر سلبية، كما تذكرت مقولة سقراط الشهيرة:"تكلم حتى أراك".

****

-٢-

أفهمنى المحامى أن الأمر متعلق بشقيقى الغائب. أعربت له عن دهشة أسرتنا الشديدة من سلوك نديم الغريب الذى كان شحيحا للغاية فى الاتصال بنا على مدى تسع سنوات مضت ، رغم أن وسائل الاتصال الحديثة المتاحة عبر الانترنت لاحصر لها ، فضلا عن الوسائل التقليدية القديمة كالخطابات والمكالمات الهاتفية. لم يستطع أن يقدم لى تفسيرا لذلك على الاطلاق.

عرفت أنه قادم لتوه من أمريكا عقب لقاء مع موكله حيث تولى مؤخرا بعض شئونه المالية والادارية هناك. تساءلت فى نفسى :يا الله!!..ترى هل يعقل أن تكون نبوءة نديم قد صدقت وتحققت أحلامه وأصبح هو الفرد الوحيد فى أسرتنا من كبار الأثرياء، تماما كما تصور وتمنى وتخيل ، وبكل ثقة توقع؟..

وضع أمامى مظروفين. قال ان المظروف الأول يحتوى على بضعة رسائل كتبها نديم بخط يده ، اما الثانى فيحتوى على أوراق ومستندات هامة تتعلق بثروته وبعض العقود ، دون اشارة بأى شكل لكيفية التصرف بشأنها.

حاولت الاستفسار عن المزيد من أحوال أخى كى أطمئن على مصيره الذى آل اليه فى غربته الغامضة، لكنه لم يفدنى بما يشفى غليلى ويطمئن قلبى. لست أدرى هل كان يتعمد ذلك التكتم لأسباب لست أفهمها، أم انه لم يكن بالفعل يعرف شيئا عن أسرار أخى البارع فى التحفظ والتكتم منذ صغره. كل ما أفادنى به أن نديم لم يصبح مليونيرا فحسب وإنما أصبح يتمتع بمنصب سياسى خطير فى الولايات المتحدة الأمريكية التى سبق أن تجنس بجنسيتها من قبل. لقد تجاوز كل حدود البراعة والمهارة فى التقدم والارتقاء حتى أصبحوا يسمونه هناك بالشيطان.لم يشأ نديم أن يطلعنا على أماكن اقامته فى الولايات التى تنقل بينها عبر تلك السنوات فلم يستطع أحدنا أن يكاتبه الا فيما ندر.

وضع المحامى المظروفين أمامى وقال انه سيكون رهن اشارتى لو احتجت اليه بخصوص الأوراق المحفوظة بالمظروف الثانى ، وانصرف.

اذن مازالت الحياة تحمل مجاهيل جديدة فى جعبتها من المفاجآت المثيرة التى توقظ النائم وتبعث الحياة فى النفس الميتة. لا معنى لليأس والزهد والاستغناء واغلاق دفاتر الحياة والاكتفاء بالانتظار الكئيب للموت ، فمن يدرى ما يخبئه الزمن؟..

ما أن اختليت بنفسى حتى دفعنى حب الاستطلاع الزائد الى فتح المظروف الذى يحمل اسمى وبدأت فى قراءة ما كتبه لى ، حين قال لى الهاتف ان جنيات البحر أوصته بى خيرا ، فلم أفهم مقصده ولما استفسرت منه عما تقصد الجنيات قال لى اننى سوف أفهم كل شىء فيما بعد ولكن ليس الآن.

"أخى سعيد:

يخاطبك الآن حطام انسان لم يعد يمتلك الا شيئين أولهما أموالا طائلة لكنها مجمدة لايعرف ماذا يفعل بها بعد أن أفنى عمره فى جمعها ، وثانيهما مجموعة من الخبرات الانسانية الصادمة والتى لا أحب أن أموت قبل أن أنقلها لشباب أسرتنا المسكين العائش فى أوهام دينية مغلوطة وأعراف اجتماعية متخلفة تشده جميعا الى الخلف وتحول بينه وبين اقتحام الحياة فى جرأة وشجاعة.

معذرة يا أخى العزيز على انقطاعى الطويل عنكم. لم يكن لدى استعداد لأدنى ارتباط أسرى أو عاطفى يمكن أن ينشأ من خلال التراسل او المحادثات التليفونية أو غيرها من الوسائل المتاحة. كنت

فى حرب مع الحياة دونها الموت.ان شبح الفقر كان يفر من قسوتى وجبروتى وانعدام مشاعرى الانسانية. كان لابد أن أنتصر عليه والا فلا معنى لوجودى على هذه الأرض. كم أخفيت عنكم جميعا شعورى بالمهانة ومرارة الحرمان فى طفولتى وأنا أرى الأطفال الآخرين منعمين مدللين متمتعين برعاية آبائهم المقتدرين ، بينما كان على أن أمشى بحذاء ممزق عدة كيلومترات الى مدرستى ولا قرش واحدا فى جيبى. خشيت الاتصال بأى فرد منكم قبل أن أصرع هذا الوحش الجبار ، فأى اتصال بأحدكم – وخاصة أمى - كان سيضعف من عزيمتى ويعيد الى انسانيتى وعواطفى ومشاعرى فأهدى غريمى فرصة سانحة لسحق كرامتى وشل ارادتى وهزيمتى ، وكان هذا ضد مخططى تماما ، إذ حذفت كل هذه الخزعبلات الوجدانية من قاموس حياتى.

لن تصدق يا أخى أن كل ما حدث لى هنا فى الغرب وكذلك كل ما زال يحدث لى الآن كان مدونا من قبل فى ذاكرة عقلى بصورة أو بأخرى، لكنى لم أكن أتكلم أو أفسر أو أحكى لأحد منكم عما يدور بذهنى من أفكار وخيالات حول الله ومخلوقاته وتوزيعه الفقر والغنى على عباده كيف يشاء. كان من المستحيل أن أحدث أحدكم عما يمور فى نفسى من انفعالات قاسية مدمرة تشكو من الظلم وغياب العدالة على الأرض لأسباب أجهلها ولا أعترف بها أيا كانت. لو حكيت لكم عن حلمى لأشفق البعض على وسخر البعض الآخر منى. لاتتصور كيف كان الطبيب الذى عملت فى عيادته ينظر الى فى بداية الأمر كما ينظر الى شىء لا الى انسان. كانت نظرات عينيه تنسف كيانى من الداخل ، فنظرته الى حشرة على الأرض قد تكون أكثر قيمة عنده من نظرته لى. كان هذا قبل أن يتهمنى دون دليل بالسرقة ، وأنا الذى كان احترامى الخفى لذاتى منذ نعومة أظافرى يفوق الوصف ، بحيث يستحيل أن آتى بعمل دنىء كهذا يتناقض كل التناقض مع حلمى الكبير بأن أكون كبيرا فى كل شىء دون غرور أو تعال أو كبر. كنت أتساءل لماذا كتب على أن أعمل أجيرا عنده وأن تواجهنى نظراته المجرمة كل يوم ، بينما يرتدى ابنه أجمل الملابس والأحذية ويجرى فى أرجاء العيادة مرحا مختالا يجد لنفسه الحق فى ان يرسلنى لأشترى له زجاجة كوكاكولا ، فأنا – ولست أدرى لماذا – خادم أبيه.

اسمع ياسعيد..أنا لست أكتب اليك اليوم لأبرر لك أو لنفسى ما كان من انقطاعى عنكم ، لكنى أرسل اليك هذه المتفرقات التى دونتها حسبما أتاح لى وقتى من فرص نادرة استطعت فيها أن أخلو الى نفسى محاولا قدر المستطاع استعادة انسانيتى من جديد بعد أن استبدلت بها النجاح والمال والمجد والعلو فى الأرض وتحقيق الحلم والقضاء على وحش الفقر الكاسر.. ".

****

● فقراء وأغنياء:

.. رسالة نديم توحى باعتقاده أنه انتصر على الفقر، لكنى أرى أن الفقر هو الذى انتصر عليه بأن شوهه ودمر انسانيته...

****

أصدقائى أطفال حى رأس التين معظمهم من عائلات فقيرة. قلة منهم ينتمون الى آباء أثرياء سواء كانوا من كبار الموظفين أو أصحاب ورش صناعة السفن او تجار الأسماك، أو من ذوى الأملاك الذين لايفعلون شيئا فى حياتهم غير جمع ايرادات أطيانهم وعقاراتهم. كان أقرب هؤلاء الأطفال الى قلبى وأكثرهم التصاقا بى هو"على" الشهير فى الحى ب"على ابن الحاج احمد". أما الحاج احمد فهو قبطان بالبحرية يسافر الى بلاد العالم ويعود كل عدة أشهر محملا بالهدايا الثمينة، يقتنيها على فى سعادة ، بينما ينظر اليها معظم صبية الحارة فى غيرة وحسرة إذ لم يكونوا قد عرفوا الحسد بعد. أنا لم أكن مثلهم على الاطلاق لأن تلك المشاعر لم تراودنى، وانما كنت أفرح بهدايا الحاج احمد لأنى اتمتع باللعب بها مع على كما لو كانت ملكا خالصا لى، وبصفة خاصة تلك الدراجة الملونة التى أجوب بها أزقة الحى وحواريها فى ثقة تامة، بل اننى كنت أعيرها أحيانا بكل بساطة لبعض الأصدقاء لشعورى الصادق بملكيتى التامة لها رغم افلاس جيبى من قرش واحد، وانهاك بصرى بالنظر فى الأرض ربما تكرر عثورى على جنيه سقط سهوا من عابر سبيل كما حدث لى مرة من قبل.

فى المدرسة الابتدائية وخلال الفسحة أخرج من حقيبتى القماشية - التى صنعتها لى أمى- رغيفا بلديا بداخله قطعتين من الطعمية وقطعتين من اللفت المخلل. يخرج على من حقيبته الجلدية الفاخرة المستوردة رغيفين من العيش الافرنجى أحدهما محشو بخليط ثرى من البيض والبصطرمة والآخر بالجبن الرومى والخيار المخلل. ندمج الطعامين فيما يشبه الاتحاد الفيدرالى الذى نسميه"غدّيوة" ونأكل معا بشهية بريئة.

تلعب أمهاتنا دورا خطيرا فى تربيتنا، فالآباء مشغولون دوما بلقمة العيش. نظرة صارمة منذرة من أمى كانت كفيلة بإصابتى بالرعب والتراجع عن أى نية خبيثة تخطر ببالى. تهددنى الحاجة تحية دائما بانها ستعمل لى "طرنبة" اذا ما"تفرعنت" أو عملت"خبثا". الطرنبة هى الحقنة الشرجية الزجاجية العتيقة بخرطومها الطويل والمعلقة دائما فى الحمام كأداة ارهاب معلنة. أما الفرعنة فمنها أننى انتهزت فرصة نسيانهم لسلم البيت الخشبى الطويل بإحدى الغرف التى ينتهى جدارها فى احد الأركان بشباك علوى صغير مهجور يطل على المنور الداخلى للبيت. كنت أرى اليمام الوديع يحوم دائما ويرفرف حول هذا الشباك وأنا مبهور بجماله ، عاشق لندائه المحبوب"وحدوا ربكوا". تسلقت السلم ومددت يدى الى عش اليمام مستخرجا منه بيضتين صغيرتين وأنا فى غاية من السعادة. نهرتنى الحاجة تحية وحذرتنى من احتمال ان يكون هذا البيض بيض "حنش". و؟أما الأخباث فقد حاولت تقليد الخال حنفى بوضع "النشوق" فى فتحتى أنفى أسوة به. والنشوق هو مسحوق بنى اللون يستنشقه الخال فى سعادة ثم يعطس عدة مرات وينتهى الأمر. الجماعة العواجيز فى منتهى اللذة . أحبهم كثيرا. أحب أيضا الأطفال والأسماك والطيور والأشجار وكل مخلوقات الله الجميل الجميلة،فكلنا من صنعة يده الساحرة. رأيت كومة من الرمال على أرض الزقاق بجوار طوب يجهز لبناية صغيرة. حشوت أنفى بكومة منه فانكتم نفسى وكدت أموت اختناقا. استمر عطسى حتى انكشف أمرى ونلت ماقسم لى من عقاب على فعلى الخبيث.

وصايا عديدة وتنبيهات مكررة أسمعها من أمى وأم على وترددها كل أمهات الحارة:

- لما تدخل بيت صديقك بصّ فى الأرض ولا تتفحص المكان

- لاتخالط من هم أكبر منك سنا
- لاتبص الى ما بيد غيرك. ارض بما قسم الله لك واحمده عليه.

مازالت نصائحهن محفورة فى ضمائرنا حتى بعد أن شخنا جميعا. النصيحة الأخيرة كانت الأقرب الى عقلى ووجدانى.

ظاهرة قدرية غريبة تلازمنى مدى الحياة، ذلك أن معظم الأصدقاء القريبين من قلبى كانوا وما زالوا أثرياء. أقضى الصيف فى فيلا أحدهم بالشاطىء الشمالى.يتركها لى أنعم بها مع أسرتى للمدة التى تسمح بها ظروفى. يسلمنى آخر مفاتيح شقته بأسوان لو طلبتها فى أى شهر من شهور الشتاء. يصحبنى آخر فى عربته للتجوال فى أقاليم مصر. نبيت معا فى أفخم الفنادق. لم أنظر يوما الى عطائهم باعتباره جميل ينبغى أن يرد بشكل أو بآخر، وانما باعتباره حقا من حقوق الصداقة ، ايمانا منى بأن المصادفة القدرية وحدها هى التى جعلتهم من أبناء الأثرياء وجعلتنى من أبناء غير القادرين ، وأنه كان من الممكن أن تتبدل الأدوار بين يوم وليلة ليصير الغنى فقيرا والفقير غنيا، لولا مشيئة الله فى توزيع رزقه كما علمنا الشيخ رزق فى مدرسة أبى شوشة الأولية لتحفيظ القرآن. كنت أعشق موسيقا القرآن الساحرة المنبعثة من صوته الرخيم وهو يتلوه فى محبة وخشوع . سألته أن يصف لى الله فقال بحسم وعلى فمه ابتسامة جميلة:

- ليس كمثله شىء

سألته لماذا خلق البعض أغنياء والبعض فقراء فقال:

- هو صاحب الملك يفعل به مايشاء

فى صباى كنت مشغولا مع نفسى بأمور كثيرة لم أجد من أفضى بها اليه فلم أفصح عنها لأحد. تساؤلاتى البريئة لم يكن لها سقف. كانت تحوم حول معنى الله و السعادة والفقر والغنى والايمان والحب والجريمة والسلطة والشهرة والرزق والحظ والسقم والصحة والتنافس بين بنى البشر. تحيرنى تلك القضايا الضخمة مثلما تحيرنى الدنيا الحافلة بالألغاز والأعاجيب والأسرار. على مدى العمر كلما تصورت أننى بلغت منها قدرا من الفهم والمعرفة، تبين لى أننى شديد الجهل بألاعيبها وتقلباتها بين الليل والنهار وتعاقب الأحداث. رغم ذلك فقد اكتشفت أننى عاشق لها تحت أى ظرف من الظروف. كثيرا ما كان عجزى عن فهمها يدفعنى الى القاء نفسى فى محيط من الأوهام وأحلام اليقظة، يجسدها لى خيالى الحالم كواقع لاشك فيه... أرى نفسى جالسا على المقعد الخلفى لعربة فارهة من أحدث الموديلات، مشيرا فى تواضع - مشكوك فى صدقه- الى سائقى الخاص بالتوجه الى هنا أو هناك.. أجلس فى قصرى المنيف المطل على البحر بالشرفة الواسعة المحاط سورها بألوان وأشكال من الورود والشجيرات الصغيرة الملونة. تأتى لى الخادم بفنجان القهوة المصنوعة من البن المحوج الغامق وبجواره قطعتين من البسكويت بالشكولاتة..ويظل الحلم والواقع ممتزجين فى حياتى بحيث يصعب على أن أفصل بينهما مهما بلغ تناقضهما. هأنا أغادر شرفة القصر العظيم تلبية لنداء أمى كى أتناول معها ومع اخوتى كامل ونديم ونادية طعام الافطار المكون فى معظم الأحيان من الفول والطعمية وورق الفجل أو الجرجير. كنا فى البداية خمسة أخوة وأخوات حتى تزوجت الأخت الكبرى سعدية من الاستاذ شكرى الموظف بالداخلية وانتقلت الى بيت الزوجية المجاور لبيتنا أمام البحر مباشرة. سعدية هى الصديقة الحميمة لأمى واللصيقة دوما بها. لو لم تكن أمى تكره شكرى لأقامت عندها وما فارقتها أبدا.

تبين لى أننى لست الوحيد الذى يلجأ – حين العجز- الى أحلام اليقظة، فقد ظل شعب مصر بأكمله يحلم فى يقظته بل وفى منامه أيضا بإزاحة حكم مبارك وطغمته الفاسدة دون قدرة على الفعل ، حتى جاء يوم تحققت فيه المعجزة فتحول الحلم الى حقيقة.

****

- **تساؤلات اليتيم:**

فى الثانية من عمرى مات أبى. كان أخى نديم فى حوالى السابعة. معظم أولاد الحارة كان لهم آباء يمشون على وجه الأرض. لا أستطيع الادعاء بأننى لم أكن أشعر بالحزن والتعاسة عندما أرى آباءهم يصحبونهم الى الشاطىء او الى حديقة الحيوان ويشترون لهم الحلوى والشيكولاتة. المقارنة كادت أن تفرض نفسها على وجدانى الغض الذى لم يكن قد تشكل تماما، لولا رحمة من الله – أدركتها فيما بعد- هى التى أنقذتنى من أسرها اللعين دون اجتهاد من جانبى. نديم على العكس منى تماما إذ تمكنت منه آفة المقارنة، غير أنها لم توقع به فى براثن الحقد على الآخرين موضوع المقارنة، وانما حولته الى كائن روبوتى تتحرك كل ذرة فى جسده حول نواة المادة بكل حواشيها من تجارة وربح وثراء. فى الاجازات الصيفية كان يبيع الجيلاتى والحلويات على الكورنيش بالاشتراك مع بعض أصدقائه. أحيانا كان يصنع أعلاما مصرية صغيرة لا تتجاوز مساحتها سنتيمترات مربعة قليلة أضافت لها الحاجة تحية "دبوس شنكل" ليستخدمها الصبية كحلية على قمصانهم. كان ثمن العلم بدبوسه المشبك مليمين. المهم أن نديم كان يعود يوميا الى البيت وبجيبه عدة قروش بلغت أحيانا نصف جنيه و ربما تجاوزته. نديم عقلية حسابية بحتة. كل شىء عنده لابد أن يقابله شىء . كل فعل له رد فعل. الوقت عنده من ذهب. لايشارك أقرانه اللعب الا قليلا، وإن فعل فبدافع من مصلحة ما وان كانت مستترة على الجميع. كنت أقرأ بفطرتى فى نظرات عينيه الناطقة بالعزم والثقة، ما يجول بخاطره وكأننى أسمعه يقول:"عندما أكبر سأمتلك الشركات والأراضى والعقارات".. لكنه لم يصرح بذلك لى أو لأحد من اخوته أبدا، وكأن حلمه قدس من الأقداس لا يحق لأحد سواه أن يطلع على أسراره. طالما حاولت أمى تعليمه الصلاة ، لكنه لم يمتثل لها ولا أذكر اننى رأيته يوما يصلى لله، غير أننى ضبطته أكثر من مرة يخفى أكثر من كتاب يقرأه عن عظماء العالم ومشاهيره. أشفقت عليه من طموحه الزائد وتطلعاته الجامحة.

مرة قال لأمى باقتناع شديد عقب انتهائها من الصلاة والدعاء الى الله:

- **الله لن يوسع رزقنا بالدعاء يا امى**
- **حرام عليك ما تقوله يا نديم**
- **اتساع الرزق مرهون بالعمل وحده لا بتسوله من الله**

أنا محظوظ مع الله وخلقه.أجلس وحيدا بالساعات على صخور الجزيرة الصخرية الصغيرة والأمواج الهادئة تتدافع امامى والنوارس تحلق من حولى ، ونسمات كأنها من عبير الجنة تهفهف من حولى فيكتسى الجو بسحر جميل، يجعلنى أتوحد منذ صباى مع الطبيعة وخالقها وكل مخلوقاته دون أن أدرى. لا أفرق بين نفسى وبين أى سمكة حين أغوص فى الماء. اتساع البحر يجذبنى الى شىء لانهائى لا أدرك كنهه تماما، لكنى كنت أظن أحيانا أنه هو الله الذى قال لى عنه الشيخ رزق انه ليس كمثله شىء. أحببت هذا الاله الغامض وصرت بسبب حبى له أغضب كثيرا عندما يسب على ابن الحاج احمد الدين لأحد أو لأى شىء، فهو يدخل كلمة "دين" فى كل جملة مفيدة أو ضارة ينطقها. ورغم أنه ولد طيب وابن ناس الا انه كثيرا ما يشخر خلال حديثه مع الآخرين حين لايعجبه الكلام أو يعترض على موقف أو شخص. والشخر خصلة سكندرية قديمة يصدر فيها الشاخر صوتا ناتجا عن ارتجاج عظيمات أنفه، وتعنى السخرية من شىء ما أو رفضه. ولهذا الصوت أنغام ودرجات متنوعة من الشخر منها الحاد ومنها الغليظ ومنها الوسط.

لم تكن هناك صلة صداقة وطيدة تجمع بينى وبين نديم. عشرات الأسئلة تطاردنى فأطرحها على صبية الحارة ولا اظفر منهم بنتيجة، لأنهم كانوا فى معظم الأحيان لايفهمون حتى معنى الأسئلة. نديم كان يفهمها لكنه لايجيبنى عنها لست أعرف لماذا. لعله كان نوعا من التعالى علىّ أو تجاهلى باعتبارى صغيرا لم يتجاوز السابعة، ولايحق له الاستفسار عن معانى الخلق والله والدين والوطن والرزق والحظ بنوعيه..أو لعل السبب أنه كان يشعر تجاهى بشفقة مستترة لكونى رومانسيا حالما

منذ طفولتى ، لا أظهر أمامه أى اهتمام بمسألة المال التى تأكل عقله. لم يكن يخطر بباله أن هناك أفكارا أخرى أكبر من المال تشغلنى أضعاف ما تشغله أفكاره، لكن انشغالى بقى محصورا فى نطاق الفكر والحلم والخيال والتمنى، أما هو فكان جريئا مقداما، جديرا بأن يسحق الفكرة الراسخة فى وجدان العائلة بأن الثراء لن يعرف طريقه يوما الي أحد من افرادها. كان على يقين من أن الفقر ينتقص من كرامته وكرامة أسرته ، وأنه لابديل عن الحياة الكريمة التى لاتتحقق الا بالثراء..وأن الله قد خلقه لينتزع لهذه الأسرة كرامتها من بين براثن الفقر والحاجة.

كما ذكرت فى البداية كان عدد أصدقائى المقاربين لى فى العمر محدودا، كما لم تكن أحاديثهم التافهة تروق لى. كنت مضطرا الى مشاركة الكبار من أصدقاء نديم مجالسهم على الشاطىء. أستمع فى حيرة ودهشة الى أحاديثهم عن الحب والمرأة والزواج والطلاق وغيرها من مسائل لم يكن عقلى قادرا على استيعابها بما يكفى للمشاركة فى الحوار. كنت أكتفى بالاستماع ، ثم اجترار ماسمعته فيما بعد بينى وبين نفسى فى خلوتى بين الصخور والأمواج.

لم يبق لى الا الحاجة تحية – أمى – أبثها حيرتى فتربت على ظهرى وتمسح بكفها على شعر رأسى وتقول لى:

- على ايه انت مستعجل؟بكرة تعرف الدنيا وأحوالها

رغم ذلك فقد كنت ألمح نظرات الاعجاب بأسئلتى فى عينيها، وكأن خاطرا يراودها بأن هذا الولد سيكون له شأن عندما يكبر. رصيدها المعرفى الأساسى الذى تغترف منه خبرتها للاجابة عن أسئلتى هو الأمثال الشعبية المصرية. تعليمها لم يتجاوز المرحلة الابتدائية لكنها كانت تحمل الدكتوراه فى ثقافة الحياة. بديهتها الحاضرة دوما مطعمة بروح المرح والسخرية، وإن كان هناك حزن غامض يقبع مستقرا داخل عينيها، لاتستطيع نظراتها الحنون أن تخفيه.تقول اجاباتها عن أسئلتى الملحة:

- **سبحانه مقسم الأرزاق**
- **يرزق الهاجع والناجع والنايم على صرصور ودنه**
- **من حبه ربه واختاره جاب له رزقه على باب داره**

مع ذلك فقد ازدادت حيرتى حتى تصورت أن الحظ وحده هو الذى يلعب الدور الأعظم فى قضية الرزق، وربما فى الحياة كلها، وأن هناك مخلوقات كتبت عليها التعاسة وأخرى كتبت لها السعادة لأسباب مجهولة. قالت لى الحاجة تحية وهى تجتهد أن تكشف لى بإخلاص شديد عن مجاهيل الحياة قدر استطاعتها:

- يابنى أكبر نعمة هى الرضا بالمقسوم

لم أكن أعرف كيف أعبر لها عن شعورى الخفى بأننى أرى فى الرضا خضوعا واستسلاما وضعفا ودونية، فالتزمت الصمت. أدركت حيرتى فقالت:

- **لما وزعت العقول كل واحد عجبه عقله، ولما وزعت الأرزاق كل واحد لم يعجبه رزقه.**

أدركت بفطرتها أن كل محاولاتها كى أفهم مقصدها قد باءت بالفشل.

عندما كبرت عثرت على الاجابة الحقيقية – وان لم تحل اللغز تماما - فى قول الامام الشافعى:

رب قسمتها حظوظا علينا/ فنعما لذا وتعسا لذاك
لاعلم ولا ذكاء ولكن / لك سر يحير الادراكا

****

● جحيم المقارنة:

عندما بدأ ابنى الأكبر أحمد يقترب من الرابعة عشر ، أحضرت له من مكتبتى كتابا فتحته على صفحة محددة وهو جالس أمامى. أشرت الى عبارة بمنتصف الصفحة تقريبا وقلت له:

- اقرأ يا احمد حديث البطل لنفسه

قرأ دون أن ينتبه لما يدور بعقلى:

- اعلم أن الباب الذى تهب منه ريح المقارنة لاينفتح الا على جحيم

نظر الى متعجبا والفضول آخذ به. الكتاب كان رواية من تأليفى عنوانها"آلهة من طين".

- ماذا تقصد يا بابا؟

طلبت منه أن ينتظر قليلا وأحضرت له كراسة الأشعار التى تعودت أن أجمع فيها كل ما يروق لى من شعر على مدى عمرى كله. أطلعته على البيتين الذين قالهما الشافعى، ثم وضعت الكتاب والكراسة جانبا وسألته بحذر شديد:

- **قل لى يا احمد بصراحة. بماذا تشعر عندما ترى صديقك الحميم اسلام راكبا عربة أبيه الفارهة؟**
- **لا أشعر بشىء!**
- **وعندما تعزف على الأورج الذى يمتلكه وأنت تعلم أنه ليس بمقدورى أن أشترى لك أورجا مثله؟**
- **لاشىء!**
- **غير معقول..اياك أن تكذب**
- **أنا أقول الصدق يابابا**
- **ألا تشعر بالغيرة او الحسد لأنك لا تملك مثلما يملك؟**
- **أبدا والله..أرجوك أن تصدقنى**

وصدقته ومرت السنوات دون أن يحدث ما ينفى صدقه فيما قال. المشكلة كانت عندى أنا ، إذ وقعت كثيرا فى فخ المقارنة بين حالى وحال العديد من أقرانى الذين قدر لهم الثراء وسعة الرزق. كنت أرى فى المسألة سرا غامضا كالذى ذكره الامام الشافعى فى شعره ، فأنا لم أكف يوما عن الأخذ بالأسباب بكل ما أوتيت من قوة وحيلة. كان يحيرنى عدم معرفة السقف الذى ينبغى أن أتوقف عنده وأقول الحمد لله اقد أصبحت ثريا ، وبالتالى كنت أرى المسألة نسبية وترتبط ارتباطا مباشرا بدرجة قناعتى ورضاى. تجرأت يوما وعرضت الأمر على نديم مقتحما صمته وغموضه. لم يكن لدى أمل كبير فى الحصول على اجابة شافية منه، لكنى فوجئت به يقول فى حسم:

- **طموحى ليس له سقف !**

أتأمل ثقة نديم فى حلمه وأشرد .. أنا أعلم أن البلد مليئة بأمثالى وأمثال نديم من المفلسين، لكنى لست أعرف أن كانت حيرتى من هذا الأمر تماثل حيرتهم ، أم أنهم قد استسلموا لواقعهم وارتضوا بطمأنينة القلب انتظارا لنعيم الجنة؟..انى أخاف هذا العالم.. تأملت فى رؤية الاسلام للمال باعتباره ملك لله ، ولايحق لأحد من البنى آدميين أن يعتقد فى ملكيته المطلقة مادام سيأتى يوم يتركه فيه لغيره مرغما. شىء غريب والله..عدة وريقات مطبوعة يضيع المرء عمره فى اقتنائها ليودعها بعد ذلك فى مبنى من الطوب يسمونه البنك، ثم يموت تاركا الوريقات فى المبنى المكون من الطوب، ليأتى قوم آخرون فيسحبوا الوريقات ويأخذونها لأنفسهم محصنين بالشرع والقانون. لو كانت السعادة هى الغاية المثلى من اجتلاب المال وامتلاكه، فماذا عن الصحة والعلم والشهرة والمكانة الاجتماعية والحب والزوجة الصالحة والأبناء الأوفياء والايمان وراحة البال والفن والقناعة و...و...؟..

****

-٣-

أخى سعيد:
قد لاتصدق أننى لم أنشىء صداقة واحدة مع أحد. إن الكل فى هذا الصراع الجهنمى القاتل خصوم. والتعلم من الخصوم أشد قوة وتأثيرا من التعلم من الأصدقاء. وطالما كنت عاتيا جبارا فلا وجود لكلمة الصداقة فى مفردات حياتك، وكلما كان الخصم قويا كلما استنفرت أقوى مالديك من قدرات وامكانيات للفتك به .المسألة ببساطة أن أكون أنا أو أن يكون هو. من المستحيل أن يحدث ذلك فى حارة الحدينى أو زاوية الاعرج حيث الاستنامة الى المسلمات الدينية المغلوطة التى وضعت أساسا قويا لتخلفنا عن بقية الخلق.. لم يكن هناك مفر من العزلة حتى أننى اتخذت منها وطنا فى بلاد الانتصار المادى. فى عزلتى لم أكن أخجل من شىء كما لم أكن أخشى من شىء. فى عزلتى تساوى الألم والفرح . تعلمت من أحد خصومى فلسفة القوة ورحت أتعاطى كلماتها النارية بشغف جنونى:"انكم تنظرون الى ما فوقكم عندما تتشوقون الى الاعتلاء، اما أنا فقد علوت حتى أصبحت أتطلع الى ماتحت قدمى. فهل فيكم من يمكنه أن يضحك وهو واقف على الذرى؟".. "من يحوم فوق أعالى الجبال يستهزىء بجميع مآسى الحياة بل بالحياة نفسها".. كان هناك نداء خفى غامض يعاودنى من حين لآخر لا ليحذرنى من مغبة الطريق الذى اخترته وانما ليدفعنى بقوة الى مواصلة السير فيه حتى النهاية.

لن أنسى ماحييت نصف رغيف الطعمية فى الفسحة ما بين الحصص. بالأمس فقط – وهو مجرد يوم عمل - ربحت ما يقرب من خمسين الف دولار أمريكى أى ما يقرب من نصف مليون جنيه مصرى ، أى ما يعادل اجمالى رواتب أسرتنا جميعا لعدة أعوام. لم أفكر لحظة فى الاتصال بكم. أصارحك القول بأننى أشمئز من رائحة أزقتنا الحبيبة ومن قمامتها ومن أنفاس سكانها الذين يقولون فى أمثالهم الشعبية:"يارازق الدودة فى الحجر ارزقنى وانا نايم".. وإنى لآسف كل الأسف على الزمن الطويل الذى قضيته بينكم. الناس اما فقراء واما أغنياء ولا تفسير لذلك. أنا لم أعد أصلح للمعيشة بينكم من جديد فقد أصبحت كائنا آخر. اياك أن تغضب منى. حاول قبل ذلك أن تفهم كيف كنت وكيف أصبحت وكيف تغير نسق تفكيرى تغييرا جذريا. لقد عشت كما عاش زرادشت بين الناس. جلست بينهم متنكرا أكاد أجحد ذاتى لأحتملهم مقنعا نفسى بقولى اننى مجنون لا أدرك حقيقتهم. أنتم تعيشون على ثوابت دينية وقيمية خاطئة تورثكم العذاب فى الدنيا والشعور بالإثم لكل فعل وقول ، ويعلم الله كيف ستكون نهايتكم فى الآخرة. أنا منذ صباى أرفض أسلوبكم فأنا لا اعترف الا بالعقل. به وحده أصبحت نديم صادق الذى تنحنى أمامه

الرؤوس والهامات. لقد تعلمت انه لاشىء فى هـذه الحيـاة يـأتى بـلا مقابل ، و لقد دفعت المقابل لثرائى وجاهى من عزلة ووحدة واكتئاب وغياب حبيبة وانقطاع ذرية.. اننى لم أعان لحظة من الذل هنا ، وانما عانيـت فقـط مـن الجهـد والـسهر والألـم والعـرق والـصراع ودمـوع الوحشة والاغتراب عن الكون بأسره. غير أننى غيـر نـادم علـى ذلـك أبـدا ، فكلمـا سـاورنى الـشعور بالنـدم تـذكرت ايـام الفقـر والعـذاب والحرمان فرضيت بما كان.

****

● خيال جامح :

أحب أزقة مدينتى وحواريها وأعشق ناسها وترابها وأزقتها المبلطة بالبازلت العتيق والمحددة بأرصفة أنيقة من الجرانيت. لم يخطر ببالى أنه سيجىء يوم – بعد عشرات السنين – يحكم فيه المدينة محافظون من قبيلة العسكر الذين يفتقدون الخيال والاحساس بالجمال، فيخلعون البلاط والأرصفة التراثية الرائعة ليستبدلوا بها كتلا خرسانية رمادية صماء لاتصمد بالتقادم أمام النوات والأعاصير ، فضلا عن بشاعة منظرها المؤذى للعين.. ورغم كل شىء فأننى أعشق ذكريات أيام الطفولة التى لايمكن وصفها الا بالذكريات السعيدة ، لأننى كنت ومازلت راضيا عنها ، والرضا هو لب السعادة.

****

تقع مدرسة أبى شوشة الأولية لتحفيظ القرآن فى نهاية شارع زاوية خطاب المتعامد على شارع كورنيش البحر بالأنفوشى. قبل الباب الرئيسى للمدرسة مباشرة يقع دكان جزارة قديم. يقبع صاحبه على مقعد قريب من باب المدرسة. يرتعد جسدى وتنساب مفاصلى حين أقترب من هذا العملاق ذى الذقن الطويلة العريضة غير المهذبة المدلاة على صدره فى غباء وأنا فى طريقى الى باب المدرسة. لست أدرى كيف تبادر الى ذهنى أن العجول والخراف المذبوحة والمعلقة أمام الدكان ، ما هى الا أجسام أطفال مثلى ذبحهم هذا المجرم وسلخهم وعلقهم للبيع. كنت أخشى على نفسى من هذا المصير التعس- الذى صوره لى خيالى الجامح- فأظل واقفا بعيدا عن باب المدرسة حتى يغادر الجزار مقعده لسبب أو لآخر، فأنتهز الفرصة وأجرى مسرعا الى الداخل بأنفاس لاهثة ووجه مكفهر وقلب مذعور. اكتشفت يوما ان هناك بابا خلفيا مفتوحا على فناء المدرسة مباشرة، يمكن الوصول اليه بتجاوز نهاية الشارع والالتفاف يمينا ثم يمينا مرة أخرى، بينما أتلفت من حولى فى حذر خشية أن يرانى ذلك المجرم قاتل الأطفال. حمدت الله كثيرا على نجاتى النهائية من الرعب اليومى بعد اكتشاف ذلك الباب، حتى فوجئت به يوما فى وجهى مباشرة. لم أستطع أن أتمالك نفسى وقد غرق النصف الأسفل من ملابسى فى البول. ولما ابتعد عنى رحت أركض بأقصى ما استطعت من سرعة حتى وصلت الى البيت. ضحكت أمى من خيالى الجامح وأفهمتنى الحقيقة فرحمتنى من همّ وعذاب عظيمين جلبهما على هذا الخيال.

نفس الخيال الواسع جعلنى أدعى يوما على الأستاذ الجمال مدرس اللغة العربية أنه ضربنى بالخيرزانة أربعة وأربعين مرة متواصلة عندما أخطأت فى تسميع الواجب.اصطحبتنى أمى ومعها كامل الى المدرسة لبحث المسألة. فى الطريق يسألنى كامل أكثر من مرة:

- كم عصا ضربك الأستاذ الجمال؟

فأجيب بإصرار:

- أربعة وأربعون

أما العدد الحقيقى فكان أربعة فقطّ !..

استقبلنا الناظر ثلاثتنا بمكتبه وكان الاستاذ الجمال عنده بالمصادفة. انفجر الاثنان فى الضحك حين أطلقت أكذوبتى الصارخة من مركز القوة الذى شعرت به لتواجد أمى وأخى معى. فتح الناظر الأزهرى المعمم يده وأعطانى الخيرزانة طالبا منى أن أريه كيف ضربنى الأستاذ الجمال وبأى درجة من الشدة كانت الضربات. تمنيت أن تكون اليد المفتوحة هى يد الجمال وليس الناظر حتى أنتقم لنفسى. تحققت أمنيتى حين قال الجمال:

- عنك يا حضرة الناظر. سيضرب على يدى أنا

انهلت عليه ضربا بكل ما أوتيت من غل وسط ضحكات الجميع، حتى أنهى الناظر اللقاء بأن وعدنى ألا تلمسنى خيرزانة الاستاذ الجمال مرة أخرى.

...أبذل عمرى كله لقاء عودة يوم من تلك الأيام، أيام القلب الأخضر والنوايا البيضاء.

● جحيم الكراهية:

كثيرا ما كانت سعدية تتشاكل مع شكرى وتغضب تاركة له البيت حيث تأتى لتقيم معنا. بعد عدة أيام يأتى شكرى لاسترداد زوجته متحملا تعنيف أمى وتوبيخها له. غالبا ما كان كامل يتخذ موقف الحياد اعتمادا من جهة على قدرة الحاجة تحية على انهاء الأزمة بدربتها الادارية المعهودة، ومن جهة أخرى لحرصه على سرعة انهاء المشكلة وعودة سعدية الى بيتها. غير أنه فى احدى غضبات شكرية اشتعل الخلاف بين شكرى وكامل ، حين هجم شكرى عليه فطرحه أرضا وراح يكيل له اللكمات بعنف غريب. انقضت نادية على شكرى فعضته بشراسة من كتفه بينما تولت الحاجة تحية تأديبه بنعل حذائها المدبب حتى سال الدم من رأسه وقام هائجا فأمسك بالقلة الفخارية الموضوعة على الشباك وقذف بها فى اتجاه نادية التى انحنت فأفلتت منها بمهارة.تمكن منه كامل فى النهاية وانهال الجميع عليه ضربا قبل أن يتمكن من الافلات والهرب. كان رد فعله المتوقع هو طرد سعدية، وهذا ماحدث بالفعل حيث أقامت معنا طوال فترة الخصومة. كانت المرة الأولى فى حياتى التى ترى فيها عيناى مشهدا من مشاهد العنف والضرب والدماء السائلة من الأنف والفم. رحت أبكى وأصرخ ولم أشعر بنفسى الا فى الشارع حين اتجهت الى مكتبة صغيرة يمتلكها صديق لكامل طالبا نجدته .

فى الليل لم أستطع النوم بسهولة، اذ لم تفارقنى مشاهد القسوة والبغض والكراهية المتبادلة بين البشر. كان لغزا شديد الغموض على فهمى أن أرى الوجوه عابسة متقلصة والشرر منبعث من العيون فى نظرات عدوانية مترعة بالحقد والكراهية. من المؤكد أن أسباب النزاع كانت تافهة والا لتذكرتها الآن. كل ما أتذكره هو منظر الانسان حين يتحول الى وحش كاسر كالحيوانات المفترسة التى أشاهدها فى السينيما.

فى طفولتى فهمت معنى الكراهية لأول مرة وأدركت أنها صفة بغيضة تشوه من جمال الصورة التى خلق الله عليها خليفته فى الأرض. وقر فى نفسى واستقر فى ضميرى منذ ذلك اليوم ألا أكره أحدا فى حياتى وألا أتسبب فى أن يكرهنى أحد بأى حال من الأحوال. كنت على يقين فى تلك المرحلة المبكرة من عمرى أنه من المستحيل أن يكون لى عدو فى الحياة طالما لم أفعل شيئا يبرر عداءه لى.

رغم حبى للناس ورغبتى فى الانفتاح عليهم من داخلى وخارجى الا أن هاجسا من الحرص والحذر كان كثيرا ما يدفعنى الى تحاشيهم واتقاء شرورهم قدر استطاعتى. أصبحت كمن يمشى على الرصيف بجوار الحائط خشية مخاطر الطريق أو سقوط المطر.

أنا "صمير" أحيانا و"سعيد" أحيانا أخرى. سمير بفطرتى الأصيلة وسعيد بحكم الانسان المعدل بفعل الظروف والأحداث والتحايل على الحياة. بل ان هناك أنا ثالثة خفية تتحكم فى الاختيار بينهما حسب مقتضى الحال، وكأنى أعيش حالة مستقرة من الشيزوفرينيا الارادية.هذا التلون يجعل الحياة أقل جمالا لأن الأصل فى الجمال هو الفطرة التى خلقنا عليها الرب والتى لاتحتمل التعدد والتبدل والتلون.

من الطبيعى ألا تستقيم مشاعر العداء والكراهية مع سلوك انسان محب مسالم عاشق للحياة، قرر ألا يعرف العداء ولايبادر به أحدا فى حياته. تصورت أنه بمقدورى بناء على ذلك أن أنعم بالطمأنينة الى الحياة، لكن الأيام كشفت لى عن أعداء كارهين لم أمس أحدهم بسوء أو أضمر له شرا. رحت أبحث فى لهفة عن مبررات عداء غامض من جانب واحد، لست أتحمل أدنى مسئولية عن ظهوره. أسوأ ما فى حياتنا الدنيا الجميلة هم هؤلاء الناس الذين لايعرفون الحب ولا يعيشون الا على الكراهية. تبين لى أن للغيرة والحسد النصيب الأكبر من تلك المبررات. والأدهى أن تلك

المشاعر البغيضة لم تقتصر على الأغراب وانما امتدت فى بشاعتها لتشمل الأهل والأقارب. لذلك لا أندهش حين أقرأ الآيات القرآنية الكريمة التى تقول:" يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم"..

شغلنى أمر الكراهية كثيرا ولم أفرغ من التأمل فيه والتدبر والتفكير الا بعد أن أفرغت كل ما بجعبتى بشأنه فى رواية عنوانها"حالة مستعصية" صدرت عام٢٠٠٢ عن دار الهلال. كانت حالة من الجدل العنيف بين النفس اللوامة ومهالك الشعور بالإثم ، حين يظلم الانسان نفسه بأن يحملها بأوزار وهمية تقوم على مفاهيم وأعراف عتيقة ، بحاجة ماسة الى المراجعة.

****

●نذالة الشيخ ياقوت:

مضى على هذه الواقعة أكثر من ستين عاما ، وهذه هى المرة الأولى التى أذكرها فيها سواء مع نفسى أوعلى الملأ. كنت فى حوالى الثامنة حيث تسرى تعليمات أمى ونصائحها فى عقلى وضميرى ووجدانى وكأنها قدس الأقداس. لاتكذب. لاتقل الا الصدق ولو كان على نفسك. أوامر نافذة من العقل حتى الدم والعظام ، لاتقبل الجدل أو التردد وكأنها ناموس الحياة. ذهبت الى ساحة شهيرة بالحى عرفت بإسم سوق العيد ومعى مليمين. يتصدر زعامة الألعاب والحيل والمشروبات والمأكولات فى هذا السوق ثلاثة من أساطين منطقة رأس التين وعمده ، هم الشيخ ياقوت وعم جوجع والمعلم كبارة. لكل منهما لقبه الذى اكتسبه من سكان حى بحرى بمرور السنوات. المعلم كبارة يمتلك الى جانب موقعه بالسوق عربة كارو يتجول بها لبيع السمك فى أوقات معينة. عم جوجع يبيع الخضروات والفواكه الرخيصة على عربة ثابتة فى موقع محدد وسط أزقة المنطقة لايغيره. أما الشيخ ياقوت- ولست أدرى لماذا التصق به هذا اللقب – فقد نصب مائدة قمار بدائية تتكون من قرص خشبى دائرى فى منتصفه محور رأسى يدور من حوله قضيب معدنى يحمل أحد طرفيه مؤشرا مدببا. يضع الشيخ ياقوت قطعا من الحلوى ولعب الأطفال على أطراف القرص ويدفع القضيب الحديدى بيده ليدور عدة دورات حتى يقف المؤشر على احدى اللعب أو قطع الحلوى لتكون من نصيب الفائز الذى وضع عليها مليمه قبل أن يدير الشيخ ياقوت ذلك الذراع الحديدى الصدئ. كثيرا ماكان المؤشر يستقر عند الفراغات الكائنة بين اللعب وقطع الحلوى بحيث يخسر المراهن مليمه دون أن يحصل على شىء فى المقابل.

وقفت أتفرج قابضا بيمناى على أحد المليمين وفى نيتى أن أخوض التجربة باعتبارها عملا مشروعا لم تحرمه أمى على من قبل، إذ لم أكن أعرف حتى ذلك الحين معنى كلمة القمار. عندما يقف المؤشر على أحد ملاليم الصبية الموضوعة على الموقع المختار ، نهلل جميعا ونصفق للفائز باللعبة او قطعة الحلوى فيناولها له الشيخ ياقوت وهو يصيح فى ضجيج اعلامى كبير معلنا فوز الصبى وذلك لإغراء المزيد من الصبية للتجمع حول مائدة قماره المتهالكة. معظم الهدايا الموضوعة على أطراف المائدة هى قطع من البسكويت الممتلئة بالعسل الأسود والتى لايتجاوز ثمنها مليما واحدا بأى حال. لكنه كان يضع بين كل عدة قطع من هذه الحلوى لعبة ثمينة يتجاوز ثمنها عدة قروش. اخترت احدى هذه اللعب ووضعت عليها مليمى.أدار الشيخ ياقوت القضيب بقوة فراح يدور ويدور وعينى منصبة على مؤشره الذى توقف بالفعل على اللعبة التى وضعت عليها المليم وكان ملاصقا لها تماما. قفزت من شدة فرحتى وكان صياح الأولاد عاليا مبتهجين بفوزى. مددت يدى لأستلم اللعبة التى ربحتها من الشيخ ياقوت وقد أصبحت من حقى. فوجئت به يزيح بيدى بعيدا عن اللعبة مدعيا أن المؤشر لم يقف عليها مباشرة وانما بعيدا عنها بمسافة وإن تكن صغيرة فهى لاتعطينى الحق فى امتلاك اللعبة!!

إذن فهذا العجوز يكذب. لابد أن أمه لم تعلمه أن الكذابين سيدخلون النار. بعد ذلك عرفت أن الدنيا مليئة بالكذابين والمخادعين والغشاشين الذين لم يمتثلوا لنصائح أمهاتهم أو ربما لم يتلقوا منهن تلك النصائح من الأساس.. كانت صدمتى شديدة وأنا أواجه الكذب والغش والخداع لأول مرة فى عمرى الأخضر. لم أستطع أن أفعل شيئا أقاوم به ذلك الغدر. خيرنى الشيخ ياقوت بين استعادة مليمى أو أخذ بسكوتة بالعسل فى مقابله. بينما كنت أقف مذهولا إذ جاء رجل يصيح فى الشيخ ياقوت بأن المعلم كبارة قد قتل وأن جثته ملقاة الآن أمام عربته. صرخ الشيخ ياقوت فى هستيرية غريبة ، ولشدة لوعته على مصابه فى صديقه ورفيقه وجاره فقد ترك مائدته على حالها وأسرع يجرى تجاه عربة المعلم كبارة – ومازال مليمى فى يده – ومن خلفه الصبية الذين كانوا ملتفين حول المائدة.

فوجئت بنفسى أقف وحيدا أمام المائدة مترددا وعينى على اللعبة التى من المفترض أننى فزت بها والتى مازال من حقى أن آخذها. لم أستطع التوصل الى قرار لأننى لم أدرك تماما هل أكون سارقا لو أخذتها فى غياب الشيخ ياقوت ، وبذلك أكون قد خالفت تعليمات أمى المقدسة، أم أنه يحق لى أن آخذ اللعبة وأنصرف باعتبارها حق مكتسب لى يريد الشيخ ياقوت اغتصابه منى.

بعد قليل عاد الشيخ ياقوت مسرعا. راح يجمع أجزاء مائدته وبقية أدواته على عجل دون أن يلتفت الى .عندما وجدت أنه ينصرف دون الاهتمام بشأنى جريت وراءه صائحا:

- هات المليم!

****

●اقتحـــــــــــــام:

كان من الأسباب الجوهرية التى شجعت أخى كامل وأمى الحاجة تحية على الحاقى بكلية الهندسة هو حصولى على مجموع كبير فى الثانوية العامة يسمح لى بدخول الجامعة مجانا وكان ترتيبى المائة والواحد والثلاثين على اسكندرية ومنطقة غرب الدلتا. بذلك لم أدفع سوى ثلاثة جنيهات وخمسة وسبعين قرشا كرسوم التحاق أساسية. الطلبة غير المتفوقين كانوا يدفعون رسوما قدرها سبعة وعشرون جنيها ونصف. فى العام الاعدادى الأول من الكلية فوجئت بأن هناك مادة رياضية اسمها الهندسة الوصفية. تقوم تلك المادة على الخيال والتصور تماما، حيث نتخيل مثلا أن هناك نقطة فى الفراغ ثم نسقط منها أعمدة على عدة مستويات أفقية فى زوايا مختلفة، الأمر الذى لم يستوعبه عقلى نهائيا. أما الرسم الهندسى فقد تسبب لى فى عقدة نفسية أغرقتنى فى بحر من العذاب والألم، فقدرتى على تجسيد الأبعاد المسطحة الى أبعاد مجسمة كانت منعدمة تماما، على عكس معظم الطلبة الذين كان تخصصهم فى الثانوية مادة الرياضة. كانوا يدرسون الهندسة الفراغية التى تؤهلهم لفهم فوازير الهندسة الوصفية الرهيبة. استنجدت بزميلى السيد يوسف الذى كان بارعا فى الهندسة الوصفية والرسم الهندسى. ذهبت اليه فى بيته فعاملنى بعنف وقسوة حين طلبت منه أن يشرح لى بعض المسائل. شعرت أنه يكاد يطردنى وهو يزعق ويشخط أثناء شرحه لى، مما زاد من ارتباكى وتوترى. يومها عرفت معنى أن يقف الانسان عاجزا فى الحياة أمام معضلة لاسبيل له الى فك طلاسمها، كما عرفت معنى الشعور بالذل حين يحتاج انسان الى العون من انسان آخر فيخذله ويسىء معاملته، وقد علمتنى الحياة بعد ذلك أن مساعدة العبد للعبد كمساعدة السجين للسجين، فالاثنان سجينا عمر موقوت وأوهام مسيطرة وحقائق صادمة يتصدرها الموت.

بات واضحا أننى لن أستطيع مواصلة الدراسة بهذه الكلية التى تضخمت عقدتى النفسية منها حتى اننى كنت أحلم طوال الليل بأن الأعمدة الفرعونية الضخمة التى يقوم عليها بنيان الكلية المعمارى تنهار وتسقط فوق رأسى. لم أكن أعرف حتى ذلك الحين مدى قدرتى على استنفار عزيمتى واستنهاض همتى وبذل المستحيل حتى أنجو من هزيمة الرسوب فى الكلية التى اقتحمت أسوارها لمجرد أننى طالب متفوق، لا لأننى أعشق الهندسة وأرغب فى أن أكون مهندسا فميولى الحقيقية أدبية وفنية ، وأنا أحب القصص والروايات والأشعار والموسيقا وأغانى العشق والمسرح والسينيما والقمر والنجوم ورياض الزهور.. أما الأعمدة التى تسقط فى الفراغ على مستويات وهمية متخيلة فى الفراغ فعليها اللعنة ولتذهب الى الجحيم.

الاستاذ الدكتور يوسف نقولا مصمم كازينو الشاطبى العتيق بشاطىء الأزاريطة كان يشغل رتبة عالية بالكلية تلى رتبة العميد مباشرة. عملاق أجش الصوت يخشاه الطلبة ويتحاشون الاقتراب منه. أرتعد فزعا كلما اقترب منى وأنا منحن على لوحة الرسم، فلسوء حظى الشديد كان هو الذى يدرس لنا الرسم الهندسى. عندما لايعجبه رسم أى طالب أو يكتشف به خطأ ما فإنه يقسم اللوحة الى نصفين بقلمه الأحمرأو يرسم عليها علامة X بحجم الصفحة وأحيانا يرسم عليها أى أشكال سيريالية بسرعة البرق مرددا فى سخرية مفجعة:

- دى وزة ودى بطة ودى عصفورة وده حمار

فيقوم الطالب منكسرا ويغادر الصالة فى خضوع وذلة. حدث أن اقترب منى مرة وكنت فى غاية الارتباك والتوتر لصعوبة الرسم المطلوب وتعقيده. حين وصل بى الفزع ذروته فوجئت به يتجاهلنى ويتجاوز مقعدى الى آخر. تنفست الصعداء. فى تلك اللحظة اتخذت قرارا خطيرا يريحنى من عذاب القهر راحة نهائية مهما كلفنى ذلك من ثمن.

صباح اليوم التالى مباشرة كنت أقف بعيدا عن غرفة مكتبه أرقب لحظة وصوله. انتظرت قليلا حتى جلس على مقعده واندفعت كصاروخ الى الباب. طرقته فى تأدب والشعور بالتحدى يسيطر على كيانى.فوجئت بصوت حنون يقول لى:

- اتفضل يابنى..أدخل

دخلت ضاغطا على خوفى. قلت بجرأة فدائى مقاتل:

- يا دكتور أنا لا أفهم شيئا من مادتك!!

انتظرت أن يسبنى أو يطردنى لما عهدته فى سلوكه من فظاظة وعنف. لكنه قال لى بهدوء:

- أقعد يابنى ولا يهمك..ستفهم كل شىء ان شاء الله

جلست على أحد المقعدين المواجهين لمكتبه ، وكأن هم الدنيا قد انزاح بأكمله عن صدرى وأنا غير مصدق لما يحدث والفرحة تغمر كيانى. فى أبوة آسرة ربت على ظهرى ثم قام الى أحد رفوف مكتبته واستخرج كتابا ذا غلاف سميك فاخر ، وجلس على المقعد المواجه لمقعدى. فتح الكتاب على الصفحة الأولى وقال:

- لاتخف من مادتى. سأشرح لك الصفحات الأولى من الكتاب وستخرج من عندى مؤهلا للتفوق فى الرسم الهندسى، وهذا الكتاب هدية لك

المكسب الخرافى الذى حصلت عليه من هذا اللقاء هو القضاء تماما على خوفى من أى شىء فى الحياة ، ثم على عقدتى من هذه المادة وأستاذها . قررت أن أتخلى عن فكرة التحويل من كلية الهندسة الى كلية الآداب. تحديت نفسى واستطعت اجتياز العام الاعدادى الأول بنجاح بعد أن بذلت جهدا طيلة العام يفوق طاقتى بكثير. وتجنبا لأى احتكاك جديد محتمل مع المواد الهندسية اخترت قسم الهندسة الكيمائية. كان حبى للكيمياء مرتبطا بواقعة لاتنسى. لم تكن امكانيات الأسرة تسمح بشراء الكتب الخاصة التى يسمونها بالكتب الخارجية، فكنت أكتفى - فى المرحلة الثانوية - بالمذاكرة من الكتب المدرسية. لكن تصادف أن استعرت كتابا خارجيا فى الكيمياء من صديق لا أتذكره ، على أن أعيده اليه بعد ثلاثة أيام. لم أكتف بفهم الشروح الواردة بالكتاب عن الذرة والتفاعلات الكيمائية، وانما حفظتها عن ظهر قلب ، ليقينى بأن الكتاب لابد أن يعاد الى صاحبه فى الموعد المحدد. وتكون المفاجأة الكبرى أن تأتى جميع أسئلة الامتحان مطابقة للأسئلة التى راجعتها بمنتهى الدقة فى الكتاب المستعار. وإذ بى أحصل على درجة تقترب كثيرا من الدرجة النهائية فى مادة الكيمياء ، وإذ بى أصبح بعد سنوات خمس مهندسا كيمائيا.

من الملفت للنظر أن عشقى لعلم لكيمياء قد اقترن بعشقى لفن الرواية، حين لاحظت أن هناك مايشبه التماثل بينهما فى حالات عديدة كالتحليل والتركيب والتكثيف والتفاعل، كما ينطبق الحال على الفلسفة فى مسألة التفاعل بين الفكرة ونقيضها لتكوين فكرة ثالثة أو مركب كيمائى جديد.الحياة نفسها كيمياء والحب كيمياء والفن كيمياء ، كما أن هناك كيمياء للأرواح والنفوس والأبدان ، وسبحان مالك الملك والملكوت.

****

• بنـــــايوتى يغرق:

بنـايوتى قسطنطين أرسـلانيدس. صـديقى الحمـيم المـلازم لـى كظلـى خـلال الأعـوام الخمـسة التـى أمضيتها بكلية الهندسة. أبوه هو صاحب سينما أوديون بكامب سيزار. نذاكر سويا أحيانا فى بيتـه الملاصق للسينيما ، وأحيانا فى بيتنا الذى انتقلنا اليه بسيدى جابر عقب التحاقى بكلية الهندسة.

فى بيته لم أكن أعرف دائما أسماء الأطعمة التى تقدم لنا ،وإن كان اسم الكالامـارى مـازال عالقـا بذاكرتى. تقدم أمه الطعام الينـا وهى فى غايـة من السعادة بصداقتنا.تكلمنـى بالعربيـة المضعضعة بطريقة تضحكنى. أحيانا تقدم لنا الطعام الخادمة الريفية نفيسة بطيئة الفهم والحركة والايقاع. أما حين كان بنايوتى يحضر الى بيتنا فكانت الحاجة تحية تعد له الطعام الذى لاتجيد أمـه صـناعته مثل المحاشى بأنواعها. من الطبيعى أن يشترى بنايوتى المراجع الضخمة الباهظة الـثمن التـى لا أجرؤ على التفكير فى شرائها. من الطبيعى أن أذاكر منها مثلـه تمامـا سواء أكانـت بحوزتـه او بحـوزتى. بنايوتى يجد متعة فائقة – وأنـا مثلـه – فـى معاكسة نفيسة والسخرية من غبائهـا الـشديد. يناديهـا بفتح النون ويطلب منهـا اداء عمل معين كـإغلاق البـاب من خلفهـا مثلا، ثم يراهننـى أنهـا ستفعل العكس تماما ، وبالفعل تتركه مفتوحا وكأنها لم تسمع شيئا ويكسب بنايوتى الرهان.يجيد السخرية من أى شىء حتى من نفسه. قبل أن ندخل الامتحان كان يبتهل معى الى الله ويتوسل اليـه أن تكـون الأسئلة سهلة وأن يساعدنا ويلهمنا التوفيق. ما أن نخرج من الامتحان والبشر يعلو وجهينا لحسن أدائنا فأقول له:

- شفت يا بنايوتى..ربنا استجاب لدعائنا

فيشيح بيده ساخرا من قولى بابتسامة خبيثة:

- ربنا لاشأن له بما حصل، ولولا أننا ذاكرنا واجتهدنا لما استطعنا الاجابة على الأسئلة

وتنتابنى الدهشة فأصيح فى وجهه غاضبا:

- يارجل حرام عليك. هل نسيت بهذه السرعة؟..لقد كنت على وشك البكاء وأنت تطلب معونته
- لاتخلط بين الله وقوانين الديناميكا الحرارية، فلا علاقة بينهما

لم أكن ادرى وأنا أستمع الى مقولته دون تمعن فى مغزاها، اننى بعد مايقرب من ستة وثلاثين عاما سوف أنشر مقـالا فى جريـدة أدبيـة عنوانـه المطلق والنسبى. أقول فيـه انـه لايجـوز قيـاس مـا هو مطلق بما هو نسبى، أو قياس ماهو نسبى بما هو مطلق. النسبى متغير قابل للزوال والمطلق ثابت مقدس لايتغير ولا يزول، فعالم الملك شىء وعالم الملكوت شىء آخر مختلف.هذا عالم شهادة وذاك عالم غيب.

بنايوتى يقرأ الكتب الفلسفية بنـهم. يبدو أنـها أفسدت عليـه ايمانـه فصار متشككا فى كل شىء. قراءاتى متنوعة تشمل القصة والرواية والشعر وعلم النفس والاقتصاد والسياسة. تحققت نبوءة الحاجة تحية إذ أصبحت كاتبا معروفا حاصدا لجوائز الدولة وأوسمتها.

لم أقع فى فخ التشكك وإن حمت من حوله أحيانا.أغلب ظنى أن نجاتى منه راجعة لسبب جوهرى هو عشقى لترتيل الشيخ رزق للقرآن الكريم بصوته الجميل ومقاماته الموسيقية الشجية المتداخلة التى كانت تتسرب الى أنسجة جسمى وتستقر فى روحى وتنسينى خيرزانتـه الموجعة. تمكن ذلك العشق منى منذ صباى فى مدرسة أبى شوشة الأولية لتحفيظ القرآن، والكائنة فى شارع زاوية خطاب برأس التين حيث مسقط رأسى.

رويت لعلى ابن الحاج احمد الحلم الذى يطاردنى منذ طفولتى بطفرة سعيدة فى حياتى المقبلة. سألته فى فضول:

- هل تظن ياعلى أن حلم صعودى فى الحياة يمكن أن يتحقق؟

نظر الى متعجبا ثم شخر قبل أن يقول ساخرا:

- لابد أن نصفك التحتى لم يكن مغطى وأنت نائم

لكن بنايوتى كان له رأى آخر حين قال:
- الانسان الذى لايحلم لايستحق الحياة
بعد تخرجنا بعدة أيام غرق بنايوتى فى بحر العجمى على بعد خطوات قليلة من الشاطىء. أصابته أزمة قلبية فسقط ولم يشعر به أحد. وقف أبوه شبه عار فى صالة البيت. شعره الكثيف نافر على صدره وهو يعاتب الله ويلومه صارخا فى حرقة على اختطاف أعز أبنائه والمتعلم الوحيد بينهم. يثور جامحا ثم يهدا فجأة ليخاطب ربه:
- لابد اننى فعلت شيئا أغضبك حتى تأخذه منى بهذه القسوة
ثم يعود الى سخطه وغضبه:
- لماذا لم تأخذنى بدلا منه؟
أما أم بنايوتى فما أن رأتنى حتى انفجرت فى البكاء صارخة فى لوعة:
- بنايوتى راخ.. راخ ياسعيد
كنت أبكى كطفل ضاع من أمه فى ميدان واسع مزدحم. ظللت على هذه الحال طيلة النهار تقريبا. فى الليل لم أستطع النوم. كانت حدقتا عينى مفتوحتين على اتساعهما وقد عجز جفناى تماما عن الارتخاء والاغماض.
فى طفولتى لم أستوعب تجربة موت أبى. لم أشعر بصدمة. بل اننى لم أفهم معنى ماحدث على الاطلاق، فضلا عن اننى لا أذكر أدنى تفصيلات عن تلك الواقعة.. أما موت بنايوتى فكان صدمتى الأولى فى مواجهة الموت. رأيت الدموع والعذاب واللوعة فى عيون والديه. بنايوتى"راخ" ياسعيد. كانت تقصد"راح"بالطبع. ما معنى أن يروح انسان ملء السمع والبصر فيختفى من الوجود الى الأبد ثم ينسى وكأنه لم يكن؟.. موت بنايوتى استدعى الى ذاكرتى موت أبى . سارعت الى قراءة كتاب عن الموت لعله يعيننى على فهم تلك الظاهرة المثيرة. كان عنوان الكتاب:"قلق الموت" لمؤلف أوروبى. تسببت قراءنى لهذا الكتاب فى وقوعى أسيرا لحالة اكتئاب حادة استمرت عدة أسابيع قبل أن أنجو منها لم أعد أذكر كيف. لكنى خرجت بمضمون مختصر للكتاب يقول بأن الموت ليس بشىء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها وهى الأعضاء التى يسمى مجموعها بدنا، كما يترك الصانع استعمال آلاته، وأن النفس جوهر جسمانى وليست عرضا، كما توصلت الى أن الانسان السعيد هو الانسان المتحد غريزيا مع الكون والحياة بحيث لا يخاف الموت لشعوره بانه لن يكون منفصلا عمن سيأتون من بعده. وقد أعجبتنى مقولة ابيقور أن الموت لايعنينا لأنه طالما نحن هنا فهو ليس هنا، وعندما يكون الموت هنا فلن يكون لنا وجود على الأرض. كما تعلمت أن الوسيلة الوحيدة للتغلب على الموت هو نبذ التشبث الشديد بالحياة والتعلق بها كملكية خاصة لأنها ليست فى واقع الأمر كذلك وانما هى عهدة ممنوحة من الخالق من حقه استردادها وقتما يريد.
كانت مارى شقيقة بنايوتى الصغرى تتصل بى فى الأعياد والمناسبات حفاظا منها على ذكرى صداقتى بأخيها وعائلتها. كثيرا ما كنا نترك المذاكرة ونتجه أنا وبنايوتى الى مبنى السينيما لنشاهد فيلما ثم نعود الى المذاكرة. بعد وفاة بنايوتى كنت أذهب أحيانا الى السينيما فيستقبلنى شقيقه ميناس الذى ترك الجدرى آثاره على وجهه. يستقبلنى بترحاب غير عادى ويصر على تقديم مشروب لى بالكافتريا قبل دخولى الى صالة العرض. الحياة تستمر اذن مهما يحدث ومهما يختفى منها الأحباء.

****

● **الفراشة تحترق:**

كانت تجربتى هذه المرة مع الموت أشد قسوة من تجربتى الأولى مع بنايوتى. شقيقتى نادية هى فراشة الأسرة الرقيقة الدقيقة الملونة الهادئة الحالمة. نبع من الحب وفيض من الحنان ونهر من العطاء للدنيا بأسرها. الابتسامة الملائكية العذبة الصافية لاتفارق وجهها فى أى ظرف. تبحث عن كل السبل والوسائل لخدمة الجميع وإرضائهم ولو على حسابها. ترى الناس والدنيا دوما فى أجمل صورة ولاتعرف سوء الظن تجاه أى انسان. كانت لى بمثابة أم صغيرة حنون رغم أن فارق السن بيننا لم يكن كبيرا.أيام الدراسة كانت تدس من جنيهاتها فى جيبى وتعد لى الساندوتشات وتراجع معى الدروس، وتدربنى على حب القراءة وتذوق الشعر والموسيقا. اختطفها منا الموت ونسيناها جميعا لست أدرى كيف، وكأنها لم توجد من قبل، حتى أن اسمها لم يكن يتردد فى مجالس عائلتنا الصغيرة الا اذا ذكرتها الحاجة تحية وقرأت الفاتحة على روحها.

فى يوم ثارت علينا الحاجة واتهمتنا بقسوة القلب وانعدام الرحمة لعدم ذكرنا لشقيقتنا وانصراف كل منا الى شئونه الحياتية. لحظتها أصابنى شعور عظيم بالذنب اذ تذكرت مرورى ذات مساء على المستشفى التى ترقد بها. كان بصحبتى ابنى الأصغر محمود فى طريق عودتنا من بحرى الى منزل الزوجية بمصطفى كامل عقب زيارة سريعة لأختى سعدية. أشرت له الى المستشفى قائلا فى ثقة غريبة:

- **غدا ان شاء الله سنشترى وردا وأصحبك معى لزيارة عمتك**

قال فى إصرار أغرب:

- **ولم لا نزورها الآن؟**
- **الوقت متأخر ياحبيبى والزيارات فيه ممنوعة**

ماتت فى الفجر فلم أرها أو أودعها. فى الجنازة انفجرت فى البكاء بصوت مسموع دون أن أدرى بمن حولى. اصطحبنى صديقى محمد الى بيته وأعطانى قرصا مهدئا ونمت بملابسى كاملة على فراشه ما يقرب من ساعة أفقت من بعدها على الحياة فى غياب نادية، والتى كانت بحق لا طعم لها.

****

أتساءل دوما : هل تستحق منا الحياة أن نتحمل لأجلها كل هذا القدر من العذاب والمعاناة؟.. تطاردنى هواتفى الغامضة. يقول لى أحدهم ان ما مضى من هذه الحياة الدنيا حلم ومابقى منها أمانى ، ويقول آخر انك لاتكاد تمد يدك لشىء فيها الا وجدت آخرين قد سبقوك اليه. ويقول ثالث انها المعذبة لمن أطاعها المهلكة لمن اتبعها الغادرة لمن انقاد لها. ولكن يستهوينى هاتف التوحيدى الذى يقول:" ما أشبه الدنيا وخداعها الا بقحبة حسناء تظل تناديك وتناجيك حتى اذا أقبلت منها صاحت فى الناس وصرخت للوالى وأورثتك الندامة وعض الأنامل من الغيظ."

****

-٤-

سأطلعك على سر أبوح به لأول مرة. لقد أحببت مرة واحدة فى مطلع شبابى ولم أحب مرة ثانية حتى الآن ، وبالطبع لم يعد لدى متسع من الوقت أو العمر لأحب من جديد. تلك رفاهية لم يكن من حقى أن أفكر بها وأنا فى حربى مع الفقر الحقير الذى يمتدحه مشايخكم فى المساجد. هل تعلم من كانت حبيبة القلب التى لم أهنأ بحبها لحظة واحدة؟..لقد كانت فريدة التى أحبها كامل. كانت تكبرنى بأعوام عديدة ، وكنت أعرف أن كامل يريد أن يتزوجها ومع ذلك كانت تشغل فكرى وتسكن قلبى. إنى أرى اليوم فى تلك العاطفة تجاهها مرض مرجعه سوء التنشئة العاطفية والنفسية منذ الطفولة والحرمان من المشاعر السوية. الدنيا مليئة بالفتيات وزميلات الجامعة وبنات الجيران ورغم ذلك لا أختار الا التى اختارها أخى الأكبر والتى لاتناسبنى فى العمر أو فى أى شىء آخر.. ما هذا فى حقيقة الأمر الا مرض أورثه الفقر الذى لاتأتى من ورائه منفعة. ومن عبث الأقدار أنها حلت المشكلة لكلينا بزواجها من ثالث. باعتنا معا على دفعة واحدة لضمان مستقبلها المادى ، وخيرا فعلت فهذا هو عين العقل الذى حرمت منه أسرتنا الفقيرة. لقد حذفت كلمة الروح من قاموس حياتى ولم أستبق الا العقل. كل علاقاتى النسائية كانت حيوانية مقززة وان اتخذت مظهرا راقيا أنيقا وتلفعت بابتسامات جليدية زائفة وسهرات فى أرقى الفنادق والمسارح والملاهى الليلية.

لعلك تذكر أننى خلال الفترة الوجيزة التى أعقبت تخرجى والتى تنقلت فيها بين عدة اعمال محدودة قد تمكنت من تجاوز كل من سبقونى بعشرات السنين. علمونى القسوة والجبروت رغم أنهم كانوا صعاليك وأدنياء بمواقفهم ونواياهم. كان اجتنابهم هو قرارى الصحيح لتباعد بينى وبينهم بحار ومحيطات ، وأتحصن بقوتى وكبرى وأتخلص من طنينهم المقزز حول أذنى.

وكيف كان لى أن أحب وقد ضقت ذرعا بنفسى فلم أتهالك فى السباق نحو الذروة الا تهربا من الحياة التى تمنيتها فى بداية الأمر ، وطلبا للاستغراق فيما أنا فيه حتى نسيت ذاتى واستسلمت لحاضرى دون ماض أو مستقبل. بكلمة واحدة منى صرت قادرا على التحكم فى مقدرات ولاية بأكملها كما لو كنت أعيش فى دولة متخلفة. وليس غريبا أن يتبين لى بعد تجاربى العسيرة هنا ، أن العالم كله شرقا وغربا - وليس وطننا فقط - يعانى من التخلف إذ أصبح يتفنن فى قتال بعضه البعض تحت مبررات كاذبة على رأسها الدين ، سعيا وراء السلطة والثروة ولا شىء غيرهما.

****

يعتقد أنه أحب فريدة. نديم لم يعرف الحب وأغلب ظنى أنه أيضا لم يعرف الايمان، ولاحب بغير ايمان ولا ايمان بغير حب. جلب نديم لنفسه هموم الدنيا التى أمرضت روحه ، حيث لادواء لها الا الحب والأ غانى، وهما الشيئان الغائبان تماما عن حياته.

****

● الحب الأول:

خدعت صهرى المهندس عبد السلام فلم أخبره أننى مضطر بعد عقد قرانى على ابنته"جميلة" بأسابيع قليلة الى تسليم نفسى لادارة التجنيد فى نهاية عام١٩٦٨. خشيت أن يتردد فى قبولى تحسبا للمجهول، فقد كانت البلد فى حالة حرب وكان اليهود يسيطرون على أراضينا وأراضى سورية والأردن بدعم معلن من العالم بأسره كراهية فى عبد الناصر وتشفيا فى هزيمته الساحقة. شاركتنى جميلة فى المؤامرة فلم تخبره هى الأخرى، ولما علم ثار عليها غاضبا فقد كان يعتقد – لسبب لم أعرفه حتى اليوم- أننى سوف أكون ضمن الشهداء تاركا ابنته معقودة القران موقوفة الحال. كان رأيه الاكتفاء بالخطوبة وتأجيل القران لما بعد الانتهاء من أداء الخدمة العسكرية، حتى اذا توكلت على الله واستشهدت لا تضار ابنته فى شىء ويسهل زواجها من غيرى على الفور.

خدعتى البريئة لصهرى لاتقارن بخدعة العمر الموجعة المؤلمة التى تلقيتها من جميلة ولم أعلم بحقيقتها الا بعد زواجنا بما يقرب من أربعين عاما.

اعتاد صهرى ألا يزوج بناته الا بعد تخرجهن فى الجامعة مهما بلغ شأن طالب الزواج من احداهن. كانت جميلة هى أجمل أخواتها، ولذا فقد كثر خطابها خلال فترة دراستها بكلية العلوم، لكن عبد السلام كان يرفضهم جميعا طالما لم تتخرج جميلة. فى العام النهائى تقدم لها شاب من عائلة محترمة يعمل معيدا بالجامعة، وكان قد بقى على تخرجها أسابيع قليلة. أعجب به عبد السلام ووافق عليه عن اقتناع شديد. وعده بإتمام الخطوبة عقب الانتهاء من امتحانات البكالوريوس. كان يوما عصيبا علينا. جميلة تبكى وانا أضرب كفا بكف ولا أستطيع أن أفعل شيئا ، فقد كان من المستحيل أن أتقدم لخطبتها وأنا مازلت طالبا وأمامى مايقرب من العام لحصولى على بكالوريوس الهندسة، فضلا عن ضرورة الانتظار حتى أوفق فى الحصول على عمل مناسب.

عشنا أياما عصيبة ونحن نقف عاجزين عن حماية حبنا والدفاع عن وجوده الذى أصبح مهددا بالاندثار وعن أحلامنا وآمالنا التى باتت عرضة للفناء. جافانى النوم وطاردتنى الكوابيس. أرى جميلة بين أحضان ذلك الرجل الغريب المحتال الذى استطاع أن يأكل عقل صهرى ويوقعه فى حبه حتى جعله غير قادر على الاستغناء عن مجالسته كل يوم.

بدأت امتحانات جميلة. فى اليوم الثالث جاءتنى مبتهجة الأسارير منشرحة الصدر باسمة الثغر، والفرحة طاغية على كيانها. كنت أعرف أنها منقولة الى السنة النهائية ومعها مادة راسبة فيها من العام السابق وعليها أن تمتحن فيها مرة ثانية.حصولها على البكالوريوس مرهون باجتياز هذه المادة بنجاح فضلا عن ضرورة النجاح فى جميع مواد البكالوريوس. قالت لى بنبرات مترعة بالفخر والانتصار:

- سأرسب هذا العام حتى أعطيك الفرصة لتتقدم الى أبى بعد تخرجك مباشرة
- لم أفهم شيئا
- تركت ورقة اجابة الكيمياء العضوية بيضاء تماما..لم أكتب بها كلمة واحدة
- معقول؟!..
- لم يكن هناك بديل ، حتى أعيد السنة فيصرف أبى النظر عن زواجى من الدكتور أو يؤجله على الأقل

لم أقدر فى حياتى تضحية لمخلوق عرفته أو سمعت عنه مثلما قدرت تضحية جميلة لأجل حبنا الجميل. نجحت خطتها بالفعل وكسبت المعركة بمساعدة أمها الرائعة التى كانت ترعى حبنا فى

صمت، والتى كان تأثيرها على زوجها قويا بالمحبة والتفاهم. ظللت عمرى حافظا لها جميلها شاكرا لها نبل موقفها. طالما تباهيت بموقفها هذا أمام الأهل والمقربين.

كم أحببت حديقة كلية العلوم الصغيرة التى كنا نجلس فيها بالساعات. أحيانا كنت أذهب اليها هناك فلا أجدها . تكون فى محاضرة او بالمعمل. زميلاتها تستضفننى فى الكافتريا وتقدمن لى المشروبات لحين أن تحضر. مرة علمت انها بمعمل الفيزياء. مررت أمام باب المعمل حين لمحتنى. ما كان منها الا أن خلعت البالطو الأبيض تاركة كل شىء وخرجت لتلقانى. طلبت منها أن تعود لتكمل عملها على أن نلتقى بعد ذلك فى الحديقة أو الكافتريا. قالت لى وهى تبتسم ببساطة شديدة:

- خلاص. انا أخذت "صفر"..لاتشغل بالك

فى ذلك اليوم تعهد كل منا للآخر بألا يكون لغيره مهما كانت الظروف أو الضغوط، وأن نرعى حبنا بكل ما لدينا من عزم واصرار.

بعد حوالى أربعين عاما من زواجنا كنا نجلس على شاطىء مرسى مطروح بمصيف نادى سموحة وكان بصحبتنا أسرة صديقة. الدكتور محمد وزوجته الدكتورة فاطمة ، وهما من جيران الطفولة فى رأس التين. بيت فاطمة كان فى مواجهة بيت شقيقتى الكبرى سعدية. كنا نتحاور فى صبانا من خلال الشرفات ونتفق على مواعيد نزولنا الى الشاطىء المواجه لبيوتنا مباشرة. لم يكن لدينا أدنى تصور عن خيانة الدنيا وغدر الأيام. بيت محمد يبعد قليلا عن بيت فاطمة. لم يكن أحدهما يعلم أن الأيام سوف تنصب لهما شركا للحب يقعان فيه ويتم الزواج ضد رغبة أسرة محمد لأسباب لست أذكرها. على الشاطىء انبرى الدكتور محمد يتباهى برواية قصة تحديه لأسرته لأجل عينى فاطمة الخضراوتين. ما كان منى الا أن تباهيت أنا الآخر بتضحية جميلة لأجلى اذ تركت ورقة الاجابة بيضاء بغير كلمة حتى ترسب ويرحل الخطيب المنتظر لأحل محله. فى تلك اللحظة تلقيت صدمة عمرى حين فوجئت بجميلة تقول:

- هذا لم يحدث !

كان وقع كلماتها على كوقع الصاعقة.انصب ذهولى فى حدقتى عينى المثبتتان عليها فى فزع وجف ريقى واحتبس فى فمى الكلام وقد شعرت بطعنة نافذة فى القلب. ساد صمت ثقيل بيننا جميعا فإذا بها تقول:

- أنت لم تفهم جيدا ماقلته لك فى حينه

أربعون عاما وأنا متعايش فى فخر مع أكذوبة !!.. الذى آلمنى حقا أنها لم تصارحنى بما تدعيه الآن طيلة ما مضى بيننا من زمن، وإنما فاجأتنى به أمام الآخرين دون سابق تمهيد ، فأظهرتنى بمظهر المدعى الكاذب أو المخدوع الساذج. فى ذلك اليوم ركبنى هم وغم .وجدت نفسى أتوجه الى الحقيبة التى كانت تحوى جميع خطاباتنا المتبادلة عبر السنين ، خاصة خلال سنة اعارتها الى عمان. فتحت الحقيبة فى غضب. فصلت خطاباتى عن خطاباتها.وضعت كل منهما فى مظروف منفصل عقابا لها على أكذوبتها الموجعة، وكاننى أقوم بعملية طلاق بين عواطفنا المنسكبة حبرا على الورق و التى عشنا فى ظلها كل هذه الأعوام.

هكذا كان رد فعلى الانتقامى من محبوبتى رومانسيا للغاية ، فلم أجد ما أفعله غير ذلك تنفيسا عن صدمتى العنيفة بعد أن عشت فى قصة وهمية مختلقة لما يقرب من أربعين عاما. واذا كانت هذه هى الواقعة الأولى التى تؤذى فيها جميلة مشاعرى وتصدمنى فى قناعاتى الرومانسية الحالمة الرائعة، فإن هناك صدمة أخرى سابقة لها بعدة سنوات آذتنى بها حين جاءت أمى لتقيم معنا لعدة أشهر بالتبادل بين الاخوة والاخوات، بعد أن تنازلت عن شقتها لأحد أحفادها ليتزوج ويقيم بها، بحيث أصبحت بلا سكن خاص تملكه. كانت مريضة وبحاجة الى الرعاية والمتابعة. لم يفهم أحدنا كيف استطاع نديم فى زمن قياسى وبمهارة غير مسبوقة أن ينتقل من مصاف الفقراء الى مصاف

الأغنياء حتى من قبل أن يهاجر. أسكنها فى شقة بأحد بيوته التى اشتراها بأبى قير وكان يؤجر شققها جميعا مفروشة للمصطافين وغير المصطافين..

لم يكن من المنطقى تركها وحيدة لمجرد تمتعها بالخصوصية وبما تحب من استقلالية . فى البداية كنا نتبادل زيارتها ، لكن المرض تضاعف واستفحل، كما تعرضت مرة للحرق ومرة للاختناق بالغاز حين نسيته مفتوحا ، بحيث أصبحت اقامتها وحدها مصدر خطر قاتل عليها. عندما عرضت الأمر على جميلة قبل أن تحضر أمى فوجئت بها تقول لى ببساطة:

- ولماذا لاتذهب لتقيم معها مؤقتا بدلا من مجيئها هى الى هنا؟

لم أصدق أذنى.أصابنى ذهول ألجمنى عن الكلام. ظللت مبحلقا فيها فاتحا فمى عاجزا عن الرد عليها. واصلت الكلام مفسرة وجهة نظرها بأن الأبناء الثلاثة فى مراحل دراسية حساسة، ووجود الحاجة سيربك البيت ويعطل الأولاد عن المذاكرة، فضلا عن عدم وجود غرفة اضافية لها .

بعد دقائق كنت جالسا فى حديقة فندق سان استفانو الكلاسيكى العتيق بمواجهة البحر، أجتر وحيدا حزنى العميق ، وكأننى أكذب اذنى، فهذه ليست جميلة التى أحببتها وأحبتنى، وهذا هو البحر الذى شهد أحلى أيام عمرنا معا، يشهد الآن على رفض حبيبتى لأمى التى أنجبتنى، وعلى تضحيتها العاجلة بوجودى بين أسرتى، مفضلة اقامتى عند أمى بعيدا عن أولادى بدلا من إقامة أمى عندى. ظللت أدخن الشيشة بشراهة لمدة ساعتين..وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا. كان قرارى حاسما. تحديت موقف جميلة الشائن . ستحضر الحاجة تحية الى بيتى لتقيم به معززة مكرمة كما تشاء مهما طالت فترة اقامتها، حتى لو كانت تلك الاقامة دائمة ونهائية. بعد اتخاذى هذا القرار أيقنت أن نظرتى الرومانسية الى الحب والحياة قد باتت بحاجة ماسة الى اعادة نظر شاملة. عندما جاءت الحاجة لم تكن تعلم شيئا بالطبع عن موقف جميلة من مجيئها. فوجئت بحسن استقبالها لأمى. ظننت انها ندمت على موقفها الشائن تجاهى قبل أن يكون تجاه أمى وتراجعت عنه. لكن تبين لى بعد ذلك أن لديها قدرة فائقة – كشأن معظم النساء – على التمثيل والمراوغة، بحيث صدقتها أمى وراحت تقبلها بمحبة وحماس.. ما أن مرت أيام قليلة حتى صدقت نبوءة جميلة حين تحول البيت الى ساحة مزدحمة بالغادى والرائح والجالس والواقف من الأهل والأقارب القادمين لزيارة الحاجة والحديث معها فى أى وقت ولأى مدة زمنية. انشغل الأولاد وأمهم فى عمل الشاى والقهوة وتقديم المرطبات وتلبية طلبات الزوار، فضلا عن طلبات أمى. ارتبك البيت ارتباكا شديدا واستحال بالفعل على الأولاد أن يركزوا على دراستهم استعدادا للامتحانات. من حين لآخر كانت جميلة تنظر الى نظرات موحية بأن توقعاتها كانت فى محلها، وأننى المسئول عن الفوضى التى دبت فى البيت ، وحين عبرت عن نفسها بالقول متجاوزة ايحاء النظرات فإنها قالت بصراحة قاطعة:

- بيتنا تحول الى كافتريا يا بشمهندس

كانت حيرتى بالغة إذ كان من الصعب صد هذا السيل من الزيارات. لا أحد من الزوار يعانى ما أعانيه من تحمل مسئولية استضافة الحاجة، وكأنما يرون أن إكثارهم من التردد على بيتى سوف يبعد عنهم شبح احتمال اقامتها عندهم واضطرارهم للمشاركة فى تحمل مسئوليتها.

كان لابد من ايجاد حل حاسم لاعادة النظام والانضباط الى البيت. أعلنت على الجميع تحديد يومين معينين للزيارة على ألا تزيد مدتها عن ساعتين. استاء الجميع بشدة من قرارى، فثقافة الاعتراف بحق الغير فى الحرية الشخصية تكاد تكون منعدمة بين أفراد الأسرة مثلما هى منعدمة بين أفراد المجتمع. رغم ذلك فقد كانوا مضطرين للالتزام بهذا النظام الصارم لتجنب خطر انتقال الحاجة الى بيت أحدهم. نديم فقط هو الذى شذ عن الالتزام إذ تجاهل قرارى وحضر فى يوم مخالف لليومين المحددين. فتحت له الباب ولم أدعه للدخول الا بعد أن أعطيته محاضرة قاسية فى أهمية احترام حقوق الآخرين وحرياتهم. لم أشأ المبالغة فى اهانته فسمحت له بالدخول ولكن بعد أن تعهد

– على مضض – ألا يعاود الخروج عن النظام الموضوع حرصا على مستقبل أولادى وعلى عودة الاستقرار الى البيت. أما ابن سعدية الأكبر فقد بلغ احتجاجه على قرارى مبلغ المقاطعة التامة حتى أنه أقسم ألا يدخل بيتى مرة أخرى. غير أن زوجته جاءت بعد ذلك بمفردها لزيارة الحاجة، وهى من ذلك الطراز من الناس الذين يفهمون الدين فهما قشريا سطحيا غبيا متخلفا ويهتمون بمظاهر الحجاب والنقاب ويتحدثون بلا فهم ولا معرفة عن الحلال والحرام بجدية مضحكة.

كنت منشغلا بغرفة مكتبى فى الكتابة، لكنى تركت ما بيدى وقمت لاستقبالها والترحيب بها. مددت يدى اليها لمصافحتها ففوجئت بأنها ترفض مصافحتى باعتبار ذلك شىء محرم شرعا!!.. لم أتمالك نفسى من سبها وسب جهلها وتخلفها معبرا لها عن ندمى البالغ لأننى احترمتها بأن تنازلت بمد يدى اليها لمصافحتها. غادرت البيت ولم تدخله منذ تلك الواقعة وحتى اليوم الذى أكتب فيه هذا الاسترسال.

ازدادت مساحة الجفوة بينى وبين جميلة وانقطعت العلاقة الحميمية بيننا لفترة طويلة. فى تلك الآونة تعرضت لتجربة عاطفية عنيفة، كانت ماريا بمثابة محطة هامة توقفت فيها متأملا موقفى من الحب والحياة، والحق أننى حتى هذه اللحظة من استرسالى فى الكتابة لست أجد- لأسباب كثيرة - رغبة ملحة فى التعرض لتلك التجربة الصعبة بسرد أحداثها الخطيرة التى تركت آثارا لاتمحى على صفحة حياتى. كل ما أستطيع ذكره بثقة تامة هو أنه لولا موقف جميلة من أمى لما تركت نفسى أنساق وراء وهم حب جديد استولى على حياتى لسنوات ثلاث كاملة.

****

-٥-

كلما مر بى الوقت فى الغربة ازداد توحشى ، حتى أننى صرت مقتنعا بنصيحة أحد الفلاسفة الملحدين لرجل مقتدر ألا يمنح الناس الا صدقة – لو كان لامفر أمامه من العطاء- شريطة ان يتقدموا اليه مستجدين ذلك العطاء. لقد عشت حياة حافلة بالأخطار ورغم ذلك كنت مع كل ضربة نجاح ساحقة أشعر أن حياتى لامعنى لها. لعلك لا تستطيع أن تتصور معنى أن تتنقل بين غرفة العمليات وغرفة الانعاش فى مستشفى فاخر دون أن يسأل عليك مخلوق يوحد الله أو يثلثه ، فلا زوجة ولا أبناء ولا أحفاد ولا أقارب ولا أصدقاء. ويحدث هذا باختيارى الحر بأن كتبت على نفسى العزلة والوحدة بحيث يظل هدفى أمام عينى لايفارقهما لحظة.. ولم يكن على الا أن أقفز فوق المترددين والمتأخرين والعاجزين.عظمتى وكبريائى فى قوتى. تمردت على كل السنن التى قامت عليها حياتى والتى مازالت تقوم عليها حياتك المتراجعة أنت وبنى قومك حتى الآن. التنافس على المال والسلطة لايعرف الرحمة ، ومن المضحك أننى قرأت قولا لرجل دين يحقر فيه من شأن المنافسة لأنها تبعد المرء عن الله!..

من المؤكد أن السؤال الذى يلح الآن على خواطر الجميع هو كيف أصبحت هكذا ، أو ماهى التجارة التى مارستها أو السلطة التى اغتصبتها أو المال الذى سرقته أو كسبته بعرقى وجهدى أو سقط بين يدى فى ضربة حظ كورقة يانصيب رابحة ، وربما كانت سمسرة عقارات أو تجارة سيارات. من الطبيعى أن يقتلكم الفضول والرغبة فى معرفة كيف أصبح حالى هكذا وأنتم كما كنتم وستظلون هكذا حتى نهاية العمر.

انه لأمر مرهق للغاية أن أحكى لك الخطوات التفصيلية بترتيبها الواقعى والتى أدت بى الى تلك النهاية. الآن وقد رحل الجميع ولم يبق الا أنا وأنت على قيد الحياة وقد دهمتنا الشيخوخة المزعجة ، دعنى فقط أفيد أبناءك وأحفادك وأبناء اخوتى وأحفادهم بالوسائل التى اتبعتها حتى أصبحت رجل المال والسياسة الأمريكى من أصل مصرى نديم صادق الذى يتمتع بأعلى مراتب السلطة والثروة معا، فمن يريد أن يكون مثلى عليه أن يتبع خطواتى بلا تردد ، ومن يشاء أن يمضى عمره بين الوظيفة والبيت والمقهى والمسجد فلا شأن له بى أو بما أقول.

****

●جدى العظيم بتاح حتب ينصح ابنه:
"اذا أصبحت عظيما يابنى بعد أن كنت صغير القدر ، وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجا، فلا تنس كيف كانت حالك فى الزمن الماضى، ولاتتباه بثروتك التى أتت اليك منحة من الاله الملك، فأنت لست بأحسن من أقرانك الذين حل بهم الفقر."
●الخسيـــــــس:
ظللت زمنا طويلا رافضا لمقولة جان بول سارتر الشهيرة بأن الآخرين هم الجحيم، وقد أعجبتنى مسرحية"الآخرون" التى كتبها ترويجا وتفسيرا لمقولته، ورغم ذلك لم أتنازل عن رفضى لهذا الفكر الذى رأيته غريبا.. من الواضح من رسالات نديم أنه كان لا يرى الجحيم فى الآخرين فقط ، وانما كان يراه فى كل شىء عداه هو ، وتلك حالة أكثر بشاعة وعدمية مما تصورت فى حياتى وكلما تأملت فى جوهرها ازددت حيرة ولم أجد لها سببا.
لقد مررت خلال رحلة حياتى بالعديد من التجارب الأليمة التى قاسيت فيها من خيانة الأصدقاء وغدرهم وتقلباتهم، فلم أنظر الى مواقفهم باعتبارها ارادة معاكسة لارادتى تعمل على ايذائى وإقصائى ومعاداتى حسب فكر سارتر، وانما نظرت اليها باعتبارها سقطات انسانية استثنائية لاتعنى بأى حال تعميم فكرة أن كل ما يتعلق بالآخر فهو جحيم بالنسبة لى.
لم تتغير تلك النظرة المثالية الا بعد طعنة غادرة تلقيتها من صديق لم أجد له أدنى تبرير فيما فعل بى على غير انتظار أو توقع، حيث شعرت ساعتها أنه لايعنى بالنسبة لى الا الجحيم بعينه.
خلال عملى بالقطاع العام كنت أعمل مستشارا فنيا لمجموعة شركات الهلال، وهو عمل اضافى خاص لاعلاقة له بعملى الحكومى. كلما استدعيت من قبلهم لاجراء دراسة فنية أو معاينة مصنع أو ماكينة وما شابه ذلك، كنت أتوجه الى صديقى ورئيسى فى العمل مصطفى المهداوى طالبا منه الموافقة على اجازة تتراوح بين الأسبوع والأسبوعين حسب مقتضيات الحال. كنت أحكى له بنية خالصة عن تفاصيل عملى مع هذه المجموعة وسفرياتى معهم الى الخارج. فى مرة أبدى لى رغبة مستترة- وان كانت قوية- فى أن أجد له مكانا للعمل لدى هذه المجموعة. اتفقت رغبته مع رغبتى فى أن أقدم له معروفا لن يضيرنى فى شىء، بل سيسعدنى كصديق من جهة،ويسهل لى مهمتى من جهة أخرى فلا يضع العراقيل أمام طلباتى المتكررة للحصول على اجازة، فضلا عن ان مشاركته لى فى هذا المغنم ستقطع دابر نظراته الحاسدة التى لم يستطع اخفاءها رغم دهائه الشديد.
وافق المهندس كمال عبد الهادى رئيس مجلس ادارة المجموعة على الحاق مصطفى المهداوى للعمل معنا بعد أن أفضت له فى الحديث عن خبرته الواسعة فى المجال الصناعى الذى نعمل به. اصطحبت مصطفى المهداوى معى الى مكتبى بمبنى ادارة المجموعة فى مصر الجديدة، حتى أقدمه للمهندس كمال. عندما دخل مكتبى –الذى خصصه لى عبد الهادى – لاحظت عليه دهشة شديدة وانبهارا غير عادى بفخامة الغرفة والمكتب. تغير لون وجهه عدة مرات وكانت نظرات عينيه غير مريحة على الاطلاق، وكأنه يستكثر علىّ هذه الرفاهية المظهرية التى لايتمتع بشىء منها فى مكتبه بالشركة التى نعمل سويا بها. جلسنا بانتظار قدوم الرئيس وطوال فترة انتظارنا لم يفتح الله على مصطفى بكلمة واحدة مما أثار دهشتى وتعجبى، وجعلنى أصر أنا الآخر على الا أفتح فمى بكلمة .
عندما دخل علينا المهندس كمال عبد الهادى مرحّبا بنا ، فوجئت بمصطفى ينحنى له فى احترام زائد به كثير من المبالغة، أضعاف الاحترام الذى يبديه لرئيس شركتنا الحكومية.
لست أدرى لماذا جال بخاطرى الآن هاجس خيالى جنونى، إذ رأيت أمى الحاجة تحية ومعها اخوتى الثلاثة نادية وكامل وسعدية قادمين باتجاهى وعلى وجوههم ابتسامات شديدة العذوبة، رغم انهم جميعا قد ماتوا خلال فترات زمنية مختلفة. فقدان الأحبة أمر محزن عسير لانملك ازاءه سوى

الصبر والتأمل فى مشيئة الله فى شئون خلقه. تصورت أنهم كانوا بنواياهم الحسنة سيلومونني كثيرا على سوء ظنى بالمهداوى ونظراته التى ظننتها غيورة حاسدة حاقدة.

تقرر أن نسافر جميعا الى قبرص لمعاينة بعض المصانع المملوكة لمؤسسة غير حكومية تنوى تصفية أعمالها. أرشدنا الى هذه المؤسسة سمسار يونانى خفيف الظل عاش فى مصر طويلا. كانت الأسعار مغرية ، كما كانت حالة الماكينات جيدة لولا أن النزاعات القضائية بين الشركاء هى التى أدت الى عرض مجموعة مصانعهم للبيع بهذه الأسعار.

فى المطار حدثت مفاجأة غير متوقعة على الاطلاق. تبين ان جواز سفرى لايسمح لى بمغادرة مصر قبل إظهار شهادة تادية الخدمة العسكرية، والتى كنت قد أنهيتها منذ سنوات عديدة. أوضحت لضابط الجوازات أننى تجاوزت الأربعين وبالتالى لم أعد مطلوبا للتجنيد، وأنه ليس هناك مبرر لاحتجازى لهذا السبب غير المنطقى. تمسك الضابط بتنفيذ اللوائح. انقلبت معالم وجه عبد الهادى من السماحة الجميلة الى الغضب المكتوم أمام هذه المهزلة . طلب منى – بهدوء غير عادى- أن أتجه الى الاسكندرية بالطائرة لأحضر الشهادة من منزلى ثم أعود فورا الى مقر المجموعة بمصر الجديدة لتتولى الادارة تسفيرى الى قبرص بتذكرة جديدة، ووعدنى أنه سيرتب معهم الأمر فورا.

لم أجد مكانا شاغرا بالطائرة، فعدت الى الاسكندرية بالأوتوبيس الصحراوى. أمضيت الساعات الثلاث نائما فى مقام المغمى عليه من شدة التعب والارهاق ومحاولة الهروب اللاارادى من الصدمة وخيبة الأمل. دهشت جميلة لعودتى المفاجئة. كان المغرب يؤذن. طلبت منها أن تعد لى كوبا من الشاى باللبن- لست أدرى لماذا كان هذا الاختيار- وتوجهت من فورى الى غرفة المكتب. فتحت الدرج الأوسط واستخرجت منه الشهادة فى ثوان معدودة. أفرغت الكوب فى جوفى بسرعة ، ولم أجلس دقيقة واحدة على أى مقعد بالمنزل. فى دقائق كنت بمطار النزهة. وضعتنى المضيفة الأرضية على قائمة الانتظار لأن الطائرة كانت محجوزة بالكامل. كانت المضيفة زوجة أحد أصدقائى لحسن الحظ. لم أعرف ماذا فعلت بحيث دبرت لى تذكرة. فى خلال ساعة كنت بمطار القاهرة. اتصلت بالادارة. جاءت عربة من المجموعة أقلتنى الى فندق السلام هيات بمصر الجديدة. سلمنى الموظف المرافق لى تذكرة السفر الجديدة الى قبرص. كان موعد سفرى هو الخامسة من صباح اليوم التالى. عبرت له عن خشيتى ألا أستطيع الصحيان فى الموعد المحدد. قال لى:

- اطمئن. أنا مسئول - طبقا لتعليمات البشمهندس كمال- عن إيقاظك وتوصيلك الى المطار فى الموعد المحدد.

فى الفندق سارعت بأخذ حمام دافىء. تناولت العشاء ثم استلقيت على الفراش كما لو كنت مخدرا. أشعلت سيجارة بعد أن وضعت المنفضة عن يسارى على الكومودينو الملاصق للفراش. صحوت على رنين جرس التليفون.فزعت حين رأيت فلتر السيجارة محصورا بين السبابة والوسطى، والرماد ممتدا بطول السيجارة الأصلى راقدا بالمنفضة فى تماسك غريب. أى أننى استغرقت فى النوم بمجرد أن سحبت نفسا أو نفسين لا أكثر من السيجارة. لو سقطت السيجارة من يدى وهى مشتعلة على الموكيت الذى يغطى أرضية الغرفة والفندق بأكمله ، لوقعت كارثة حريق غير مسبوقة فى تاريخ الفنادق المصرية.

فى مطار لارناكا بقبرص لمحت شابا بانتظارى حاملا لافتة كتب عليها اسمى بالانجليزية. كان ذلك مصدر اعتزاز شديد بنفسى وسعادة ذات طعم خاص لم أتذوقه من قبل. اصطحبنى فى عربة أنيقة الى طريق طويل عريض محفوف بالجبال الخضراء والأشجار الشاهقة فى طولها ذات الخضرة الداكنة المريحة للأعصاب. كنت مسحورا بروعة الطبيعة الأوروبية الخلابة. كنت أرتعش من فرط الفرحة إذ تحققت أمنية طفولتى حين كنت أرقب نهاية البحر فى تماسه مع السماء عند أقصى حدود رؤيتى له ، وهى أن أرى ما وراء خط الأفق من ناس وبلاد وجبال وبحار وغابات. أنا الآن على أرض أوروبية وهناك من يستقبلنى بلافتة وعربة، وهناك أيضا من ينتظرنى فى فندق.

شكرت الله كثيرا وكنت على يقين من أنه يحبنى، لكنى لم أعرف ماذا يمكننى أن أفعل لأعبر لجلالته عن امتنانى وحمدى لكرمه العظيم.

وصلنا الى فندق سيبرا ماريس، أجمل فنادق مدينة بافوس الساحلية. فى احدى ضواحيها يقع مصنع الورق المعروض للبيع، والذى جئنا لمعاينته على الطبيعة.

لايعرف مخلوق آدمى مهما أوتى من عبقرية ذهنية أو روحانية ، متى وأين ولماذا سيكون متواجدا فى مكان ما على سطح هذا الكوكب الكروى الساحر الملغز الجميل ، المحاصر ببحرين من الخير والشر ونهرين من الفضيلة والرذيلة. الفندق يطل على البحر مباشرة. على شاطئه نخيل جميل متناثر فى تنسيق عبقرى ، ومن حوله مظلات مصنوعة من أوراق النخيل . تحتها مقاعد متنوعة التصميم والألوان. سرق الجمال عينى واستلب روحى ، فلم أشعر بنفسى الا وأنا واقف مع مرافقى فى قاعة فسيحة تتوسط مدخل الفندق.

معظم الأغانى المصرية يتذلل فيها الحبيب للمحبوب ويجد متعة فائقة فى أن يتوسل اليه ، ويتسول عطفه ورضاه والكف عن جفاه ، ويسأله العطف والرضا والوصال. سبق أن أشار الى هذه الحقيقة مجموعة من الكتاب الاسرائيليين الذين التقيت بهم حين زاروا المكتبة الأمريكية بالاسكندرية.. الموسيقا التى سمعتها بمجرد أن دخلت الفندق كانت تشع بالبهجة والفرحة والانتشاء. البوزوكى هو القائد تسانده آلات وترية أخرى كالبزق والجيتار. أما الايقاع الراقص فكان يختلف كثيرا عن ايقاع الواحدة والنصف الذى عشنا عليه عمرنا ، مثلما كان النخيل الذى شاهدته مختلفا عن نخيلنا المصرى.

فى صدارة نصف دائرة كبيرة كان يجلس كمال عبد الهادى ومن حوله مساعديه ومن بينهم مصطفى المهداوى الذى سبقنى بأن سافر معهم من الاسكندرية.

أمضيت عمرى كله أحسن الظن بالناس حتى يتبين لى العكس. تلقانى عبد الهادى بترحاب شديد وسعادة حقيقية. قال بنبرة صادقة:

- متنا من الجوع فى انتظار وصولك. سنسبقك الى المطعم ولاتتأخر .

اصطحبنى مصطفى الى غرفتى لأترك حقيبتى وأغسل وجهى ثم نتوجه الى المطعم. فى المصعد لم أشعر براحة تجاه نظرات مصطفى الغريبة لى. مع ذلك لم يخطر ببالى أن أشك فى نواياه، حتى قال لى:

- لو كنت متعبا فلا داعى لتناول العشاء معنا بالمطعم

نظرت اليه فى دهشة وتوجس فواصل:

- يمكنك تناوله فى غرفتك ثم تنام ونلتقى فى الصباح

كان من المستحيل على شخص مثل مصطفى المهداوى أن يتفهم طبيعة مشاعرى وما يجول بصدرى فى تلك اللحظات من احساس متفجر بالجمال ونشوة الحياة بعد رحلة الطريق المبهرة من المطار الى الفندق. كنت أتمنى أن أسهر حتى الصباح على هذا الشاطىء الساحر جالسا تحت نخيله ناظرا الى الجبل الرائع المحيط به، والى أشجار الفاكهة المتناثرة على قمته وسفحه، والى القمر الساطع فى سمائه الصافية التى تزغرد فيها النجوم وتتغنى بأنشودة الحياة. هذا الكائن البشرى لم يقرأ قصيدة شعر فى حياته. رصيده من الثقافة العامة صفر لا يعلى عليه. هو بارع فقط فى استحلاب مال الشركة بقدرة فائقة لاتعرف الحدود. قلت له بصدق دون أن أعبأ بمقصده:

- بل سأنزل معك فورا ولن أضيع دقيقة واحدة من الوقت دون أن أستمتع بجمال المدينة والفندق والطبيعة.

استسلم المهداوى للأمر الواقع وبدا كما لو كان قد تلقى طعنة فى قلبه عندما استمع الى ردى الحاسم. بعد العشاء اختلى بى المهندس كمال عبد الهادى وقال لى عن اقتناع شديد كان جليا من لهجته:

- نحن لا نستطيع أن نثق فى هذا المهداوى أو نأتمنه على أموالنا
- كيف؟؟
- لقد انتهز فرصة عودتك من المطار الى الاسكندرية وقال لى انه يكفى وحده لانجاز العمل المطلوب ، وانه لاداعى لانتظارك حتى تعود
- غير معقول!!
- لكنه حدث بالفعل..انه خائن

الجحيم اذن هو المهداوى، بل هو الآخرون بلا استثناء. حتى فى المسجد حين أدير مفتاح المروحة لاتقاء شدة الحر يغلقه آخر قائلا ان هواء المروحة يضره. حين يستند زميلى فى العمل الى مركز القوة الذى يمثله قريبه عضو مجلس الشعب ، فيستولى على حقى فى الترقية ويسبقنى اليها دون وجه حق. حين أرى بعينى التناحر بين شقيقين على مغنم زمنى فيقتل أحدهما الآخر..حين تحاصرنى أنانية الآخرين وتجاهلهم لرغباتى بل لكينونتى، فإنى أرى فيهم الجحيم عينه ولا شىء غيره.

فى الصباح تعمدت أن أجلس مع المهداوى على مائدة افطار واحدة ذات مقعدين فقط ، حتى لايشاركنا فيها أحد. لم أستطع التخلص من ذهولى لموقفه وأنا أواجهه بصراحة تامة :

- هل قلت ذلك حقا يامصطفى؟
- من الذى قال لك ذلك؟
- المهندس كمال نفسه

أحنى رأسه فى ذلة الى الأرض. قال متثاقلا:

- أنا آسف. أنا قلت ذلك حقا
- لماذا؟!

أجاب فى انكسار مهين:

- لست أدرى
- هل هذا هو جزائى بعد أن قدمت لك الخير وكان بإمكانى الاستئثار به لنفسى؟

كادت أذناه تنفجران من شدة اندفاع الدم اليهما حتى أصبحا فى لون الطماطم. فى صمت قاس رحت أتفحص معالم وجهه بنظرات تفيض بالسخط والاحتقار ، حين همس متخاذلا:

- أعترف بأنها غلطة كبرى، لكنى أطمع أن تسامحنى

فى تلك اللحظة قررت أن أتجاهل الأمر تماما وكأن شيئا لم يكن. تناولت افطارى بلا شهية وتوجهنا الى العمل.

عندما نويت اصطحابه معى مرة أخرى فى احدى سفرياتنا للخارج ، عنفنى عبد الهادى متسائلا فى دهشة:

- لم تصر على الاستعانة بهذا الخائن؟..هل أنت أكتع؟!

يلومنى على تسامحى ويصر على الاعتماد علىّ وحدى فى انجاز ما يطلب من عمل. أما المهداوى فقد ظل شعوره بالذنب تجاهى يلازمه حتى فرقت بيننا الأيام.

****

-٦-

ياسعيد.. أنت كاتب مبدع.إذن فلابد أنك عرفت ثلاثى القوة الشهير :ميكيافيللى ونيتشة وروبرت جرين. انهم أصحاب الفضل فى كل ما وصلت اليه من مجد إن جاز التعبير ، فالبعض لايعتبر السلطة والثروة مجدا لأنهم يرونه فى أشياء أخرى غير مادية ، ولكل الحق فيما يعتقد.

أقولها لك بصراحة إنه رغم الكارثة التى ألمت بى ، ورغم أنى لم أعد أعرف ماذا سأفعل بكل ممتلكاتى ، الا أننى لست على استعداد لأسلم أحدا ثمرة جهدى وكفاحى وقتالى بكامل ارادتى ما دمت حيا. افعلوا بثروتى ماتشاءون بعد موتى ، لكنى الآن لست أملك الارادة أو الجرأة على التنازل عنها لأى مخلوق رغم تأكدى التام من مصيرى المرتقب بين يوم وليلة.. وحتى ذلك الحين فإنى أبعث لأولادكم وأحفادكم بخلاصة تجربتى . بالطبع ستقولون ان مبادىء هذا الثلاثى التى اقتديت بها فى مسيرتى ، هى مبادىء انتهازية لا أخلاقية تتعارض مع الدين والقيم الموروثة ، وهذا شأنكم ولا يعنينى فى شىء.. لكنى أثق أن لأحفادكم وجهة نظر أخرى ودعونى أجرب معهم ، فلدى بعض الأمل في أن يغيروا من واقع أسرتهم الكئيب بفكر جديد وروح وثابة الى النجاح.

علموهم أن المفتاح الرئيسى للسيطرة على رئيس العمل هو أن تشعره بأنه هو الشمس التى تبعث الضياء فى الكون، بينما دورك الوحيد أن تدور فى فلكه. أما اذا كان رئيسك أشبه بالنجم الذى ينتظر أفوله، أى انه على حافة النهاية، فلا تقلق من التغطية عليه ولاتشفق عليه، لأنه غالبا لم يصل هو نفسه الى ماوصل اليه بالاشفاق على من سبقوه. أما اذا كان شديد الضعف فالأفضل ألا تقترب منه..اتركه يسقط وحده!..

حذروهم أن يضعوا ثقة في الصديق ، وعلموهم كيف يستثمرون العدو جيدا. الأصدقاء يرون دائما أن ماتفعله شىء جيد لأنهم يرون أفضل ما فيك ، أما وجود الأعداء أمامك فيجعلك أكثر حرصا أثناء العمل.

قل لحفيدك ألا يظهر نياته الحقيقية أبدا ، فلا أحد يستطيع أن يعد دفاعاته ضده مالم تكن لديه معلومة دقيقة عما تنوى فعله. فى هذه الحالة يمكنك أن تلعب بهم ببراعة ، وتقودهم دائما الى الاستنتاج الخطأ والطريق المضلل.

السيطرة على اللسان أمر حتمى ، وعلى الراغب فى الوصول أن يقول دائما أقل مما يجب، فكل من امتلكوا القوة فى التاريخ لم يكونوا يفتحون أفواههم الا عند اللزوم. القوة تعتمد دائما على المظاهر وعلى الكلام القليل العائم الذى لايستطيع أحد أن

يستخلص منه شيئا. الحالة الوحيدة التى لاينبغى التزام الصمت فيها هى عندما يكون ذلك الصمت دافعا لأن يشك الناس فى نواياك الحقيقية.

من يريد القوة لابد أن يجعل سمعته دائما بعيدة عن الشبهات والأيدى والألسنة. ان أى اصابة فى حائط السمعة تجعل المرء مكشوفا عاريا أمام الناس وهدفا لضربات الأعداء من كل جانب. ان صناعة السمعة الجيدة تبدأ بإصرارك على اظهار صفات رائعة فيك كالصدق والأمانة والاخلاص والحرص على مصالح الآخرين. ثم تزيد من احساس الناس بأن هذه الصفات توجد فيك بأكثر مما تتواجد لدى غيرك.

دع الناس يقومون بالعمل بدلا منك ثم احصد النتائج. لاتفعل بيديك ما يمكن أن يفعله الآخرون من اجلك. تأكد أنك لو كنت تريد أن تفعل كل شىء بنفسك فسوف تستنزف قوتك وطاقتك فى أشياء صغيرة يمكن أن يقوم بها الآخرون.

السلطة تعنى أن يظل صاحبها هادئا كامنا. ينصب الأفخاخ للآخرين ويتركهم ينفجرون غيظا بسببها..وأفضل استراتيجية فى المعارك هى أن تجعل أعداءك يجهدون انفسهم محاولين الوصول اليك والنيل منك. دع خصمك يأتى اليك بقدميه ، بينما تحتفظ أنت بكامل قوتك فى انتظار اللحظة التى تنسحق فيها قوته تماما لكى تهاجمه بلا رحمة.

لابد أن تأتى انتصاراتك من خلال أفعالك ، فالمصالح هى التى تحكم كل شىء، والقوة الحقيقية تأتى من معرفة نقاط الضعف والتلاعب بها بواسطة الأفعال. أما اضاعة الوقت فى التلاعب بالكلمات فهى لعبة من لايجد شيئا آخر يفعله.

فى لعبة السلطة لابد من الابتعاد عن أصحاب المشاكل ، والتحالف مع من يماثلوننا فى القوة أو من يتفوقون علينا ، أما لو تحالفنا مع من هم أضعف منا فسيضعفوننا بلا شك. ان تعاسة الآخرين يمكن أن تقودنا بسهولة الى الجنون. لايوجد قائد ناجح يغرق نفسه أكثر مما ينبغى فى هموم من يعملون تحت إمرته ، والا تحول الى شخص يعانى من متاعب الآخرين الى جانب متاعبه هو.

لابد أن يعتمد الناس دائما عليك. القوة المطلقة تعنى أن تجعل الناس يفعلون ماتريد دون قهر أو إجبار. والأهم أن يرغبوا فى إسعادك لأنك مصدر سعادتهم، ورضائك لأنك ترضيهم كما ينبغى. القوة والسلطةتشتملان دائما على علاقات متبادلة مع الآخرين ، سواء كحلفاء أو عملاء أو جواسيس ،أو حتى كقادة ضعفاء يمكن التحكم فيهم.

****

...سوف أجتهد فى عصر ذهنى حتي أستحضر لك المزيد من عناصر السلطة والثروة اللتان شكلتا معا أهم عناصر قوتى ونجاحى.

اليوم ضحيت بامرأة كندية تعشقنى وتتمنى لو تعيش معى حتى نهاية العمر حتى لو لم أتزوجها.بكت من قلبها لحظة الوداع الأخير وكان أكثر ما آلمها فؤادى الصخرى المتحجر. انها مثال حىّ تتجسد فيه أجمل معانى وآيات المرأة التى تعرف كيف تسعد الرجل الذى تحبه. خشيت على نفسى أن أحبها فأدمر بقلبى كل مابنيته بعقلى لذلك حذفتها بعنف من حياتى.

أصدقائى الحقيقيين الذين أمضى معهم أوقاتا سعيدة هم الكتب لا البنى آدميين. من الغريب أننى حين قرأت "الامتاع والمؤانسة" لأبى حيان التوحيدى فقد دهشت للمزايا العديدة التى تحققها الصداقة ، والحق أننى صدقتها ، ولكن لأنى شئت أن أدفع الضريبة كاملة دون تراجع ، فقد محوت هذا الكتاب من ذاكرتى.إنى مشفق عليك أنت وأمثالك من الكتاب المصريين ، فأنتم تكتبون لشعب لايقرأ. رغم ذلك فإنى أرجو أن تكون مستمرا فى استرسالك الذى اتفقنا عليه حتى لاتقع فريسة للاكتئاب اللعين. ان فى الكتابة التلقائية علاج طبيعى للنفس وتنفيس رهيب عما فى أعماقها المظلمة بدهاليزها السحرية. لاتفكر اطلاقا فى نشر ما تكتب فلن يقرأ أحد وان قرأ فسينصرف الى البحث عن الأسماء التى اخترتها محاولا تطبيقها على الواقع ليعرف من تقصد بهذا ومن تقصد بذاك غافلا عن المغزى الذى ترمى اليه تماما.

يا أخى ان المجتمعات المتخلفة تقف دائما موقف العداء من العبقرى المبدع. عداء قائم على الحقد والغيرة والشعور بالدونية على مستوى الأفراد الأنداد ، أو على مستوى الجماعات المهيمنة على الامكانيات المتاحة لظهور العبقرية واكتشافها. أنا أقول دائما إن سمة المجتمعات المتقدمة هى انتشار التفوق والنجاح والابداع بين أفرادها كالعدوى، إذ يتباهى المجتمع بعباقرته لابحكامه، ويقدم لهم أقصى ما يمكن تقديمه من عون ودعم ومساندة، بينما سمة المجتمعات الفاشلة هى محاربة الأفذاذ والقضاء عليهم ، لأنهم يشكلون خطورة عظمى على المستبدين وأهل الفشل والتخلف.

****

● العـــــــــــين:

عانيت كثيرا فى حياتى الأدبية من الغيرة. لم يكن لى ذنب فى أن يكتب عنى عمالقة الأدب فى مصر منذ نشرت روايتى الأولي "جلامبو" تليها روايتى الثانية "بوابة مورو". كتب عنى نجيب محفوظ ويوسف ادريس وعلى الراعى ويوسف الشارونى وأنا فى بداية الثلاثينات من العمر. كانت كتاباتهم مشجعة للغاية. أشعلت النار- على غير ما كنت أتصور- فى قلوب معظم الكتاب ، مثلما أشعلت النار فى عزيمتى وألقت على كاهلى بمسئولية القلم والورقة وما يسفر عنهما من فكر وفن وإمتاع وتنوير.

الغيرة والحقد والحسد مهلكات ثلاث عرفتها من احياء علوم الدين للامام الغزالى. أنا لا أعترض على الغيرة المهنية البناءة التى تدفع الانسان الى المزيد من الجهد والتجويد بالاستفادة من خبرة الآخرين ونجاحاتهم. ماسح الأحذية يغير من قرينه الجالس بصندوق الورنيش الذى يسرح به على بعد بضعة أمتار من موقعه بالشارع. لكنه لايمكن أبدا أن يشعر بالغيرة من صاحب العربة المرسيدس الواقفة أمامه مباشرة بجوار الرصيف الذى يجلس عليه، لأنه ليس من أبناء مهنته. تلك طبيعة الانسان. لكن الغيرة تتحول عند الكثيرين الى حسد بغيض يتمنى فيه الحاسد زوال النعمة عن المحسود، وقد يكتفى بذلك فى قرارة ضميره ولا يأت بفعل ايجابى يدعم تلك المشاعر، وقد يتخذ بعض المواقف العملية لتحقيق رغبته فى حرمان المحسود من نعمةالله عليه. انى أرى فى الحسد اعتراضا صارخا على مشيئة الله فى توزيع رزقه على خلقه، وهو اعتراض فى غير محله لايجلب لصاحبه غير المرارة والألم، فضلا عن عجزه المؤكد عن تغيير ارادة الخالق مهما أتى من شرور ينفس بها عن غضبه البغيض. والحقد وليد الغيرة والحسد معا ، وهو ما لمسته مجسدا فى شخصى صديقى الكاتبين المعروفين محمد وناصر عقب فوزى بجائزة الدولة التقديرية للآداب. تلك الجائزة الكبرى التى طالما حلمنا جميعا بنيلها وغبطنا كل من حصل عليها. رغم الحلم والتمنى فقد كنا يائسين من حصول أى كاتب اقليمى عليها، لأن ديناصورات القاهرة لايسمحون – عادة - بخروجها من بين أياديهم. الحدث أحدث دهشة شديدة فى الوسط الأدبى ، خاصة بعد أن أعقب استلامى للجائزة حصولى على وسام الجمهورية للعلوم والفنون من الطبقة الأولى ، وتسلمه من المستشار عدلي منصور رئيس الجمهورية المؤقت فى ذلك الوقت- ديسمبر٢٠١٣- فى حفل عظيم بقصر الاتحادية.

فى برنامجه التلفزيونى"صح النوم" بقناة المحور قال الكاتب الصحفى محمد الغيطى – الذى لا أعرفه ولم ألتق به نهائيا - وهو يستعرض أسماء الفائزين بجوائز الدولة أن سعادته كانت بالغة بفوزى بصفة خاصة دونا عن بقية الفائزين . فسر ذلك بقوله اننى مصر على البقاء بالاسكندرية بعيدا عن الأضواء والشهرة مكتفيا بالكتابة والقراءة فى بيتى. قال أيضا اننى كنت أستحق التقديرية منذ عدة سنوات لولا مركزية القاهرة وعزوفى عن التجمعات والشلل الأدبية القاهرية.

أى فرحة فى الحياة لاطعم لها ولامذاق من دون مشاركة الأحباب والأصدقاء وتعبيرهم التلقائى عن سعادتهم وبهجتهم لسعادة الفرحان وبهجته. لايكفى أبدا أن تقبع الفرحة بداخلى ، فلا أراها فى عيون الأحباب ولا أسمعها فى كلماتهم المهنئة. حدث هذا بالفعل حين انهالت على المكالمات التليفونية من كل مكان فى مصر لى به صديق أو صديقة من زملائى الكتاب حتى لو لم نكن قد تقابلنا وجها لوجه من قبل. شعرت أن الدنيا كلها فرحة لأجلى. ملأت جميلة البيت بالورود واشترت"تورتة"كبيرة كتب عليها:"مبروك التقديرية ووسام الجمهورية"، والتقطت لى صورة مع حفيدى الجميل ياسين وهو ممسك بالوسام الذهبى الملون البراق. امتلأ حسابى على الفيس بوك بباقات الورد وعبارات التهنئة الجميلة حتى تجاوزت المائة فى اليوم الأول وحده، وكان من بينهم أشخاص لم يسبق لى أى اتصال بهم من قبل سواء فى الواقع أو على صفحات التواصل الاجتماعى.

أول تهنئة انتظرتها وتوقعتها من قلبى كانت من محمد..صديقى و نديمى ورفيقى الأول فى رحلتى الأدبية وفى معظم سفرياتى خارج مصر . انتظرت أن يحضر بنفسه الى بيتى الذى طالما أكل فيه معى وشرب – مثلما أكلت وشربت فى بيته – ليحضننى ويقبلنى ويقول لى من قلبه ألف مبروك ياسعيد. لم يحضر أو حتى يتصل تلفونيا وكذلك فعل ناصر الذى لاتصل درجة صداقتى به الى مابلغت صداقتى مع محمد من حميمية، لذلك فامتناعه عن تهنئتى لم يعذبنى أو يؤرقنى مثلما فعل امتناع محمد الذى أحبه حبا صادقا رغم عيوبه الظاهرة والباطنة وعلى رأسها الغيرة القاتلة من تفوقى ومكانتى الأدبية. وضعت نفسى مكانه فهو يكبرنى بثمانية أعوام ، لكنه لم يحصل على جائزة واحدة من الجوائز التى حصلت عليها. هو يطارد النقاد بكتبه المهداة وعزائمه وولائمه، وأنا يكتب عنى النقاد دون جهد من جانبى. التمست له العذر فى موقفه، لكنى خشيت أن أفقده كصديق عمر بسبب هذه الجائزة. اتصلت بكاتب آخر من أصدقائى وطلبت منه أن يتصل بمحمد ليخبره بنبأ الجائزة وكانه لم يسمع عنها ولم يقرأ فى الجرائد ولم يشاهد تفاصيلها على شاشة التلفزيون. طلبت منه أن يبلغنى برد فعل محمد. كان صديقى فى غاية من التعجب لموقف محمد الذى قال له انه علم بهذا النبأ ، وأضاف أنه يعانى من المرض ولايغادر الفراش. انتهزت هذه الفرصة لأكسر شوكة القطيعة المحتملة بيننا، فاتصلت به تليفونيا متجاهلا الأمر برمته متجنبا أى نبرة عتاب قد تبدو فى صوتى. سألته – متغابيا- عن سر اختفائه ، ممهدا له الطريق ليولول على صحته كيفما شاء، أو حتى ليدعى كذبا انه لم يعلم بفوزى فأصدقه مرغما. لكنه لم يكتف بالتباكى والولولة ، بل أحال الدنيا فى وجهى الى جحيم أسود حارق حين قال بنبرة تفيض بالألم والغضب :

- أنا خلاص تعبت وزهقت من الدنيا. ما نبيت فيه نصبح فيه. الواحد يموت أحسن!!

كانت رائحة الحقد تفوح من كلماته ، وكأن الحسرة على فوزى بالجائزة قد أفقدته صوابه فكشف بغباء شديد عن ثلاثية الكراهية الانسانية البشعة المتمثلة فى المهلكات الثلاث بعد أن سيطرت تماما على مشاعره وأفكاره.

بعد مرور عدة أسابيع تجاهلت فيها ناصر تماما، قررت ألا أتركه يسعد بهذا التجاهل. اتصلت بهاتفه فرحب بى بشدة وكأن شيئا لم يحدث فى الحياة. رحت أستدرجه فى الحديث حتى جاءت سيرة محمد فقلت له مدعيا الدهشة والتعجب:

- تصور يا ناصر ان محمد لم يهنئنى على الجائزة حتى اليوم
- مستحيل!!

يقولها المخادع بنبرة استنكارية كما لو كان قد غمرنى من قبل بالتهنئة والمحبة.

- هذا والله ما حدث
-
- ربما لم يعلم

قالها بصوت لايختلف كثيرا عن فحيح ثعبان سام، فهو يعلم يقينا أن كل أدباء مصر يحفظون عن ظهر قلب أسماء الفائزين بجوائز الدولة التى ينتظرونها كل عام على أمل الفوز بها.

لم تمض أيام قلائل على تلك المحادثة حتى جاءنى نبأ وفاة محمد. حقق له الرب رغبته بأن يموت بحسرته مفارقا الحياة التى كرهها لأنه لم يحصل على الجائزة وإنما حصل عليها صديقه اللدود سعيد صادق. أفسد موت صديقى المفاجىء فرحتى بالفوز.مشيت فى جنازته. جلست بجوار جثمانه بالمسجد قبل الصلاة عليه، وقرأت على روحه جزءا كاملا من القرآن. لم يغب موقف محمد عن بالى أبدا منذ موته فأشرد ذاهلا من طبيعة النفس الانسانية ،حتى تعثرت فى احدى نوبات شرودى بحجرة فى الطريق،فوقعت على وجهى وتحطمت أسنانى الأمامية كاملة. استبدلت بها أسنانا صناعية كلفتنى بضعة آلاف ، ومازالت تزعجنى حتى الآن لارتباطها الشرطى القوى بما تفعله المهلكات الثلاث بالانسان. رغم مرور وقت طويل فإن كلمات محمد السوداء الأخيرة لم تغب عن

خاطرى. رغم أن الزمن كفيل بمحو قسوتها ونسيان مفرداتها، الا أن ذاكرتى مازالت تأبى التنازل عن الاحتفاظ بتفاصيل ما حدث. الغريب فى الأمر أننى سامحت محمدا من قلبى على مشاعره البغيضة التى ختم بها حياته معى ومع نفسه. صرت أتذكره فى كل مناسبة أدبية أو ندوة ثقافية ، أو حتى حين أختلى بنفسى لأشرب البيرة فى غياب نديمى الرائع وصديقى الراحل محمد. أدركت أن الشراب بلا نديم لا مذاق له ولا قيمة ولا متعة على الاطلاق ، وعرفت أيضا أننى مازلت أحبه حتى اليوم رغم كل ما حدث.

****

يصيبنى نديم بفزع جهنمى من الناس والحياة ، وأحمد الله أن منحنى نعم الرضا والتسامح وحب الحياة. لقد أصيب نديم بعقدة الخوف من الفقر وظل يعانى منها حتى الآن رغم أنه أصبح مليونيرا ، والا لما تقاطرت من قلمه وقلبه كل تلك السموم التى أرقدته على فراش الموت، حيث لن تحزن عليه الحياة حين يفارقها ، لأنه لم يعرف كيف يعشقها.

****

● الزمـــــــن:
أخى كامل أحب فريدة لكنها تزوجت بغيره. أنا أحببت العديد من النساء لكنى تزوجت من جميلة.نديم يستبعد فكرة الحب تماما عن حياته لحين أن يحقق أهدافه الغامضة للحصول على الثروة والسلطة. لا أحد يستطيع أن يتنبأ كيف ستكون نهاية هذا المخلوق الغامض . أما قصص حبى فهى شديدة التنوع وتبدأ منذ صباى ، لكنها لا تنتهى رغم بلوغى سن الشيخوخة. اتضح لى أن الحب لا علاقة له بعمر الانسان على الاطلاق. عاصرت بنفسى قصة حب عظيمة بين صديق فى الثمانين وسيدة أحبها فى الخمسين.

بعد سنوات طويلة من انقطاع علاقتنا الغريبة هاتفتنى زهور تسأل عن أحوالى معبرة عن رغبتها فى لقائى. توفى زوجها وتزوجت ابنتها وسافر ابنها الى الخارج،وبقيت وحيدة تعانى الوحشة والاغتراب. عاد بى صوتها المبحوح الى ذلك اليوم البعيد الذى كنت فيه جالسا بجوارها وهى تقود عربتها بسرعة، بينما تنبعث من الراديو موسيقا صاخبة متناغمة تماما مع ايقاع الطيش الجامح الذى جمع بيننا آنذاك خارج نطاق الزمن. غير أنى كنت أتميز عنها بقدرتى على كبح جماح شهواتى فى بعض الأحيان، ولولا تلك القدرة لحلت بى كوارث عديدة. كانت ضحكاتها صارخة تتفجر بالفرحة وتفيض بسحر الشباب وحب الحياة. كنت أشاركها نفس المشاعر لكن بدرجة معينة من الحرص والحذر والتحفظ، فأنا دائما غير مستقر على حال، أعانى من صراع عصابى مزمن بين رغبة محمومة فى سكر البهجة، وأخرى فى صحو العقل وتيقظه.

قلت لنفسى ان هذه السيدة الطائشة الرائعة سوف تجهز حتما على البقية الباقية من عقلى لو طال زمن علاقتى بها. تساءلت وأنا أحسدها على عنفوان انطلاقها لماذا لاتكون الحياة بهذه العفوية والتلقائية. تذكرت أنها زوجة لأستاذ جامعى مرموق وأم لفتاة جميلة وأن هناك أعرافا دينية وانسانية واجتماعية تنتهك فى استخفاف غريب، وأنها تقود سيارتها فى طريق زلقة بفعل المطر وتقول لى وعيناها على كفى لا على الطريق:

- أحب يدك جدا
- أنظرى أمامك أولا ثم تحدثى بعد ذلك عن يدى كما تشائين

تتجاهل سخريتى وتقبل يدى بلهفة أثناء القيادة، وأدير وجهها برفق الى الأمام حتى لاينتهى اللقاء بكارثة. تورطت فجأة ودون إعداد فى تصريح صادق:

- انى أعشق جنونك الملهم

تصيح بفرحة صبيانية وقد تركت عجلة القيادة من يدها تماما:

- صحيح ياسعيد؟
- نعم يا زهور صحيح
- لا أكاد أصدق أنك تتخلى لحظة عن صرامة عقلك الذى يحيلك أحيانا الى عجوز فى الثمانين

حين لاحظت أنها انحرفت بالعربة فى اتجاه متعامد مع طريق الكورنيش مقتحمة شارع المعسكر الرومانى الأنيق، سألتها فى براءة:

- الى أين؟

أجابت بنفس البراءة:

- الى بيتى

رغم درايتى التامة بطيشها الا أننى شعرت بهزة خوف قوية تجتاح أعماقى وتزلزل كيانى:

- لم؟
- أنت تعرف ولا داعى لأن تتغابى علىّ
- لكنى لن أقدر

- لاتدّع الفضيلة وأنا أعلم الناس بتاريخك

قلت لها بصدق أخناتونى لايحتمل الشك:

- اننى أشتهيك بالفعل لكنى لا أستطيع أن أثق فى قدرتى على الفعل
- لكنك استطعت مع كثيرات غيرى ولا يمكنك الانكار

لم أعرف من أين أتت بهذه المعلومة المغلوطة، لكنى قلت لها:

- معك لن أستطيع
- هل لى أن أعرف السبب فى تمسكك المفاجيء بالفضيلة؟
- لأن ساقى لن تستطيعا حمل جسدى حتى أصعد سلم منزلك وأقتحم غرفة زوجك المسافر وأنام على فراشه وأرتكب الزنا مع زوجته.

ضحكت بعصبية وهى تربت فى سخرية على صدرى كما لو كانت تلتمس البركة من أحد أولياء الله:

- الله الله ياسيدنا الشيخ..بركاتك يامولانا
- اسخرى كما شئت لكنى لن أذهب معك
- الحكاية كلها انك انسان جبان
- سامحك الله
- لاتتحدث عن الله فأنت لاتقل عنى سفالة. أنت لا تخافه وانما تخاف زوجتك

أوقفت العربة وانهارت باكية ، ثم اندفعت تقبلنى على جبينى وكتفى ورقبتى. قالت لى:

- أنا أشعر ان الله ينتقم منى بك ،فأنا أذللت رجالا كثيرين وتسليت بهم دون أن أدع أحدهم يحلم حتى بمصافحتى.

****

اتفقنا على اللقاء بإحدى الحدائق وجلست بانتظارها متشوقا الى مشاهدة فعل الزمن على جمالها الهندى الحارق الذى حرمت من رؤيته لأكثر من ربع قرن.

لمحت سيدة بدينة تتجاوز الخمسين ، تسير فى ثبات متكئة بذراعيها الى عكازين معدنيين. شعرت نحوها بشفقة شديدة وتمنيت لو ساعدتها على تخطى الرصيف الفاصل بين الحديقة والممر، لكنها كانت تتعامل مع عجزها بثقة وكبرياء وكأنها قد تجاوزته ولم تعد تشعر به على الاطلاق. الأمر المفاجيء أنها كانت تتوجه فى اعتداد نحو مائدتى وهى تنظر الى بابتسامة عفوية جميلة وكأن كل منا يعرف الآخر تمام المعرفة. توقفت أمامى صائحة فى دهشة طفولية:

- سعيـــــد؟!!!

تجمدت واقفا وصحت فى دهشة انا الآخر:

- زهـــور؟!!

ارتمت على صدرى وراحت تمطرنى بالقبلات فى وجنتى يمينا ويسارا بشوق عارم وكأننا وحدنا فى هذا الكون.

- اوحشتنى ياحبيبى

تطلب الموقف منى عبقرية فذة فى القدرة على إخفاء صدمتى لتحول الشباب الى كهولة والصحة الى سقم والحياة الى موت. تظاهرت بأننى أمام مشهد عادى رغم أننى لم أعرفها فى البداية، وأنا أتفحص سمنتها الملحوظة وعكازيها المعدنيين والشعيرات البيضاء على خصلة الشعر النائمة على جبينها الذى أصبح غارقا تحت خطوط العمر البارزة فى تشابكات متداخلة.

حدثتنى عن مشاكل عويصة فى عمودها الفقرى انتهت بعملية جراحية فاشلة أدت الى تقوس ظهرها واللجوء الى العكازين ، وعن سرطان خبيث عاث فى جسدها ، كلما عولجت منه عاودها من جديد ، كما حدثتنى عن معاناتها من ضغط الدم المرتفع والسكرى العالى والمرارة والكلى والكبد!!.

- أنت اذن بسبعة أرواح اذ نصرك الله على هذا الكوكتيل الرائع من أبشع الأمراض
- انتصارى مبعثه تسليمى بالقضاء والقدر ، فضلا عن عشقى الشديد للحياة وتمسكى بها

حكيت لها أنا الآخر عن سلسلة الأمراض المتعاقبة التى حلت بى ابتداء من جلطة القلب ، مرورا بسرطان البروستاتا، وانتهاء بنزيف المخ. أسهبت أيضا فى ذكر الهزائم التى منيت بها فى سعيى الى الرزق وتحقيق الذات. قلت لها ان الخير والشر فى هذه الحياة ابتلاء، فلا يجوز لنا الغضب من أقدارنا ، مثلما لاتجوز لنا الفرحة بها. استمعت الى باهتمام ، لكنها لم تشعر بالراحة الحقيقية الا بعد ان استدرجتنى الى الحديث عن النساء. لم تصدق أبدا أن مغامراتى النسائية كانت محدودة. أقسمت لها اننى لم أنزلق ولو مرة واحدة الى ارتكاب الزنا رغم اندفاعى اليه فى بعض الأحيان، وكأن الله قد شاء أن يعصمنى من الزلل رغم أنفى. شردت قليلا ثم قالت:

- ألا تلاحظ ان سيرتينا متشابهتان الى حد كبير؟

****

- ٧ -

هأنا نزيل غرفة فاخرة بالمستشفى العالمى الشهير منذ عدة أشهر. ذروة العبث!!. ماذا أفدت من كل ما حصلت عليه من عز ومجد وجاه وقد أصبحت صريع مرض لايرحم ولانجاة منه. لو كنت أعلم أن هذه ستكون نهايتى لبقيت فى حارة الحدينى برأس التين.غارق أنا فى بحر من الندم على التضحيات التى بذلتها والتنازلات التى قدمتها لأجل أن أصل الى ماوصلت اليه. عشرات الأطباء والممرضات فى خدمتى لكنى لا أعرف منهم أحدا.كلهم أغراب يتقاضون أجورهم منى.سأموت وأدفن على أرضهم دون أن يشعر بى أحد. لم أستفد شيئا مما جمعته وكدسته من أموال وعقارات. لم يستفد مخلوق آخر غيرى منه أيضا. وجودى أصبح كعدمى تماما، فكأننى لم أوجد مادام هذا الوجود لم يحقق شيئا لأحد. غربة وعزلة ووحشة وأنانية وجشع ونهم وخوف وصراع وقلق وكدح ، والحصيلة فراش على مستشفى انتظارا للموت.

أعود الى الأحفاد ربما كنت ذا فائدة للبعض منهم قبل أن أموت، بل ربما تكون هى الفائدة الوحيدة التى أقدمها فى حياتى لأحد ممن يبحثون عن القوة شريطة أن تعود عليه بالسعادة والرضا ، وأن يكون على استعداد تام لدفع الضريبة المستحقة عما يبتغى من رفعة وارتقاء.

علمهم يا سعيد أن يعطوا بحساب - لاعن جود وكرم- قبل أن يفكروا فى الأخذ ، لأن العطاء يجعل من الصعب على الناس أن يلاحظوا مايؤخذ منهم. عادة مايؤدى انتزاع أى شىء من الناس الى ردود فعل عنيفة ضد من يأخذ منهم مهما كانت قوته، ومن الخطر طلب أى شىء مباشرة من أى شخص مهما كان الأسلوب مهذبا ، لأن من يطلب يكشف نقطة ضعفه أمام من يطلب منه.

العبوا يا أحفادى دائما على مصالح الناس لاعلى تعاطفهم معكم أو اشفاقهم عليكم. ان معظم الناس لايجيدون فن طلب الدعم او المساعدة. أغلبهم يقع فى مصيدة الاهتمام بذاته والتركيز على احتياجاته الخاصة.. وأول خطأ يأتى دائما من افتراض أن من تطلب منه الدعم يمكن أن يساعدك بدافع من البر أو حب مساعدة الآخرين. لذا لابد أن تدرب نفسك- أيها الحفيد النابه النابغ المتطلع الى الذرى – فى كل خطوة تخطوها نحو القوة والسلطة والثروة على أن تفكر دائما فى الوسيلة التى ستنفذ بها الى عقل من أمامك ومصالحه واحتياجاته ، مزيحا من الصورة كل مصالحك التى تنشدها. حينئذ لن يرى أمامه الا مايريده هو ليساعدك فى النهاية على تحقيق ما تريد، وهو يتصور أنه يحقق ما يريده هو.لغل

يجب أن تتعامل مع المتنافسين كصديق وتعمل فى الوقت ذاته كجاسوس. فى صراعات السلطة يجب أن يكون أحد أهم أهدافك هو الوصول الى درجة من التحكم فى الأحداث التى ستحدث فى المستقبل. وجزء من صعوبة هذا الأمر هو أن الناس لايخبرون بعضهم صراحة بما يستعدون لفعله. لذا فإن أول ما تحتاج اليه هو وجه ترتسم عليه البراءة دائما. اضافة الى لسان يتحدث طيلة الوقت بود واخلاص. اظهر نفسك دائما خارج لعبة التجسس التى يمارسها الكل ضد الكل حتى تضمن ان يتحدث اليك الكل بما يعرفون.

ان الوسيلة الوحيدة للحصول على السلام مع خصمك هى اختفائه تماما من عالمك. اسحق خصمك تماما. واعلم أن كل من يسير فى طريق القوة يخلق لنفسه أعداء طيلة الوقت. ومن السخف أن يتصور انه يمكن أن يحصل على دعم أواخلاص هؤلاء الأعداء فى لحظة ما ، لأن العدو سيظل عدوا طالما أنت فى السلطة.

انهم يشبهون القائد البارع بالزلزال. أى أنه لايمكن توقع متى يهاجم ولا ماذا يدمر. يظل الناس فى خوف دائم من توابعه بعد أن ينتهى. كثير من الناس لايدركون مدى أهمية أن تكون تصرفاتهم غير متوقعة ، ويفضلون ان تكون كل أفعالهم واضحة بالنسبة للآخرين.. لكن كل من امتلك القوة عبر التاريخ أدرك ضرورة أن يكون دائما صاحب المبادرة . يهز العالم الثابت من حوله حتى يخاف الناس منه. ولابد أن يهاجم دائما دون انذار حتى يرتجف الناس فور شعورهم بأنه ينوى أن يهاجم دون أن يعرفوا كيف ولا متى.

لاتتحرك الا على أساس المعلومات الدقيقة وحدها عن المتنافسن والخصوم وخذ وقتك فى دراستهم والتجسس عليهم ، ولاتثق بالمظاهر ولا تنخدع بها. تعامل مع الجميع على أنهم تماسيح تجيد التظاهر بما ليس فيها. القاعدة الأساسية هنا هى أن الناس هم أى شىء آخر غير ما يبدون عليه. إختر أعداءك وضحاياك بحرص وإياك أن تستفز من لاتقدر عليه. ان أهم مواهب الباحث عن السلطة والثروة والقوة هى القدرة على فرز الناس وفهم معادنهم ، والا أصبح أشبه بالأعمى الذى يتخبط فى الظلام ، ويعتمد على الحظ حتى لايصطدم بشىء.

من يريد القوة لايلتزم بأى شىء تجاه أى شخص بل يلتزم بكل شىء تجاه نفسه فقط. التقيت بمحض مصادفة بشاب من جيران حيّنا برأس التين يسأل عن عنوان شركة معينة. صرخ من الفرحة عندما اكتشف أننى ابن نفس الحارة التى نشأنا فيها معا.فى دقائق قليلة لخص لى مأساته فى أمريكا وسارع بطلب النجدة وهو على يقين من تقديمها له. فى لمح البصر تخلصت منه كما لو هششت ذبابة حامت حول وجهى. أنا أكره الفشل والفاشلين ، ولا أحب أن أكون فى متناول أيديهم.من يبقى بعيدا عن متناول الأيدى هو الذى

يتهافت الناس عليه لأنهم يشعرون بقوته ويرغبون فـى ضـمه الـيهم. لكن لا شأن لك بذلك كله.ان الانضمام الى أى جانب سيـضعف حتمـا من قوتك.

تعلم أن تخفى ذكاءك ولا تظهره الا فى حالة واحدة: أن تكـون قـد بلغت بالفعل أعلى مراتب القوة. تظاهر بأنك أغبى مما أنت عليـه. ان أكثر الناس ذكاء هم أولئك الذين يصورون أنفسهم علـى انهـم أغبـى الأغبياء. تذكر أن الناس قد يقبلون منك أى شىء الا أن تشعرهم أنك أكثر ذكاء منهم ، والمهم ألا تهـين ذكـاء أى أنـسان أمامـك مهمـا كـان غبيا.

****

● عالم مبهر جديد:

صافية كالبللور كانت مياه البحر ، ويحتمى بيتنا العتيق المكسو لبلابا بنهاية حارتنا المواجهة للشاطىء. النافذة مفتوحة تبعث بنسمات فلول الربيع المنسحب. عبق السكينة يغمر أرجاء البيت بكل ما يحيط به من عالم خارجى وكل ما يحويه من مخلوقات لاتعيش الا على الفطرة.

نادى عم ابراهيم بصوت منغم فأفاض فى وصف فوله وبليلته. أدلت الحاجة تحية بسلتها وهى ممسكة بحبلها القصير. تناول الرجل القرشين وأمسك بالطبق ، ثم أعاده ممتلئا لحافته. التفت الأسرة حول الطبق فأجهزت عليه. قالت لى أمى تداعبنى:

- شد حيلك..ربنا معك يا آخر العنقود ياحلو

كنت هائما فى ملكوت لايدرك سره سواى. وليد حارة الحدينى برأس التين سيقتحم اليوم ناديا اجتماعيا عريقا لم يعرف أحد من أفراد أسرته باكملها كيفية الوصول الى بابه. اليوم تجرى مسابقة بطولة الاسكندرية فى سباحة المسافات القصيرة، وثمة خيالات عجيبة تتراقص فى مخيلتى. غرفة مكتب فاخرة. مبنى ادارة الجوازات والهجرة. حافظة نقودى شبه الخاوية. شوارع أوروبا الساحرة. حشد كبير بميدان المنشية أخطب فيه كما كان يفعل جمال عبد الناصر. الحاجة تحية تتوضأ لصلاة الفجر والدعاء اليومى على أشرار العدوان الثلاثى بأسمائهم المحددة ايدن وبينو وجى موليه.

رآنى يوما رجل مهم فى المدينة بينما كنت أسبح فى البحر بمهارة ، فألحقنى بالنادى الرياضى الشعبى الذى يرأسه لأتدرب فيه على الأصول الصحيحة للسباحة بالمجان. فزت على كل أقرانى فى مسابقات التصفية بعد تدريب قليل. الرجل المهم كان سعيدا بصدق تنبؤه.

اليوم حان وقت الامتحان..تذكرت يوم بطولة المدارس للسباحة تحت سن الرابعة عشر، حين أعطانى الاستاذ شنوانى مشرف الكشافة قرشين- أجرة المواصلات - ووصف لى كيف أصل الى حوض الليتوريا بكلية الزراعة لأمثل مدرسة رأس التين الثانوية فى هذه البطولة. فى اليوم الأول فزت ببطولة سباحة الباترفلاى أو الفراشة وحصلت على ميدالية ذهبية مازلت محتفظا بها حتى اليوم. فى اليوم التالى ماتت زوجة كامل بعد أن وضعت وليدها الوحيد نادر. كنت حزينا مهموما فانخفض مستوى أدائى وكان ترتيبى الثانى فحصلت على الميدالية الفضية.

اليوم سأمثل نادى السكة الحديد الرياضى فى بطولة المنطقة الشمالية. قال لى الرجل المهم:

- لابد أن ترفع رأس ناديك وحارتك اليوم

لفت لى الحاجة تحية رغيفا محشوا بالحلبة المعقودة فى ورقة. ربتت على كتفى قائلة:

- كله قبل السباق. سيعطيك قوة كبيرة

سلمتنى أمى للرجل المهم الذى اصطحبنى الى محطة الرمل وركبت معه الترام ذا الدورين لأول مرة. مبهور أنا بسنواتى الأربع عشرة، مفتون باهتمام الرجل المهم بى. لابد أن بشائر رجولتى المبكرة- كما أحس بها – ذات علاقة بهذا الاهتمام، فعضلاتى قد برزت وصوتى قد اخشوشن، وفتيات الحى صرن يرمقننى بإعجاب وأنا أشق أمواج البحر بثقة وشجاعة. قالت له تحية:

- خل بالك مع الولد. انه أذكى أبنائى
- اطمئنى واسعدى . ابنك سيكون بطلا

أمنت على قوله بهزة واثقة من رأسها، مخفية بمهارة قلقها الداخلى على شرودى الدائم بسبب وبغير سبب.

فى الطريق كنت أقارن بين بيتنا العتيق والبيوت الفاخرة التى يمر ترام الرمل بمحاذاتها يمينا ويسارا. الطمأنينة غير المبررة للمستقبل تسكن نظراتى المبهورة بما ترى. لم تسفر المقارنة عن مشاعر حزن أو غيرة أو حسد، وإنما عن أمل راسخ واثق فى مستقبل يتيح لى السكن فى بيت مثل هذه البيوت. قلت لنفسى إن الأمل وحده لايكفى ياولد. لابد من فعل أشياء عديدة- ربما لن أدركها الآن- حتى يتحقق هذا الأمل.

أفقت على هزة من يد الرجل المهم تشير الىّ بالاستعداد للنزول. دخل بى الى نادى سبورتنج. عالم عجيب بألوانه الرائعة. مبانيه الفاخرة. حدائقه الشاسعة. فتيان يمرحون مع فتيات ببساطة أثارت ذهولى، فمثل هذا محظور عندنا فى الحارة. ملابس استحمام الفتيات تكشف عن أكثر من ثلثى لحمهن وكأن الأمر طبيعى لاغرابة فيه.

حضر مندوبو الأندية المشاركة فى البطولة. خلعت ملابسى النظيفة المتواضعة فى غرفة فاخرة يقف عليها حارس فى زى ناصع البياض. قيل لى انه لابد أن أستحم تحت "الدوش" قبل النزول الى الحوض، ففعلت.

ماهذا العالم؟!..

انه يبعث فى نفسى شيئا من الخوف والشعور بالضآلة. يستحيل أن أفوز على أقرانى فى هذا المكان بالذات. لو أقيم السباق فى البحر لاكتسحتهم جميعا دونما حاجة الى استنفار عزيمتى وثقتى بنفسى وبمهارتى. ما تراه عيناى الآن يؤكد أننى أعيش وأسرتى وأهل حارتى فى عالم آخر، وربما كوكب آخر.حتى لون مياه الحوض الفائق الزرقة، الذى لم أر فى صفائه ونقائه وشفافيته من قبل ، يؤكد لى هذا المعنى. كنت مضطرا الى استلهام شىء من الطمانينة وابتعاث المزيد من الثقة ، فتذكرت دعوات أمى وتشجيع الرجل المهم ونظرات اعجاب فتيات الحى. تسللت بحرص الى غرفة الملابس والتهمت رغيف الحاجة ثم عدت الى موقع المسابقة. كان علىّ أن انتظر دورى حتى ينادوا على اسم النادى الذى أمثله. لو فاز النادى بالكأس أفوز أنا بميدالية ذهبية ، ويصرف لى النادى مكافاة مالية، ثم تقام حفلة ابتهاجا بالفوز ، يمكن لأسرتى حضورها.

اتجهت بثبات الى الحوض المواجه لحوض المسابقة. جلست على احدى الخانات التى يقفز المتسابقون منها الى الحوض ويسمونها الحارة. الحوض مقسم الى حارات ست لستة متسابقين، تفصل بين حاراتهم حبال من الفلين الملون تصل بين بداية الحوض ونهايته.

فى نفس اللحظة وصلت سابحة الى نهاية الحوض. فوجئت بها تمد يدها الىّ بأنفاس لاهثة وأنا جالس على ناصية الحارة. سحبت يدها يتأثير منوم مغناطيسى جبار، باذلا أقصى جهدى كى أحافظ على فمى مغلقا لشدة ارتباكى. صدت الحائط بقدميها تمهيدا للصعود ، فلم أستطع أن أبعد عينى عن فخذيها البرونزيتين أو القطعة السفلى من "المايوه". مالت منحنية فى اتجاهى حتى تستقر على ناصية الحارة، فلم أخجل من تركيز بصرى على القطعة العليا من "المايوه"، وعلى ما انحسرت عنه من بياض مكتنز مثير. ابتسمت لى فى هدوء وجلست بجوارى وكأنها تعرفنى منذ زمن بعيد. لكنها لم تسمع دقات قلبى الصاخبة حين سألتنى:

- هل أنت عضو جديد بالنادى؟
- لا
- اذن فأنت مشترك فى السباق
- نعم

انصرفت على الفور رغم شغفى لبدء حوار معها. استكملت مشاهدتى بتركيز شديد على خلفية القطعة السفلى ودراسة اهتزازاتها القاتلة. حينئذ أدركت اننى لا أخاف هذا العالم – كما توهمت من قبل - وأننى فائز لا جدال ببطولة السباق، وأن الأمل المجنون الذى لاح لى بين البيوت الأنيقة ليس من المستحيل أن يتحقق.

بمجرد سماع طلقة بدء السباق انطلقت كقذيفة صاروخية مدفوعة بجهد الكترونى خارق. كانت يداى أول يدين لامستا حائط نهاية الحوض. حينئذ كشفت خريطة عالمى عن خزانة بنك دولى مكدسة بسبائك من الذهب.

العديد من الأيدى تمتد الى لتتلقفنى الى خارج الحوض. كاميرات الصحف المحلية والقاهرية تبرق فى وجهى. الرجل المهم يحتضننى بملابسه الأنيقة ويكاد يبكى من شدة الفرحة. يد أخرى تنتزعنى برفق من حضن الرجل المهم وتجفف لى جسدى. يد أخرى تقرب لى مقعدا لأجلس عليه..

ما هذا الذى يجرى فى هذه الدنيا الغريبة عنى؟ انه شىء رائع حقا. انه الفوز والبطولة والنجاح الساحق فى اقتحام الحياة والكشف عن أسرارها الضاربة فى أعماق الزمن. من بين الأيادى المصافحة للتهنئة اكتشفت يدا أعرفها.هى تماما. لكن ابتسامتها هذه المرة تشكل اعترافا صارخا بوجودى ورغبة قوية فى استكمال الحوار معى.اقتربت منى ، ووسط ضجيج التهنئة قبلتنى!!..يا الهى.هؤلاء الناس واثقون من أنفسهم تماما ولا يعطون بالا على الاطلاق للآخرين.أغلب ظنى أنهم لو كانوا فقراء ما تمتعوا اطلاقا بهذه الجرأة والحرية التامة فى التعبير عن مشاعرهم كما يشاءون.

كان علىّ أن أستحم من جديد قبل ارتداء ملابسى. اكتشفت هذه المرة أن هناك صنابير للمياه الباردة وأخرى للساخنة. عالم رائع يستحق الدراسة والبحث والاهتمام. من التخلف أن يتواجد مثل هذا العالم دون أن أدرى عنه شيئا. طال تنقلى بين صنابير المياه الباردة والساخنة ومياه الأدشاش. ما أروع مبنى الجامعة وقبلة الفتاة الحلم ومجانية التعليم. بعد قليل سأسمع اسمى فى الميكروفون وأذهب لتسلم الكأس والميدالية. انها لحظة الانتصار التى تفجر شرارة بدء اكتشاف العالم الجديد. لكن المياه الدافئة مغرية وسيحوى الظرف المغلق مكافأة لاتقل عن عشرين جنيها. تصفيق حاد. الفارق شاسع بين استخدام وابور الغاز والحلة والكوز النحاسى ، واستخدام الدوش الساخن. ليت صاحبة الجسد البرونزى والشعر الكستنائى والقبلة الخاطفة تشاركنى لذة الاستحمام -منفردين- فى هذا المكان الجميل. ليتها تشهد لحظة تسلمى الكأس والميدالية. ليتنى أواصل معها الحوار الذى لم يكد يبدأ حتى انتهى.

لم أشأ أن أحكى لأمى عما رأيت وعما حدث رأفة بقناعتها الراسخة بعالم الحارة والبيت المحاط باللبلاب، فالمسافة بينه وبين عالمى الجديد ساحقة فى البعد، ولا معنى عندها لقياسها أو محاولة اجتيازها. أما حين قفزت من ناصية حارتى ولحظة ارتطام جسدى القوى بصفحة ماء الحوض، فإننى كنت قد بدأت القياس والاجتياز. عندما قلت لأمى اننى أريد أن أصبح من كبار رجال الأدب أو الفكر ، ربتت على صدرى بحنان وقالت لى:

- يابنى نحن على قد حالنا
- هذا لايمنع يا أمى أن أكون كبيرا فى شىء ما
- انى أحترم طموحك لكنى أخشى عليك منه

أمام منصة الاحتفال نودى على اسمى عدة مرات. علمت أن الرجل المهم قد استشاط غضبا لغيابى. أين الولد؟.ابحثوا عنه فى الحمام. فاز النادى الشعبى بالرقم القياسى الأول الذى ضربه الولد الشيطان. اضطر الرجل بعد استلامه كأس النادى أن يتسلم أيضا ميداليتى الذهبية نيابة عنى.

جئت مهرولا امام المنصة. امتص الرجل المهم غضبه واغتصب ابتسامة. صافحنى وسلمنى الميدالية واستدعى مصورا صحافيا التقط لى معه صورة وانا ممسك بالكأس. قال الرجل:

- انتظرنى أمام عربتى لنتوجه الى النادى ومعنا الكأس

أفلتت منى لحظة الانتصار. نظرت الى ناصية الحارة التى قفزت منها ورأيت الحارة التى أتيت منها وفى نفس اللحظة رأيت مطار القاهرة الدولى. بحثت عن الفتاة فلم أجدها. استعرضت العديد من الأجساد شبه العارية. المناضد الملونة وعليها المشروبات الساخنة والمثلجة. الخدم فى زيهم الأصفر والأبيض والأخضر. تجمدت مشاعرى عند لحظة صفرية لاهى الحزن ولا هى الفرحة. قرب باب الخروج لمحت الفتاة مرتدية بنطلونا من الجينز تسير مع فتى انيق يضع فى فمه سيجارة. أمام العربة قال لى الرجل المهم بسعادة بالغة:

- اركب يابطـــل

تقدمت نحو العربة فى خطوة واثقة.

****

● المجنون فى الزنزانة:

كنت أعد رسالة الدكتوراه تحت اشراف الاستاذ الدكتور بكر رئيس قسم الهندسة الكيمائية. دفعتنى ميولى الفنية الى اختيار موضوع متعلق بالخزف والألوان التى يطلى بها. كان موضوع البحث هو صناعة الطلاءات الزجاجية والمينات باستخدام خامات مصرية. الدكتور بكر صعيدى قناوى متخصص فى علم الحراريات. أنجب ابنتين ولم ينجب ولدا. أحبنى بشدة واعتبرنى تعويضا من الله فى حياته عن هذا الابن. كثيرا ما كان ينصحنى فى أمور الدنيا بإخلاص أبوى أكثر مما كان ينصحنى ويرشدنى فى تفاصيل البحث. فجأة أصيب بذهول وراح يهمس فى ريبة لبعض زملاء دفعتى:

- سعيد اتجنن!!

عرفت منه بعد ذلك أنه رأى صورتى بإحدى الجرائد وتحتها اسمى وبجوارها عنوان لقصة قصيرة من تأليفى، حين راح يردد على مسامع الجميع:

- لاحول ولا قوة الا بالله..سعيد أدركته حرفة الأدب..سيضيع مستقبله بيده

أحدث كل هذا الضجيج قبل أن يواجهنى مباشرة:

- ما هذا الكلام الفارغ الذى تكتبه يابنى؟
- أنت تعلم يادكتور أننى من عشاق الأدب
- أن تعشق الأدب شىء وأن تكتبه شىء آخر
- وما يضيرنى أن أتخذ منه هواية الى جانب عملى؟
- يجب أن تعلم أن الأدب فى بلادنا والفقر صنوان متلازمان. سيعطلك عن الدراسة والعمل ولن تجنى من ورائه شيئا ذا قيمة

لم أعبأ بنصيحته، بل كنت ناقما على معاداته للأدب، وكنت أرى فى ذلك نقيصة كبرى فى حق أستاذ جامعى مستنير. المهم اننى كلما انهمكت فى الكتابة والنشر ابتعدت عن المعامل وانقطعت عن البحث ، مثلما توقع الدكتور بكر. لكنى كنت أعود ثانية خشية أن تضيع منى الفرصة ، خاصة وأننى ألقى من الدكتور بكر كل المساعدة والاهتمام، الأمر الذى لم يكن متاحا لنظرائى من الباحثين.

حذرنى أحد المعيدين بالقسم من الاندماج فى عالم الأدب والاستسلام للذة الشهرة والذيوع فى الجرائد والمجلات والاذاعة والتلفزيون. نصحنى بانتهاز فرصة العمر فالدكتور بكر لن يعيش الى الأبد.

فى ذلك الوقت التقيت بالمهندس محمد النجار صاحب مصنع البويات الحرارية بالسويس. ينتج المصنع طلاء حراريا مصنوعا من البتيومين أو القار ، لست أدرى من أين حصل على تركيبته الكيمائية رغم أنه مهندس كهربائى. تستخدم هذه البوية السوداء فى طلاء القزانات والمراجل البخارية التى تصل درجة حرارتها بالداخل الى مايقرب من ألف درجة مئوية ، وذلك بغرض عدم تسريب الحرارة من جسم المرجل الى الجو. أطلعنى محمد النجار على عينة مستوردة من نفس الطلاء، لكنها كانت فضية اللون لامعة جذابة المظهر. كان سعرها ضعف سعر الطلاء الأسود البتيومينى رغم أن التركيبة الأساسية واحدة. قال لى اننى لو أجريت بعض التجارب والمحاولات على هذا الطلاء لتوصلت الى طريقة تجعله فضيا فى لون العينة المستوردة. حفزنى على المحاولة بأن وعدنى – فى حالة نجاحى – أن ينتج الصنف الجديد وأن أناصفه فرق الأرباح بين سعرى المنتجين. لم يكن هناك مايدعو الى سوء الظن بوعده فهو الشقيق الأكبر لصديق طفولتى عادل. لم يكن عندى بديل لإجراء تجاربى عن معمل الدكتور بكر الذى أجرى فيه أبحاثى للحصول على الدكتوراه. أخفيت جراكن البوية السوداء فى أحد دواليب المعمل البعيدة وأغلقته بحيث يصعب على أحد التوصل الى مكانها. بدأت أجرب اضافة مواد عضوية وغير عضوية الى الطلاء بصفة يومية فى الأوقات التى لايكون فيها الدكتور بكر متواجدا. كان الوقت يمتد بى دون أن أدرى فأستمر فى

تجاربى لما بعد الواحدة صباحا فى بعض الأحيان. لفت ذلك نظر كونستابل الحرس الجامعى. زارنى فى المعمل ذات مساء مدعيا تشجيعى على مواصلة العمل رغم تصريحه الواضح بأنه محظور على طلبة الأبحاث البقاء بمعاملهم لما بعد منتصف الليل. كانت عيناه الجاحظتان ترمقان فلاسكة زجاجية لها فتحة جانبية مثبت بها خرطوم، وفوهتها مسدودة بفلين مستورد به ثقبين. قال وهو يتحسسها بشغف شديد وكأنه عثر على كنز:

- أريد هذه الفلاسكة

على الفور فهمت مقصده، فهو يريد استخدامها كجوزة ليدخن بها الحشيش الواضح فى عينيه البارزتين من محجريهما، وصوته الأجش المحشرج وسعاله المتكرر. قلت له على الفور ودون تفكير:

- خذها

كان هدفى إبعاده عنى حتى يتركنى أسهر أو حتى أبيت فى المعمل كما أشاء. دفعت المقابل رغم أنه ليس من جيبى. كان انقضاضه عليها بمثابة تصريح لى بالسهر والمبيت دون علم أحد، فهنيئا له بجوزة معملية يدخن بها الحشيش تدخينا علميا راقيا يجمع بين الأصالة والمعاصرة. بعد قليل لاحظت أنه ينظر الى الرف العلوى فى مواجهة باب المعمل متأملا اطارا خشبيا مستطيلا رسبت عليه بللورات من مادة كيمائية رمادية اللون منقوشة على شكل حروف يقول منطوقها:"ماشاء الله توكلت على الله". قال بنفس حشرجة الصوت والنظرات الزائغة ولعاب الطمع السائل من فمه:

- انها تحفة

مد يده وراح يتحسسها بشغف. قلت له بنفس بساطتى حين طمع فى الآنية الزجاجية:

- خذهـــا

غادر المعمل حاملا الهديتين ، وهو على اقتناع تام كرجل بوليس ، بأحقيته فى الحصول عليهما نظير سماحه لى بمخالفة القانون.

فى اليوم التالى لم يسألنى الدكتور بكر عن الفلاسك إذ كنت قد وضعت مكانها واحدة أخرى مماثلة لها، لكنه سألنى فى دهشة عن اختفاء الاطار الخشبى المستطيل. قلت له ببساطة:

- أعطيتها للكونستابل
- لماذا؟!
- لأنه طلبها منى
- وهل تظن انه معمل" أبوك" حتى تعطيها له بهذه السهولة؟

الدكتور بكر رجل طيب. اعتبر تصرفى هذا دربا من الجنون الذى يحلو له دائما أن يصفنى به. واصلت تجاربى السرية حتى نجحت فى الحصول على عينة مماثلة للطلاء المستورد. رحت أرقص وحدى فى المعمل بينما كان الفجر يؤذن. فى الصباح طرت فرحا الى المهندس محمد بركات متوقعا أن يأخذنى بالأحضان لشدة فرحته بالتوصل الى ما كنا نحلم به. فوجئت بنظراته تسحقنى وتستهين بشأنى وتستكثر على التوصل الى هذا الابتكار، وعلى ملكيته التى ستؤدى طبقا للاتفاق الى مناصفته فرق الأرباح بين السعرين. سألنى بنعومة مدروسة وقد كشفت لى فطرتى مايضمره لى من سوء:

- ماهى المواد التى أضفتها؟

يالوقاحتك يارجل!!

- وبأى نسب أضفتها؟

واثق هو لدرجة اليقين من سذاجتى إذ يتوقع أن أجيبه على الفور. ذكرت له أسماء كيماويات وهمية لم أضفها ولكن من بينها مادة واحدة حقيقية هى مسحوق الألومنيوم. عندما سمع هذا الاسم بدا عليه الامتعاض وقال بوجه مصفر:

- لن نستطيع الحصول على هذه المادة فهى لاتنتج الا فى المصانع الحربية وهى خاضعة للرقابة العسكرية.

امتزج امتعاضه بشىء من الشعور بالسعادة لأننى لن أستطيع مشاركته الربح، وكأنه يعاقبنى على اجتهادى ونجاحى باستحالة الحصول على مسحوق الألومنيوم من السوق بسهولة وبكميات كبيرة تغطى انتاج المصنع. نظراته الصفراء تستنكر بشدة أن تتساوى رأسى برأسه حين نتقاسم الربح، فمن أكون أنا فى نظر الرأسمالى الثرى صاحب المصنع الكبير، وكأن لسان حاله يقول:

- بركة يا جامع أن جاءت منك

ورغم أنه الخاسر الحقيقى حال عدم العثور على هذه المادة ، إلا انه كان سعيدا لأننى لن أكسب من ورائه شيئا..يا الهى!!..ماهذا الكم الرهيب من الحقد الأسود غير المبرر من رجل قوى غنى ناضج تجاه شاب فى مقتبل العمر مترع قلبه بالنوايا الحسنة تجاه الدنيا؟!..

كان درسا قاسيا تعلمت منه ألا أستسلم مرة أخرى لرومانسيتى وحسن ظنى بالناس والحياة. لكنى لم أيأس.طلبت من زميل دفعتى سمير مرقص أن يفكر فى وسيلة للحصول على كمية من هذا المسحوق الذى ينتجه المصنع الذى يعمل به فى الهايكستيب على أن نبيعه ونتقاسم الربح، ومادامت الصناعة قد خذلتنى فلأجرب التجارة. رغم ندرة هذا المنتج بالسوق إلا أنه مخزن بمصانع الهايكستيب كبضاعة راكدة كما فهمت من سمير. يا سبحان الله!..ذهبت مع سمير والتقينا بمدير المصنع حيث أقنعناه – كذبا- أننا لن نتاجر فى هذه المادة وإنما سنستخدمها لأغراض بحثية.

كنت قد التقيت بالقطط سمسار الكيماويات العجوز الذى عرفته عن طريق أحد زملائى بالشركة. أكد لى على اختفاء مسحوق الالومنيوم من السوق وأن الاتجار فيها سيكون مربحا للغاية. قلت له هامسا بثقة مصطنعة:

- عندى صنف ممتاز من هذا المسحوق

فتح فمه على اتساعه دهشة ونظر الى بعينى محمد النجار وقال متوجسا:

- غير معقول
- لماذا؟
- كيف استطعت الحصول عليها؟

فى تلك اللحظة أدركت أنه قد آن أوان ارتباطى الرسمى بجميلة.

- سر المهنة يامعلم
- مصرى أم مستورد؟

للمغامرة مقتضياتها. أكمل مسيرتك ولا تتراجع ، فمن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب.

- مستورد طبعا
- عجيبة!!

جاءتنا أنباء مؤكدة باستشهاد الرائد ابراهيم النحراوى زوج نادية فى منطقة أبى عجيلة بسيناء ، دون أن ينجح فى المساهمة فى إزالة اسرائيل من الوجود أو حتى احتلال تل أبيب كما كان يتمنى هو وكل المصريين المخدوعين فى آمال قادتهم. كان لابد لى من الحصول على مال بأية وسيلة حتى أحفظ ماء وجهى أمام جميلة، خاصة بعد أن فشلت مشاريعى المشتركة مع صديقى المهندس محيى العيسوى لإنشاء مصنع لانتاج الكيماويات المصرية من الخامات المحلية.

دفع لى القطط العربون مقدما لشراء ربع طن من المسحوق. أصبح فى جيبى مئات الجنيهات لأول مرة فى حياتى. اكتسحت مشاعرى طمأنينة عظيمة فاستسلمت لها وكأنما ليست لرحلتى نهاية.أمضيت فى القاهرة ليليتين حافلتين. سينيما. مسرح. ملهى ليلى. مقام السيدة زينب. المركز القومى للبحوث. شقة سمير مرقص التى لايمكن أن تخلو من النساء. فى الليلة التالية شعرت بالندم ، فتوجهت الى مسجد سيدنا الحسين لأصلى العشاء وأطلب المغفرة والتوفيق من الله. دخلت

المسجد بصدر منشرح وقلب عامر بالنوايا الحسنة ونويت الصلاة. فوجئت بيد حانية تستقر فى لطف على كتفى ، وشيخ عجوز يقف من خلفى:

- ماذا تفعل يابنى؟
- كما ترى يامولانا..أصلى.

كانت دهشة الشيخ منى تفوق الوصف ، وأنا لا أفهم لها سببا ، حين اقترب منى هامسا:

- أنت تعطى ظهرك للقبلة

أفقت على جرمى غير المقصود وطار مفعول البيرة. عدت الى الوضوء من جديد وقد استبد بى شعور طاغ بالخوف من مجهول لابد واقع على رأسى. أنا موظف حكومى لايحق له ممارسة التجارة فى أى شىء. رغم ذلك فهأنا أتاجر فى مادة حربية وأسعى لبيعها فى السوق السوداء.

فى صباح اليوم التالى جلست بجوار سمير فى عربة المصنع الحربى. اعتقد السائق والموظفون أننى موظف جديد عندما رأونى أبادله الحديث. قدمنى سمير الى مدير المصنع كزميل له أعمل فى بحث للحصول على الدكتوراه فى هذا المسحوق. طلبت شراء ربع طن. أبدى المدير دهشته فالمادة بطبيعتها هشة للغاية، تشغل عبواتها حجوما كبيرة جدا مهما قل وزنها. فى النهاية وافق على البيع فهو الرابح بترويج بضاعته الراكدة.

كان سر دهشة القططى واستغرابه للأمر أننى لم أدله على مصدرى الذى حصلت منه على المسحوق.كل ما قلته انه وارد من الخارج. سارعت بمجرد استلام الصفائح الكثيرة المحتوية على المادة بإزالة الورق الملصق عليها والذى يحمل اسم المصنع الحربى المنتج لها، وما أقبح الحياة حين تخلو من ممغامرة.

فى الموعد المضروب وفى المكان المتفق عليه حضر القططى ومعه بقية المبلغ. كانت هذه البقية تعادل صافى مكسبى من الصفقة. أحصيت الأوراق المالية بسرعة ووضعتها بفرحة فى جيبى، ثم قلت له بثبات:

- تفضل..استلم البضاعة

نظر الى بعينين هما عينى محد النجار تماما. هو الآخر يستكثر على أن أقوم بأى انجاز يدفعنى خطوة الى الأمام. كان يخاطبنى من قبل بأدب مبالغ فيه مخفيا دهشته من قدرتى على الحصول على هذا الشىء النادر. الآن يخاطبنى بلهجة ضباط المباحث:

- قل لى يابشمهندس..من أين جبتها؟

أجبته بغضب مدروس بينما كان يتفحص عينة منها بانبهار شديد.

- وما شأنك؟.لك أن تتسلمها أو ترفضها

راح يتباطأ فى الحركة بين الصفائح يتحسسها ويتلمسها ملتفتا من حوله بين الحين والآخر فى توجس حيرنى وإن لم يدفعنى الى الارتياب فى فعله أو نواياه.

كالقضاء العاجل مرقت من حولنا عربات ثلاث، ثم توقفت فجأة بعد حركة التفاف وانقضاض مثيرة أحاطت بى وبالصفائح. نزل منها رجال غلاظ التقاطيع وبيد واحد منهم طبنجة. فوجئت بسيل من اللكمات ينهال على وجهى من كل جانب ، وأياد كثيرة تفتش بعنف فى جيوبى وتستخرج منها الأوراق المالية والفواتير. انهارت عزيمتى دفعة واحدة ولم أعد أفهم شيئا مما يجرى لى. توقف مخى عن التفكير فلم يكن بمقدوره أن يعمل. تناثرت من حولى كلمات كثيرة لم أستطع أن أميز منها الا كلمات الرائد قائد الحملة حين خاطبنى ساخرا:

- كيف حالك يابشمهندس سابقا

التقطت أذناى حديثا جانبيا هامسا بين اثنين منهم كانا يتفحصان اوراقى وبطاقتى الشخصية:

- شىء غريب.. معه فواتير رسمية
- نجا ابن القحبة من الفخ بعد أن دوخنا معه السبع دوخات

- نحولها الى تهمة المتاجرة فى السوق السوداء وأمرنا لله

تلفت حولى فلم أجد أثرا للقططى. قبضوا عليه هو الآخر لإتقان تمثيل الدور.لم يكن يخطر ببالي حتى هذه اللحظة انه يعمل مرشدا للمباحث، وأن غباءه صور له أننى لص يتعامل مع عصابة تسرق هذه المادة النادرة من المصنع الحربى ليتجروا بها فى السوق السوداء. فحصوا الفلوس وفهمت من حديثهم أنها كانت تحمل أرقاما معينة معلومة لديهم. ساعتها فقط بدأ الشك يساورنى فى القططى الكلب الذى خسر عمولته وهدد مستقبلى.

لم ألبث أن استعدت ثقتى بنفسى إذ كنت على يقين من أننى لم أرتكب جرما جنائيا وان كنت قد ارتكبت مخالفة مهنية لكونى موظفا عاما تجرأ بممارسة التجارة الحرة الى جانب وظيفته.

من الغريب أننى نمت بعمق فى العربة العسكرية التى اصطحبونى فيها الى المصنع الحربى لاستجواب مديره الذى أمدنى بالمسحوق. فى المساء كنت أرقد فى زنزانة بسجن عابدين بينما كان سمير منخرطا فى البكاء بزنزانة مجاورة. أكلت الفول الأميرى المدمس والفجل الملطخ بالطمى والخبز الأسود بشراهة . التقيت لأول مرة فى حياتى بعالم الاجرام والمجرمين. أفردوا لى قطعة كبيرة من الورق المقوى على أرض الزنزانة. خلعت حذائى ووضعته بتلقائية تحت رأسى كسجين متمرس.تمددت عليه وبداخلى نشوة خفية كما لو كنت أشاهد تمثيلية تلفزيونية وأرقب فى فضول شديد ما يحدث لى وكأننى اتفرج على شخص آخر غيرى.

لم أفكر فى جميلة منذ لحظة الهجوم علىّ فى صحراء مصر الجديدة وحتى لحظة النوم السعيد على "البورش" الكارتونى. قال لى كبيرهم وأنا لا اعرف إن كان هو الآخر مرشدا للمباحث مثل القططى الخائن، أم أنه مجرم حقيقى قادم لتوه من جناية ارتكبها:

-قل لى ايه حكايتك بالضبط

حكيت له ما حدث بأمانة. ضحك فى ثقة وأصدر قراره:

- اطمئن . لن تبيت معنا اليوم

تفاءلت بنبوءة المجرم وسألته بمودة صديق قديم:

- ماذا تقصد؟
- لو كان ماذكرته صحيحا فأنت لم ترتكب جناية
- بشرك الله بالخير ياصاحبى
- لكن خذها منى نصيحة : احذر أن تمشى معهم فى الأزرق
- وما الأزرق؟
- يعنى قل لهم الحقيقة كما رويتها لى بالضبط لتوفر على نفسك الضرب والاهانة

كان المحقق برتبة عميد. نظر الى فى دهشة أغلب ظنى أنها راجعة الى صغر سنى وحجمى. سألنى بابتسامة ساخرة:

- هل أكلت الفول الأميرى والفجل يابشمهندس؟
- نعم ونمت أيضا

لم أقل غير الحق، فعندما جاءوا يستدعوننى فى المساء وجدونى مستغرقا فى النوم بالزنزانة، مثلما نمت من قبل فى العربة بعد القبض على بقليل.

استدعى المهندس سمير، ووقفنا معا أمام العميد. انتهى التحقيق بنصيحة لم تبارح ذاكرتى حتى اليوم:

- اياك أن تفكر مرة أخرى فى المكسب السريع والا انحرفت عن الصواب دون أن تدرى

تأثرت بلهجة الرجل الأبوية الصادقة وحنانه الممتزج بالحسم والشدة تجاه شابين فى مقتبل العمر، فلم أعلق.واصل حديثه:

- سأكتفى هذه المرة بإخطار جهة عملك لتوقيع جزاء ادارى عليك

كان معظم حديثه موجها الى وحدى منذ بداية التحقيق، وكأن سمير غير موجود. عدت الى صديقى المجرم لأودعه قبل الانصراف. شكرته على كرم ضيافته وصدق نصيحته. ودعنى بحرارة دهشت لها وكأننا صديقان قديمان. انصرفت بعد مصادرة البضاعة والفلوس وكل شىء.تذكرت السيدة زينب والحسين. كنت مفلسا .قلت لصبحى:

- أنا ميت من الجوع

لم ينطق فسألته:

- كم معك؟
- سبعة جنيهات
- اعطنى جنيهين أعود بهما الى الاسكندرية

بوداعة واستسلام أعطانى الجنيهين.

- ألست جوعانا؟
- من أين تأتينى الشهية للطعام؟

كان حزينا محطما ، لكنى لم أعبأ بذلك. سحبته الى مطعم قريب فانقاد ورائى كما لو كان واقعا تحت تأثير منوم مغناطيسى.جلسنا الى مائدة صغيرة. لابد أن أروى لجميلة هذه المغامرة الظريفة التى جعلت منى "رد سجون". بصعوبة أكل سمير قطعتين من الكباب ثم توقف. لم يستطع ابتلاع المزيد. أجهزت على نصيبى وبقية نصيبه ، ثم دفع هو الحساب وتقيأ ما أكله فى الطريق.

تنسمت هواء الحرية فى شوارع القاهرة الساحرة بمعدة ممتلئة وعينين تلتهمان المحلات والأزقة والنواصى بحب وشغف رغم الحظ المنحوس الذى لايريد مفارقتى ، والذى أخاف منه على جوهرتى الغالية التى ربطت مصيرها بمصيرى. حجزت فى الديزل الفاخر الى الاسكندرية ولم يكن بجيبى سوى علبة سجائر وربع جنيه.

عندما رويت لجميلة ماحدث لى فى القاهرة قالت من خلال دموعها:

- اللعنة على الفلوس ومن بدعها.. ماذا كنت أفعل لو سجنوك؟
- الحمد لله على كل شىء . المهم أن تتم الخطوبة فى موعدها

لم أكن قد حصلت على براءة شهادة الماجستير المعتمدة من مدير الجامعة حتى ذلك الوقت. ذهبت الى الكلية لاستلامها ، حين اندلعت مظاهرات الطلبة بعنف لم أشهد له مثيلا من قبل. اعتقلوا محافظ المدينة داخل أسوار الكلية. تبادلوا اختطاف الميكروفون فى المدرج الكبير وصدورهم ملطخة بالدماء من أثر طلقات الرش التى استخدمها البوليس لتفريقهم. جموعهم الثائرة الهادرة تهتف بسقوط وزير الداخلية شعراوى جمعه أثناء استماعهم الى الخطب النارية الملتهبة من المصابين. أقاموا محطة اذاعة موجهة من خلال ميكروفونات كبيرة الى الجماهير الثائرة فى الشارع. اشتبكت الجماهير مع البوليس وانهالت عليه رميا بالطوب والحجارة وازداد الموقف اشتعالا. ضربوا ضابط بوليس ذى رتبة كبيرة عندما بصق فى وجه أحد زعماء المظاهرة خلال احتداد الآخر عليه فى الحوار. ألقوا به أرضا وبالغوا فى الاساءة اليه جزاء لفعلته. بكى المحافظ المعتقل وهو يخاطبهم فى الميكروفون:

- أنتم أولادى..اهدأوا حتى نتفاهم

لو لم أنصرف فى الوقت المناسب لقبضوا على بتهمة اننى مندس و عنصر غير طلابى يساهم فى اثارة الطلبة وتحريضهم، مثلما حدث مع صديقى عبد الحليم عجور رحمه الله، والذى تخلص من تعذيبهم بالانتحار فى المعتقل.

لست أدرى لماذا رويت كل تلك الوقائع لجميلة ، ولا لماذا حددت لها الأسبوع الأخير من نوفمبر١٩٦٨ كموعد لعقد القران. قررت أن أحسم الأمر وأتوكل على الله بأن احتاط من غدر الزمن وتقلبه بحد أدنى من الفعل. أخفينا عن صهرى أننى مستدع للخدمة العسكرية بعد أسبوع من

توقيع العقد، وليكن العالم ملكا لنا فى ظل الهزيمة أو النصر، فإبراهيم النحراوى لن يعود ، ونساء بنى صهيون تستحم عاريات فى قناة السويس أمام جنودنا الممنوعين من اطلاق النار على الضفة الشرقية المحتلة لحين صدور أوامر أخرى.

لم أستطع إخفاء سرى أكثر من ذلك عن الدكتور بكر. توقعت أن يغضب منى بشدة، وربما يحرمنى من مواصلة البحث معه للحصول على الدكتوراه. فوجئت بطيبته وحنانه وهو يغفر لى كل ما فعلته من خلف ظهره، بل إنه نصحنى بإخلاص أن أكون حريصا على ألا أفشى سر تبييض الطلاء الى محمد النجار أو غيره من أصحاب المال.

مات الدكتور بكر دون أن أحصل على الدكتوراه ، بعد أن اخترت الأدب غير نادم. لكنه من المنصف أن أقول إننى على مر السنين كنت أشعر بالندم فى بعض الأحيان على فرصة من أهم فرص حياتى الضائعة.

... أنا ونديم خرجنا الى الحياة من نفس المكان. أنا تفننت فى تضييع الفرص وهو تفنن فى اقتناصها..لكن لا أحد يستطيع أن يدلنى من منا المخطىء ومن منا المصيب.

****

● رسالة الماجستير تكتب بحب على أنغام العود ورقص رجاء ودخان البخور:

دبت خناقة شديدة بينى وبين نديم بسبب تشدده فى محاسبة الحاجة تحية ومراجعتها على ما انفقته من جنيهات قليلة لشراء بعض احتياجات البيت. كل ما أذكره من هذه الواقعة هو لومه الشديد لها لأنها اشترت قاروصة كبريت كاملة، إذ قال لها انه كان يكفى شراء علبة واحدة أو علبتين على الأكثر. انفجرت فيه غاضبا:

- أنت بنى آدم نتن

اندفع نحوى رافعا كفه محاولا أن يصفعنى على وجهى، لكن تحية ألقت بثقلها عليه ممسكة بذراعه .وقفت حائلا بيننا وهى تبكى بحرقة قائلة:

- لا..لا.. الأخ لا يضرب أخاه

واذا بها تنهار ساقطة على الأرض فى حالة مابين الاغماء والتشنج. أصبحت مشكلتنا المشتركة التى علينا ان نواجهها متناسين ماحدث بيننا هى كيف نفيق أمنا من غيبوبتها ونعيدها الى حالتها الطبيعية. استخدمنا المياه ثم الكولونيا وكل منا يأخذها فى حضنه تارة ويربت على وجهها تارة أخرى.

بعد أن عادت الأمور الى مجراها لم أكن قادرا على الاستمرار فى مشاركة نديم المعيشة بعد أن تفرق الأخوة وبقينا وحدنا مع أمنا تحية. كان من الضرورى أن أنفصل عنه حتى أتجنب معاودة الاحتكاك به بسبب سلوكياته المادية المزعجة التى سمحت له بمحاسبة أمه بالقرش على ما تنفقه، والتى جعلت من شراكتنا فى الانفاق على مصروف البيت مشكلة مرهقة. استأجرت شقة صغيرة فى الدور الأرضى بإحدى عمارات الابراهيمية المواجهة للكورنيش وقررت الاقامة بها وحدى حتى ينصلح حال نديم ويتعهد ألا يعود الى محاسبة أمى مرة أخرى. وكنت قد عاهدت أمى سرا أن انفصالى لن يدوم طويلا حتى لاتغضب منى.

كانت الشقة مقسمة الى قسمين أحدهما يشغله الاسطى جمعة وزوجته رجاء ، أما القسم الذى شغلته فكان به شرفة واسعة طويلة تطل على البحر وعلى الممر الفاصل بين العمارة والعمارة المواجهة لها ، والذى ينتهى بسد عرضى من عمارة ثالثة متعامدة على العمارتين. هكذا يصبح الممشى المستطيل المغلق الناشىء عن ذلك التكوين المعمارى العتيق ، مكانا رائعا للجلوس به ليلا ونهارا لتميزه بتيار هوائى منعش فضلا عن مواجهته للبحر مباشرة.

الأسطى جمعة حرفى كسّيب. نحيف كالبوصة رقيق كالنسمة.صوته منخفض أشبه بالهمس.نظراته شكاكة خوافة لست أدرى مماذا. يؤمن بالجن والعفاريت بشكل ملفت.كثير التلفت يمينا ويسارا من حوله خاصة فى المساء. يحاول قدر المستطاع تجنب الاحتكاك بزوجته المتسلطة عليه والتى تستغل طيبته الى أقصى مدى. تقرب منى فاستجبت له.حكاء من الطراز الأول وكل حكاياته خرافات ومعتقدات وهمية. بمرور الوقت أصبح زائرا شبه مستديم لغرفتى بعد أن لقى ترحيبا من جانبى فقد استهوتنى خفة ظله ووجدت فى هوسه بالخرافات وسيلة نادرة للتسلية... عندما يريد أن يغتاب زوجته رجاء وينعتها بألفاظ قبيحة فإنه يتأكد أولا من أن الباب مغلق فى احكام حتى لاتتصنت عليه وتعاقبه، وفى الوقت ذاته فهو يدعى لى أنه أبو الرجال وأنها لاتستطيع أن تخالف له أمرا. من حين لآخر تأتى أم رجاء- الشهيرة فى المنطقة بالمعلمة حسنة- فى زيارة قد تطول لعدة أيام. يتولى جمعة خدمتها بإخلاص فيعد لها الشيشة والفحم والمعسل ويجلس تحت قدميها كطفل مطيع. جمع بينى وبينها حديث السياسة فقد كانت مولعة بها. عندما توطدت صداقتنا صارت تطلب منى أن أعزف لها على العود، ويوما استبد بها الطرب فأصدرت تعليماتها القاطعة الى رجاء أن تتحزم وترقص ، وقد كان ، ثم تكرر بعد ذلك كثيرا حتى فى غياب المعلمة حسنة فى بعض الأيام. عندما عرفت أننى أحب البخور أحضرت لى أصنافا نادرة منه ذات رائحة طيبة ، وكان يحلو لى ولها مشاهدة دخانه واستنشاق رائحته بينما تهتز مؤخرة رجاء على ايقاع العود وطبلة

جمعة التى يؤدي دورها على منضدة صغيرة..وأحيانا كانت حسنة تنجلى فتغنى بصوت أجش وإن كان بعيدا عن النشاز.

كان الأستاذ صديق سكرتير قسم الهندسة الكيمائية بالكلية يكتب لى رسالة الماجستير على ورق الاستنسل الذى كان استخدامه شائعا فى ذلك الوقت حتى يمكن تجهيز نسخ عديدة من الرسالة. كان قد وصل الى قرب النهاية حين دعوته لاستكمال الكتابة عندى بالشقة بدلا من الذهاب اليه يوميا فى العصافرة. كنت واثقا أن الجو عندى سيعجبه كثيرا وقد صدق حدسى إذ كان صديق محبا للهو والمرح والموسيقا والطرب.

كانت ليلة لاتنسى تلك التى اختتم فيها صديق كتابة الصفحة الأخيرة فى الرسالة على آلته الكاتبة العتيقة والتى كانت تكتكاتها تتقاطع مع أنغام العود وايقاع الطبلة واهتزازات وسط رجاء وقهقهاتى أنا والمعلمة حسنة ، وأمامنا زجاجات البيرة المثلجة وكثير من المزات التى أعدها لنا جمعة بمحبة ورضا.

فى الليلة التالية قررت مغادرة الشقة ، إذ خشيت على نفسى من اغراء رجاء بعد أن أحببت زوجها الطيب ، وبعد أن بدأت تلاعبنى ، كما راعيت ألا يطول غيابى عن أمى أكثر من ذلك بعد أن أكدت لى أن نديم سوف يتحرر مع الوقت من مادياته السخيفة.

كلما تذكرت الدكتور بكر الذى أشرف على رسالتى وأحبنى كابنه ، شعرت بشىء من الندم لأنى لم أستجب لنداءاته العديدة لى باكمال الدكتوراه قبل أن تستولى علىّ حرفة الأدب ، ولكنها خطى كتبت علينا فمشيناها.

● دائرة المحـــبة:

قالت لى أمى:

- من يحبه ربه يفرجه على خلقه

منذ طفولتى لم يفارقنى الحلم بهذه الفرجة. كلما مرت من عمرى سنة تضاعفت خشيتى من الموت قبل الاستمتاع بهذه الفرجة. أنظر من نافذة بيتنا العتيق المطل على البحر، متجاوزا بخيالى الأخضر منتهى حد الرؤية حيث يعانق البحر السماء. المعادلة الشرطية صريحة وواضحة. كى أنعم بالحلم ينبغى أن أحظى أولا بالمحبة. يطل السؤال على عقلى الصغير فى استحياء ممزوجا بالتحدى. كل عام أواجهه بفكر مختلف وأنظر اليه برؤية مغايرة.."هل يحبك ربك؟!"..ولا أعرف الاجابة القاطعة.

عندما رسبت فى مادة الجغرافيا وجاءت بطاقة الدرجات مزدانة بكعكة حمراء، صفعتنى أمى على وجهى فعرفت أننى بعيد عن دائرة المحبة. لكنى لم أفقد الحلم ورحت أطارد السواح عند قصر رأس التين محاولا الحديث معهم بالجملة الوحيدة التى احفظها"

- جود مورننج

كانت ابتساماتهم لى تنعش فى قلبى الأمل بتحقيق الحلم. كثيرا ما كنت أختلى بنفسى بعيدا على الشاطىء أتفكر فى تلك المخلوقات التى تعيش وراء هذا البحر الواسع العظيم. تذكرت قول أمى ان الله أكبر بكثير من كل هذا البحر، فهو الذى خلقه وخلق معه السماوات والأرض والبشر والحيوانات والطيور والأسماك. سألتها كيف السبيل الى محبته فعلمتنى الصلاة. فرحت كثيرا وأنا أركع وأسجد، لكنى أحببت سيدة جميلة فى عمر أمى أفسدت مخططى لتحقيق الشرط. كنت أحب قبلاتها وأنتشى لطراوة يديها وهى تربت على خدى وتعطينى الحلوى. كنت أتمنى أن تدوم صداقتها لأمى الى الأبد حتى لا أحرم من رؤيتها والتمتع بلين حديثها وطراوة يديها.

ظل السؤال الشرطى معلقا حتى قامت ثورة يوليو وسمحوا للجمهور بارتياد حدائق القصر الملكى بالمجان. عشقت هذا المكان وداومت الانسلاخ من الزقاق والاختفاء بين أشجاره متأملا فى لغز الحياة الغامض على عقلى البرىء. هناك كتبت أشعارا فى حب فتاة خضراء العينين تسكن على مسافة لاتبعد كثيرا عن بيتنا. كان شعرها الأشقر يقربنى من الحلم. تنقلنى بشرتها البيضاء من حارة جوده برأس التين الى ميادين أوروبا التى يتجمع الحمام حول نافوراتها فى طمأنينة وهو يتلقى الحبوب من الناس كما أراها فى الصور والأفلام.

عدت الى الصلاة أمارسها أحيانا وأنقطع عنها أحيانا اخرى. علمنى الرفاق شرب الخمر ومضاجعة النساء . نسيت الحلم وضاعت من ذاكرتى المعادلة الشرطية. انهمكت فى صراع الحياة اليومى حتى عاودنى الحلم يوما حين قذفت بنفسى الى البحر وكانت أمواجه ثائرة عالية، ولما عبرت المحيطات الخمسة قلت لنفسى:

- افعل شيئا تقترب به من دائرة المحبة

عشت عمرا آخر فى البحر. لم أرفع رأسى فوق سطحه أبدا. لم تراودنى الرغبة فى رؤية أهلى وعشيرتى. الحياة تحت الماء أكثر روعة.صحيح أن قانون الأرض سائد هنا،فالأضخم يبتلع الأصغر، لكن أحلام السعادة استقرت فى خيالى بقوة... وأصحو من النوم دون أن يتبدد الخيال أو يغيب الحلم... يعد لى الخدم الآفطار.أعاملهم أحيانا بأدب جم. أثور فيهم أحيانا لأتفه الأسباب.أتوجه بعد ذلك الى الحمام. بداخله أغنى كثيرا بصوت عال. بعد أن أخرج أقرأ عدة أسطر متناثرة من الجرائد اليومية ، ثم ألقى بها على الأرض مبعثرة كيفما اتفق. أدير جهاز الموسيقا بصوت عال جدا. أظل أروح وأجىء بين أرجاء الغرف بملابسى الداخلية. أتجه الى الهاتف. أتحدث مع المحامين فى القضايا العديدة حول أطيانى وعقاراتى ونزاعاتى مع الخصوم من الأهل والأغراب. تزداد حدة عصبيتى فأتصل ببعض الصديقات. لكل منهن حديث مختلف.أضحك بجنون من أى شىء.أرتدى ملابس الخروج. أطير بعربتى الى غير ما هدف بسرعة شديدة. أتوقف بأى مكان يخطر فجأة ببالى. أذهب الى أى مخلوق أتذكره بمحض الصدفة. أثير زوبعة مع بائع من أجل بضعة قروش. أمنح آخر"بقشيشا"يعادل خمسة أضعاف قيمة مشترياتى منه. أخرج بندقيتى من حقيبة العربة. أتسلى بصيد النورس ومشاهدته وهو يسقط فى البحر ، مستمتعا بالفرجة على رفاق الطائر المصاب حين يحومون حول فقيدهم ويصدرون أصواتا حزينة متعاقبة فى ايقاع سريع محموم. أخلع ملابسى وأسبح عاريا فى البحر. أصب فى جوفى ما يقرب من نصف زجاجة من الويسكى وآكل بأصابعى بلا شوكة ولا سكين ولا ملعقة. عمرى أربعون عاما. أتحدث لغات ثلاث بطلاقة. أعيش فى قصر على النيل شتاء وفى قصر آخر على البحر صيفا. أشعر دائما أننى ألعب فى الوقت الضائع من مباراة عمرى. جربت الحياة فوق الأرض وتحتها فوجدتها غير ذات جدوى. لا أطيق معاشرة انسان لفترة طويلة. لا أحب الخسارة. أبخل بإبداعاتى الفنية والأدبية على النشر بين أفراد مجتمع معجون بالظلم والجهل والقسوة والنهم المجنون الى المال ، كما أن الشهرة لاتستهوينى اطلاقا لأنها غير واردة فى دائرة اهتماماتى التى أصبح قطرها صفرا.

... وأفيق من أحلام يقظتى على واقع حياتى البسيطة التى أقبل عليها بمحبة واستمتاع، بينما وصل الحال بنديم الى أن يقول:" **ان الوسيلة الوحيدة للحصول على السلام مع خصمك هى اختفائه تماما من عالمك. اسحق خصمك تماما. واعلم أن كل من يسير فى طريق القوة يخلق لنفسه أعداء طيلة الوقت"**..انه حتى هذه اللحظة لم يطلعنى على مكانه حتى أتكلم معه وأراجعه فيما آل اليه من تحول بغيض معاد لسلام العقل وصفاء الروح.. آه كم تمنيت لو كان هاتفى الغامض ساحرا فيحيلنى الى يمامة!!..

****

●نساء مفرطة فى الواقعية :

رومانسيتى المفرطة تلازمنى منذ طفولتى ، ممزوجة بقدرة غير عادية على الدهشة والتعجب. تصوراتى للناس والحياة والمواقف والأشياء تقوم كلها على هذه الرومانسية.أفكارى عن الصدق والحق والخير ثابتة لاتهتز دون أن أدرى من أين أتيت بها وأنا مازلت صبيا. أما عن حسن نيتى تجاه الناس فحدث ولا حرج. لايمكننى بأى حال أن أشعر بسوء النية تجاه مخلوق الا بعد أن يقع على منه أذى أوضرر. رغم ذلك فإنه قد يستطيع بكلمتين منه أن يزيل عنى خواطر الشك والوسوسة تجاهه تماما، وكأن شيئا لم يكن.

لم يكن كامل سعيدا بسكننا فى ذلك البيت العتيق برأس التين. حبه للمظاهر أفقده تلك المشاعر الجميلة التى توحد بين الانسان وبيته والطبيعة المحيطة بهما والبشر، فما زال ابن آدم يتكبر رغم أنه خرج من مجرى البول مرتين. لم أكن قد تخرجت بعد فى كلية الهندسة ، أما نديم فلم تمض سنوات معدودة على عمله بأكثر من شركة ومؤسسة حتى شد رحاله الى الخليج باحثا عن تحقيق حلمه الدفين بالثراء. فى الأشهر الأولى من سفره كان يتواصل معنا ليعلمنا عن مدى توفيقه فى العمل. لم يعلمنا بنجاح مسعاه فى الحصول على فرصة عمل طيبة.كنا قلقين عليه.ازداد القلق عندما توقفت رسائله واتصالاته. لم يدلنا على عنوانه الجديد بعد تغيير مسكنه بتغيير المدينة التى كان يقيم بها. بمرور الزمن وبحكم اعتياد الانسان على أى شيء، لم تعد تشغلنا هذه المسألة كثيرا.

لم يهدأ كامل حتى نقلنا الى مسكن آخر بسيدى جابر لم أحبه كما أحببت بيت رأس التين. بجوار البيت كانت فيلا صغيرة تتوسط حديقتها شجرة ياسمين هندى ذات رائحة جميلة. عشقت الفرجة على زهور تلك الشجرة ذان اللون الأصفر الذى يتوسط بياضا شاهقا. كثيرا ما كنت أجمع منها باقات صغيرة حين تتساقط على أرض الحديقة. بالفيلا كانت تعيش أسرة مكونة من أفراد ثلاثة فقط. رجل قصير سمين فى حوالى الستين يدعى بهجت ، وزوجته الحسناء التى لاتتجاوز الأربعين، وابنهما الوحيد أيمن ، وهو صبى جميل أنيق يتعلم فى مدرسة أجنبية ويتكلم برقة شديدة وأدب جم. كنت أشعر بشيء من الغموض تجاه العلاقة العائلية بين الثلاثة دون أن أفهم السبب. غير أن الرجل وزوجته كانا دائما يدللان وحيدهما ولا يكفان عن النداء عليه طول اليوم، فيرد عليهما بالفرنسية فى معظم الأحيان. بجوار الفيلا مباشرة كانت هناك فيلا صغيرة يسكنها قبطان بحرى شاب فى عمر أم أيمن. شرفة مسكنه تطل مباشرة على غرف فيلا بهجت. لفت نظرى اكثر من مرة ان القبطان يتبادل مع ام أيمن أحاديث خاطفة حين يكون زوجها فى عمله وابنها فى مدرسته. يسافر لعدة أشهر ويعود فى اجازات طويلة يمضى معظمها فى الصيد أو الجلوس على مقهى سيدى جابر مع شلة من الأصدقاء. لم يتصادف أن رأيته مرة يتحدث مع بهجت. فهمت من حوار داربين القبطان وأم أيمن أن هناك خلافا حادا بين الرجلين حول بيع أو شراء عقار معين.

صباح يوم غائم كنت متوجها من منزلنا الى محطة ترام سيدى جابر. كانت خطواتى مسرعة خشية سقوط المطر.فوجئت بزحام أمام مقهى سيدى جابر المواجه للمحطة. اقتحمت الزحام لأفاجأ بمشهد أصابنى بالرعب. القبطان يصفع بهجت بعنف على وجهه يمينا ويسارا فى تعاقب مستمر ودون توقف.يترنح بهجت على الجانبين دون أن يبدى أية مقاومة. سقط قلبى بين ضلوعى من شدة الجزع فعدت الى البيت راكضا وكأننى فى سباق للجرى. وصلت الى فيلا بهجت وأنا ألهث وضربات قلبى تكاد تصدر صوتا خارج حدود جسدى. وجدت أم أيمن واقفة فى الحديقة.صرخت فيها بأعلى صوت:

- الحقى....القبطان....

التقطت انفاسى حتى أستطيع استكمال الانذار:

- القبطان يضرب الاستاذ بهجت فى المقهى

توقعت أن تضرب بيدها على صدرها من شدة الفزع وأن تفعل أى شىء لحماية زوجها والدفاع عنه.أى شىء، كأن تتصل تليفونيا بأحد أقارب أقاربها أو أقارب زوجها لنجدته ، كحد أدنى لرد الفعل الطبيعى من زوجة تجاه زوجها فى مثل تلك الحالة..

كانت صدمتى عنيفة وخيبة أملى عظمى ودهشتى صارخة حين رأيتها تستمع الى فى لامبالاة تامة ودون تعليق ، كما لو كانت سعيدة بما سمعت. طعنت رومانسيتى فى مقتل وهى تقول ببرود شديد:

- متشكرة

ثم تركتنى غارقا فى ذهولى وعرقى وأنفاسى اللاهثة ودخلت الى الفيلا.

تعلمت للمرة الأولى أنه ليس بالضرورة أن تكون الزوجة سكنا لزوجها، وليس بالضرورة أن تحبه وتخاف عليه وتتأذى لأذاه. بالتالى فمن الممكن أن تعيش زوجة مع زوجها وهى تضمر له العداء والكراهية بينما تنام معه على فراش واحد!!. جميلة هى الحياة، ولكن كم هى مرهقة لمن منحه الله نعمة الاحساس ونقمته. تركت هذه الواقعة أثرا مؤلما فى حياتى وبقى جرحها غائرا فى الوجدان، حتى التقيت يوما بالسيدة"فلورا" زوجة صديقى حمدى عبد الغنى بمحض مصادفة فى نادى سموحة مساء يوم من أيام شهر رمضان. لم أكن قد رأيت حمدى منذ حوالى عامين. كنت قد آثرت الابتعاد عنه لفترة طويلة تجنبا لانتقال مشاكله العديدة مع النساء الى حياتى الخاصة، حين أصبحت صداقته مصدر خطر على حياتى الاجتماعية والمهنية.

لقد فوجئت يوما بموظف الأمن ببوابة الشركة التى أعمل بها ، يتصل بى تليفونيا ليبلغنى أن هناك سيدة تحمل طفلا رضيعا تطلب مقابلتى. اعتقد الموظف أنها زوجتى فأنكرت له ذلك قبل أن أعرف من تكون هذه السيدة. الخبيثة لم تخبره من تكون لتسهل على نفسها لقائى. طلبت محادثتها تليفونيا قبل أن أسمح لها بالقدوم الى مكتبى. عندما اخبرتنى انها احدى زوجات حمدى طلبت من الموظف أن يبقيها لديه حتى أحضر بنفسى اليها ، متعمدا علانية اللقاء درءا للشائعات.

قالت انها غادرت الشقة الجديدة التى استأجرها لها عقب خلاف نشب بينهما، وأنها تريد الصلح والعودة الى بيتها. نجحت فى تدبير خطة للافلات منها ومن رجلها المزواج الى الأبد. أعطيتها بعض المال وطلبت منها التوجه الى بيت صديق مشترك وأبلغت حمدى بمكانها.

زوجته الأولى كانت فلورا ابنة يونانى صاحب محل لصناعة الأحذية يدويا. كان يعمل مساعدا له ولما مات استولى على الدكان وعلى ابنته أيضا. مع الوقت برع فى مهنته وأثرى منها. كان كبار رجال الاسكندرية يفصلون عنده أحذيتهم ويدفعون المئات ثمنا لها فى الستينات. صداقاته بكبار رجال الأمن والمحافظة توطدت بقوة نظير اهدائه اياهم الأحذية مجانا، فصار صاحب نفوذ فى المدينة وله كلمة مسموعة فى كل مكان. بإمكانه دائما الحصول على كميات وفيرة مجانية من الحشيش ، وأن يمضى سهراته فى أفخم فنادق وكباريهات ومطاعم الاسكندرية حيث يلقى الترحيب الحار والاحترام الشديد.توالت زيجاته وتكاثر عدد أبنائه منهن. كان ينفق عليهن جميعا بسخاء ليمتص غضب كل من تثور عليه لأنه تزوج عليها. فى النهاية ارتبك عمله وكثرت ديونه وانهالت عليه القضايا من كل جانب حتى انتهى به المطاف الى زوجته الجريئة التى اقتحمت مقر عملى لأحل لها مشكلتها معه.

هجم الدائنون على شقته التى استأجرها مؤخرا فى ضاحية بعيدة هربا منهم، لكنهم تمكنوا من الوصول اليه. هددوه بكسر الباب واقتحام الشقة إن لم يفتح لهم ويسدد ما عليه من دين. نصحته زوجته بالهرب عن طريق المنور والنزول منزلقا على احدى مواسير المياه. كان حمدى عملاقا ضخم الجثة. استجاب لنصيحتها فسقط من الدور الثامن الى حوش المنزل.

لم أعلم بما حدث حتى التقيت بفلورا فى النادى .كانت فلورا تروى لى مأساة زوجها وهى تدخن سيجارة وتشرب القهوة ، وكأنها تحكى عن شخص لم تشاركه فراشه وتنجب منه الأولاد، بل

لاتعرفه على الاطلاق، أو كأنها كانت تحكى لى فيلما شاهدته أو قصة قرأتها واستمتعت بأحداثها المثيرة. كان واضحا أنها راضية تماما عن النهاية التى اختتمت بها حياة زوجها حيث تلقى الجزاء العادل عن تبديد ثروته على النساء ، بعد أن وضعت لها حجر الأساس حين تنازلت له برضاها عن محل أبيها الذى ورثته عنه..لم تذرف عليه دمعة وهى تروى تلك التفاصيل الدامية. لم تنطق بلفظ يوحى بالحزن أو الأسف على رفيق حياتها.

... أمضيت عمرى كله غارقا فى بحور الدهشة!!..وما زلت قادرا على الدهشة حتى اليوم.

****

-٨-

عندما ينتصر عليك خصمك فى جولة ، انسحب بلا مناقشة. لاتظل واقفا مكانك بانتظار الجولة التالية التى قد تربحها أو يربحها هو، فما جعلك تحتمل الهزيمة الأولى قد لايجعلك تحتمل الهزيمة التالية. استسلم فقط حتى تتمكن من تحويل الضعف الى قوة ثم تعاود الهجوم. لاحظ أن الاستسلام يكون أفضل دائما من الهروب، لأن الهروب فى نهاية الأمر مجرد حل وقتى يدفع خصمك الى ملاحقتك بمزيد من الشراسة ، وغالبا ما يصل اليك فى النهاية ، ولحظتها تكون نهايتك حقا. أما الاستسلام فيعطى الانطباع بأنه لاخطر منك، بل ربما يسمح لك بالمزيد من الاقتراب من خصمك كى تكتشف فى النهاية أكثر الوسائل فاعلية فى تدميره.

لاتشتت مجهودك فى كسب ثقة الكثير من الناس، وركز كل طاقاتك ومهاراتك وبراعتك على الرئيس وحده، أو على صاحب القوة الفعلية فى مكان الصراع. من المهم أيضا أن تركز قوتك أمام أعدائك.نابليون كان أكثر من استطاع فهم هذه الاستراتيجية. كان يركز قوته دائما على أهم نقاط ضعف عدوه فى ميدان المعركة، وهو ما كان يجعله يربح فى معظم معاركه.

ان الباحث عن القوة ممثلة فى السلطة والثروة ، لابد أن يتحكم فى الصورة التى يراه الناس بها، ولايدع أحدا ينحت هذه الصورة على هواه. ينبغى عليه تجديد صورته باستمرار بحيث يجيد التمويه على ما يبطنه ويخفيه. انه لايوجد قائد واحد ناجح فى التاريخ سبق له أن أظهر مشاعره الحقيقية أمام الناس. ان السياسى الداهية هو الذى يجيد صياغة انفعالاته فى لغة يفهمها الناس ويستطيع أن ينتزع بها الاعجاب والتعاطف معه أو الخوف منه كما يريد. انه يستطيع أن يكون قديسا وسط القديسين ورجلا عاديا بين العامة ، أى انه يجيد التمثيل كفنان محترف بحيث يجذب انتباه الناس لأطول فترة ممكنة. ان اللحظة التى يفقد فيها هذا الانتباه هى نفس اللحظة التى سيقفز فيها شخص آخر الى الساحة ليقدم عرضا أكثر قوة من عرضه ويربح بذلك كل شىء.

تريد القوة. اذن فابتعد عن الشبهات واظهر أمام الناس كمثال للطهر والنقاء والشرف. صاحب السلطة الناجح هو من لايستطيع أحد أن يمسك عليه أى تهمة.

حافظ على مظهرك المحترم بإلصاق تهمك بالآخرين أحيانا أو بتقديم كبش فداء للناس وقت اللزوم. ان استخدام ذلك الكبش أمر قديم قدم الانسانية نفسها ، ويعتمد على تحويل انتباه الناس الى شىء أو شخص يتحمل الذنب كله، ثم القضاء عليه وتدميره لامتصاص الغضب العام.حتى الثقافات البدائية كانت تقدم القرابين البشرية للآلهة لنفس الهدف.

فى قلب هذا المجتمع المطلى بدهان التحضر والمدنية هجم على بعض السود المشردين وكان معظمهم عمالقة طوال عراض بشكل ملفت. لم تكن معى عربتى ولا سائقى الخاص. كنت وحيدا. شعرت برغبة فى التسرية عن ذهنى بالمشى فى شوارع العاصمة قرب الفجر والحديث الى نفسى. كان النوم قد استعصى على أكثر من أى يوم آخر وقد اعتدت الأرق فلم أعرف طعما للنوم الطبيعى بغير عقاقير مهدئة. انقضوا على بوحشية منتزعين ساعة يدى الذهبية .طلبوا حافظة نقودى التى لم تكن بها نقود تذكر، فمعظم مابها بطاقات ائتمان بنكية. كان من الممكن أن يقودونى الى ماكينة من ماكينات الصرف الآلى ليستولوا على أموالى. فوجئوا بأفراد حراستى الخاصة- الذين كانوا يتبعوننى عن بعد دون أن أدرى – يهجمون عليهم شاهرين أسلحتهم فى وجوههم فولوا الأدبار على الفور. أنا واثق أننى لومشيت فى منتصف الليل أو قرب الفجر فى حوارى الأنفوشى والسيالة لما شعرت بخوف أو قلق رغم الانهيار الأمنى الذى تعرضت له مصر مؤخرا. مصر شىء وأمريكا شىء آخر.. اننى أبكى الآن على حالى، فأنا عاجز حتى عن اتخاذ قرار بالعودة الى أرضى الطيبة واستثمار أموالى بها..لقد صرت شيئا كريها فى هذه الحياة العدمية الغامضة.

****

●اللصـــوص الثلاثة:

دائما ما أجد متعة فائقة فى التصدى للشر والفساد بأى مكان حتى لو لم يصبنى رذاذهما مباشرة..كان المصنع الذى أعمل به مجالا خصبا لممارسة الفساد فى كل صوره الممكنة. أتاح لى عباس الشيمى مدير المصنع فرصة هائلة للعمل بدأب وإخلاص فى محاربته بشتى الطرق ،فقد كان لصا خطيرا يأكل مال النبى الى جانب مال المصنع ، ويرتشى من الموردين والمستوردين لمدخلات المصنع ومخرجاته. الغريب أنه لم يكن يجلس الى مكتبه الا فى القليل النادر، وانما كان يمضى معظم يومه بين الماكينات يعمل بجد وحماس كما يفعل الشرفاء حتى ليصعب على أحد أن يشك فى حقيقته.

كان مدير المخازن صديقا حميما لى. كثيرا ما كنت أزوره فى مكتبه لأتعرف على نماذج نادرة من البشر الذين يتعاملون معه ، من تجار ومقاولين. كثيرا ما سهرنا معا فى غيط العنب بصحبة الريس عبد الاله شيخ الخفراء ذو الرأس الضخمة والعين الزجاجية والجسد العملاق ، والذى ستكون لى معه قصة شيقة. توطدت صداقتى كثيرا مع بعض هؤلاء التجار.أتحفونى بأدق أسرار الشركة وبتفاصيل الرشاوى والعمولات التى يتقاضاها منهم عباس الشيمى. كالمعتاد لم أصدق فى البداية حين استولت علىّ دهشتى الرومانسية العبيطة، حتى أكد لى أحد هؤلاء التجار أنه هو الذى يقوم بجمع الرشوة الشهرية التى يقدمها تجار دشت الورق للشيمى ويسلمها له بنفسه. مع ذلك ظللت متشككا فى صحة ماسمعت حتى فوجئت يوما بعباس الشيمى يدخل الى مكتبى . كان محمد يوسف مساعدى الأول يجلس عندى. هو موظف فنى تجمعنى به عشرة طويلة ومحبة وتقدير. يتميز بأداء جيد فى العمل ورجولة فائقة تبدت لى فى مواقف عديدة له، كانت تصب فى مساندتى بالقول والفعل ضد أساطين الانحراف والفساد بالشركة. جرأته فائقة ولسانه سليط ، كما أنه يتميز بقدرة عالية على جمع البيانات والأرقام والمعلومات عن الشركة بتفاصيلها الدقيقة وأسرارها الدفينة. ما أن دخل عباس حتى انتفض يوسف واقفا فى احترام مبالغ فيه ، يتناقض مع احتقاره الشديد له، والذى يعبر لى عنه فى كل لحظة، اذ كان على علم تام بكل ما يتقاضاه من رشاوى وعمولات،وقد جمع هذه المعلومات من أصدقائه الذين يعملون فى أقسام المصنع المختلفة ويمدونه بها.

بعد مصافحته بانحناءة تمثيلية انصرف يوسف من المكتب ، حين قال لى عباس فى لهجة تحمل كثيرا من التودد القريب الى النفاق:

- **محمد يوسف ولد ممتاز**
- **فعلا يفندم وانا أعتمد عليه دائما فى المهام الصعبة**

عباس يده مغلولة بشدة تجاه العمال والموظفين. فى كل شهر يختصر ميزانية العمل الاضافى الى النصف وأحيانا يلغيها تماما بحجة خفض التكلفة. واصل عباس زيفه:

- **لماذا لا تصرف له أجرا اضافيا شهريا؟**
- **سأفعل ان شاء الله**

بعد انصرافه عبرت ليوسف عن دهشتى الشديدة لهذا الرضا السامى المشكوك فى أمره. ضحك ضحكة خبيثة موحية. ضغطت عليه حتى اعترف لى بصدام عنيف وقع بينهما بسبب اضطهاده لواحد من الموردين الشرفاء الذين لايرشونه. انتهى الصدام باتهام يوسف له صراحة ووجها لوجه بأنه لص ومرتشى، وبتهديده أنه سيفضحه لو لم ينصف هذا المورد ويعطيه حقه المشروع..أصبحت على يقين من صدق كل الشائعات التى تدين عباس الشيمى وتشينه. كنت فى ذلك الوقت أكتب رواية اسمها"العائد"، تحكى قصة بطل من أبطال حرب أكتوبر وقد عاد الى عمله بالمصنع بعد أن ساهم بشجاعة فى تحطيم خط بارليف. لكنه اكتشف وجود خط بارليف آخر من الفساد أكثر قوة وثباتا، يجثم على صدر المصنع والعاملين به من عمال وموظفين ، أغلبهم دون مستوى الوعى الكافى بحقيقة ملكيتهم لمصنعهم الذى ينتمى الى القطاع العام.

يتصدى البطل بمفرده لعميد الفساد بالمصنع بعد أن عجز عن تكوين جبهة جماعية تسانده فى محاولته المخلصة لهدم خط بارليف الثان. لذلك يفشل فى مسعاه الفردى ويصاب بانهيار عصبى.

لم أجد إسما أفضل من عباس الشيمى كى أعطيه لعميد الفساد بالرواية.بعد صدور الرواية من احدى دور النشر التابعة لوزارة الثقافة، اخترت شابا أهوج شديد التهور يعمل بمكتب الرسم الهندسى، ويكره الشيمى حتى الموت إذ ظلمه فى الترقية ووقع عليه أكثر من جزاء بدافع من الهوى وليس عن وجه حق.

وضعت الكتاب أمام عبد المنعم وحكيت له ملخص الرواية. كان فرحا جدا لاختيارى اسم الشيمى لشخصية المدير اللص. عبرت له عن رغبتى الشديدة فى ان تقع هذه الرواية فى يد عباس الشيمى بأية وسيلة. قال بفرحة:

- انا أعرف بيته
- وكيف ستوصلها اليه؟
- سأسلمها لخادمته بينما يكون هو بالمصنع
- متى؟
- باكر ان شاء الله، فهو يوم راحتى الأسبوعية

ضغط عبد المنعم على جرس الباب. عندما فتح الباب فوجىء – على غير توقع- بعباس الشيمى أمامه وجها لوجه. الملعون لم يذهب اليوم الى المصنع. ارتبك عبد المنعم لشدة المفاجأة فألقى الكتاب بسرعة فى وجه عباس وأسرع هابطا درجات السلم كمن يطارده عفريت.

انفجرت فى الضحك وهو يروى لى ما حدث.كان عباس داهية فلم يفتح فمه بكلمة معى أو مع غيرى حول الكتاب ومحتواه حتى لاتنتشر فضائحه بالشركة ويبحث الجميع عن الكتاب.

نجح عباس فى مخططه، فلم يعلم العمال والموظفون بأمر الرواية. المقربون منى فقط هم الذين اطلعوا على فضيحته الموثقة. لكن نجاحه لم يدم طويلا، فلم تلبث أنباء الرواية أن تسربت وأصبحت نسخ الرواية فى أيدى الكثيرين. تجرأ الصغير قبل الكبير على إهانته وسبه والتطاول عليه كلما حاول أن ينزل الى المصنع. صار حبيس غرفة مكتبه ورغم ذلك لم يسلم من السخرية والتهديد. فى النهاية لم يجد بدا من مغادرة المصنع الى شركة أخرى..ذهب اللص الى غير رجعة لكن للأسف حل محله لص آخر يدعى توفيق.

تحولت هوايتى لمحاربة الفساد والمفسدين الى إدمان لامفرمنه. سرعان ما اشتعلت الحرب بينى وبين توفيق الذى تفوق على عباس فى لصوصيته بالمزيد من الفجر والجرأة والوقاحة، وكأنه لايعنيه فى شىء أن يعلم الجميع أنه لص ومرتش ، وعلى المعترض أن يفعل ما يشاء.

كانت الاذاعة قد طلبت منى مسلسلا دراميا فى ذلك الوقت ، فخطر ببالى أن أضرب عصفورين بحجر واحد. أكتب المسلسل وأفضح توفيق مثلما فضحت عباس. أسميت اللص بطل المسلسل"توفيق عباس" ، حتى يجمع العمل سوءات اللصين معا. كانت الخادمة التى تعمل ببيت توفيق زوجة لأحد العمال المقربين منى.هى توافى زوجها بتقرير يومى منطوق عن لقاءات توفيق بالعملاء الذين يرشونه داخل بيته. ثم ينقل لى زوجها بدوره التقرير بحذافيره. كان من أغرب ما سمعته فى هذا الشأن أن زوجة توفيق كانت تشاطر زوجها مجالسة الراشين، وأحيانا تطلب لنفسها نصيبا من الرشوة رغم أنها لا علاقة لها بشركتنا على الاطلاق.

ما أن بدأ المسلسل يذاع حتى انتشر الخبر فى المصنع وادارة الشركة بين جميع العاملين. انهالت المكالمات التليفونية المجهولة على منزل توفيق يسخرون منه ويسبونه ، كما أبلغ بعضهم زوجته أن توفيق قد تزوج عليها من امرأة تسكن فى العجمى كما جاء بالمسلسل. كنت عضوا منتخبا بمجلس ادارة الشركة فى ذلك الوقت، وكان توفيق عضوا معينا بالمجلس بحكم منصبه. كان يتحاشى مواجهتى أمام أعضاء المجلس عاجزا عن تجاهل نظراتهم الساخرة وتعليقاتهم الموحية

بالشماتة فيما يحدث له من جراء هذا المسلسل الفاضح. مما زاد الطينة بلة أن صدقت زوجته مسألة زواجه عليها. توجهت من فورها الى مدير الاذاعة لتستفسر منه عن اسم وعنوان تلك الزوجة. عبثا حاول المدير افهامها أن هناك فرق بين الواقع وخيال الكاتب، وأن هذه القصة لا أساس لها - فى الحقيقة- من الصحة. بعد تلك الواقعة كان مدير الاذاعة لايسمح بإذاعة أى عمل درامى لى قبل أن أوقع أمامه تعهدا كتابيا بأن الأسماء الواردة بالعمل ليست حقيقية، وأن الاذاعة غير مسئولة عن أى اشكال قد يقع نتيجة لتشابه الأسماء.

هددنى توفيق بتدمير مستقبلى جزاء لما فعلته به، وأبلغنى أنه سيرفع ضدى قضية يتهمنى فيها بتشويه سمعته بالباطل. اتصلت بصديقى رئيس مباحث امن الدولة وحذرته من أن يدعى توفيق أمامه كذبا أنه قريب للمحافظ فوزى معاذ. فى الوقت ذاته أبلغت حبيبى الريس عبد الاله أننى مهدد من قبل هذا اللص، كما اتصلت بثروت أباظة رئيس اتحاد الكتاب أبلغه بالقضية فسمح لى أن انتدب محاميا أختاره للدفاع عنى على أن يسدد الاتحاد نفقات القضية كاملة.

استدعى رئيس المباحث توفيق وعنفه ووجه له انذارا قاطعا بعدم الاقتراب منى بأى شكل وفى أى مكان. أما الريس عبد الاله فقد اقتحم مكتبه بهدوء شديد وأخرج من جيبه مسدسه المرخص- كرئيس للخفراء – ووضعه أمامه على المكتب منذرا اياه بلهجة صعيدية حازمة:

- لو قربت من سعيد سأقتلك بهذه الطبنجة

كانت نهاية توفيق أكثر مأساوية من نهاية عباس ، إذ كان على خلاف شخصى شديد مع المدير الادارى للشركة ، حين استدعت ظروفه التغيب عن الشركة أكثر من واحد وعشرين يوما بدون إذن ، فانتهز المدير الادارى الفرصة وقام بفصله على الفور تطبيقا للائحة. حاول توفيق أن يضغط على رئيس الشركة من خلال وساطات عديدة، لكن رئيس الشركة وجد فى هذا الاجراء القانونى العنيف فرصة لاتعوض للخلاص من هذا الكابوس التوفيقى ، فلم يستجب لأى وساطة على الاطلاق.

أما اللص الثالث الذى تولى ادارة المصنع بعد توفيق فكان المهندس سليم علام. تقرب الىّ بشدة وجعل منى صديقا له داخل الشركة وخارجها. كان يصحبنى معه فى مغامراته الخارجية مع الأجانب الذين يتعاملون مع الشركة، وأحيانا عند لقاء بعض صديقاته ، وكثيرا ما دعانى لتناول الطعام والشراب بالعديد من المطاعم المطلة على البحر. لاحظت أنه فى كل مرة يوقع على فاتورة يخفيها بسرعة فى جيبه. فهمت فيما بعد أن مصنع الاسكندرية للورق هو الذى يدفع الفواتير. ومصنع الاسكندرية هو المنافس الخطير لانتاج مصنعنا ويمتلكه عصامى صعيدى يعمل سليم مستشارا عنده. بذل ما بوسعه لتسهيل اجراءات سفرى الى السويد فى بعثة علمية اختارنى فيها من بين العديد من المتنافسين. فساد هذا الرجل يختلف عن فساد عباس وتوفيق. ما أن أصبحت ملما بوقائع هذا الفساد حتى بدات الخلافات تدب بيننا لكن دون مواجهة صريحة. الحق اننى أجلت المواجهة حتى لايتسبب الصدام بيننا فى وضع العراقيل أمام البعثة وربما الغائها، لذلك أجلت المواجهة لما بعد العودة.

الذى حدث أننى لم أستطع أن أصبر لمدة أربعة أشهر هى فترة بقائى بالسويد ، فبعثت اليه بالخطاب الآتى:

"ستوكهولم فى-/-/١٩٨٠

السيد المحترم مدير عام الشركة..تحية طيبة وبعد،،،

أعلم جيدا ان خطابى هذا لن يسعدك، وحرصا منى على مراعاة مركزك الرئاسى فقد كتبت على المظروف من الخارج ألا يفتح الا بمعرفتك. دعنى أصارحك باننى لم أبتلع الطعم الجميل الذى وضعته لى فى صنارة البعثة، بل يمكنك القول أننى ابتلعت الطعم والصنارة معا، وأن معدتى قد تولت هضمهما تماما. معنى هذا أن خلافنا قد بدأ ولن ينتهى مادمت مصرا على أن تعمل لحساب

الشركة المنافسة لشركتنا وتستغل وقت الشركة وإمكانياتها فى خدمة هذا الغرض ، وتستقبل العملاء فتحيلهم من شركتنا الى الشركة المنافسة وتتقاضى راتبا كبيرا من الشركتين..وأنت تعلم ياسيدى المدير أن قانون العمل بالقطاع العام يعاقب من هم مثلك بالفصل والمحاكمة. على الرغم من ذلك فإنك تستخف بعقول العاملين البسطاء، وتستغل فقرهم واحتياجهم ، فتلحقهم بأعمال مرهقة بالشركة الخاصة لقاء أجور زهيدة يفرحون بها، فتضمن بذلك ولاءهم لك وتستبعد وشايتهم بك للسلطات.

اعلم ياعزيزى المدير العام أننى أرسلت بمعرفتى واحدا منهم ليلتقط لك صورة فوتوغرافية وأنت تنزل من عربتك المرسيدس وتدخل الشركة الخاصة المنافسة من بابها الرئيسى خلال وقت عملك الرسمى بشركتنا ، واعلم ياسيدى أن منهم من يطلعنى يوما بيوم على تفاصيل خيانتك الوظيفية التى تمارسها لصالح جيبك أولا وأخيرا.. انى لا أنسى سخريتك الدائمة من النظام الاشتراكى الفوضوى الذى يحكمنا، والذى تستفيد من سلبياته حتى النخاع. إنى أرفضه لكنى لا أخونه باعتباره مصدر رزقى الوحيد ، بل إنى أنشد التغيير وأسعى الى الاصلاح من موقعى المتواضع. فإذا كنت صادقا بحق مع نفسك فقدم استقالتك على الفور، والا فهذا هو إنذارى الأول والأخير لك ، والذى سوف أتقدم من بعده ببلاغ الى النائب العام. أما عن الترقيات الوظيفية التى تزمع القيام بها- والتى أتتنى تفاصيلها كاملة – فإنى أحذرك أن تتخطانى الى من هو أقل منى كفاءة وخبرة وأقدمية، لأننى سأدافع عن حقى حتى الموت.

سيدى المدير العام

لا أستطيع أن انكر أننى فكرت قبل كتابة هذه الرسالة اليك أن أؤجلها حتى تنتهى الترقيات وآخذ حظى منها. كما فكرت أن أبعث اليك بخطاب شكر على ترشيحك لى لهذه البعثة الرائعة ، وأن أرفق بها كارت بوستال جميل لإحدى مدن السويد المبهرة .. لكنى تذكرت مقولة العقاد:"كن شريفا أمينا ، لا لأن الناس يستحقون الشرف والأمانة، بل لأنك أنت لا تستحق الضعة والخيانة" فقررت ان أسارع بإرسال خطابى هذا اليك.

ملاحظة:

دعنى أعترف بذكائك البوليسى وحسك الأمنى المرهف، فالخادمة التى طردتها من منزلك بلا سبب ، على الرغم من تمسك زوجتك بها ، كانت مصدر معلوماتى عما يتم فى منزلك من لقاءات واتفاقيات غير مشروعة.زوجها عامل بسيط يدين لى بالولاء والمحبة. تحكى له فيحكى لى بدوره ، حتى كونت عنك ملفا كاملا- وهذا ماحدث بعينه مع سلفك توفيق وإن اختلفت الخادمة- ولك الآن ياسيدى أن تختار بكل حرية مابين تقديم الملف للنيابة الادارية أو استقالتك من احدى الشركتين.

ما أن عدت من البعثة حتى أدمجت شركتنا فى شركة كبرى ، وتغيرت ادارة المصانع بالكامل. لم يجد سليم علام مكانا لنفسه فى الادارة الجديدة وقد استشاع نبأ عمله بالشركة المنافسة. بدأ فى إثارة المشاكل مع الادارة، فجمدوا نشاطه حيث كلفوه بوظيفة ادارية تافهة تعد بمثابة عزل تام له عن العمل الحقيقى بالشركة. توقعت أن يستقيل حرصا على كرامته وحفاظا على ماء وجهه ، لكنه رضى لنفسه بالمذلة والاهانة وبقى فى موضعه مثارا لتندر الجميع وسخريتهم، وما هذه الدنيا الا سلام الراكب على الماشى وسلام الماشى على القاعد.

****

●النـــــــداء:

ظللت شطرا كبيرا من العمر لا أفكر فى تأدية فريضة الحج. لم أكن أشعر بأى رغبة فى تأديتها رغم أن امكانياتى المادية قد بدأت فى التحسن فى السنوات الأخيرة من خدمتى بالشركة، فضلا عن توفر بعض الأموال التى تقاضيتها من المسلسلات والروايات والقصص. كلما سألنى أحد عن سبب عزوفى عن تأدية هذه الفريضة أجبته بصدق اننى لا أشعر بالرغبة فى ذلك دون أن أعرف السبب، أو بمعنى أدق:دون أن يكون هناك سبب واضح فى ذهنى أو وجدانى. قال لى قائل ان السبب الحقيقى فى ذلك هو أن وقت ندائى للحج لم يحن بعد، لأنه ما من مسلم يتحمس للحج قبل أن يأتيه النداء من الرسول عليه الصلاة والسلام. رغم ذلك فقد كرست كل طاقاتى المتاحة لتحقيق رغبة زوجتى جميلة فى الحج وكان سياحيا فاخرا برفقة صديقة عمرها فادية. عندما عادت من الأراضى الحجازية ووجهها مشرق بنور جميل، راحت تلح على أن أسارع بالحج قبل أن تحول ظروفى الصحية دون ذلك مع تقدم العمر، فضلا عن الزيادة الملحوظة عاما بعد عام فى تكلفة السفر والاقامة بفنادق السعودية وأداء المراسم المعروفة. قررت أن أبدأ التجربة بعمرة كخطوت تمهيدية للحج بعد ذلك. اتصلت بنفس الشركة السياحية التى سافرت من خلالها جميلة، وطلبت طلبا محددا ألا يكون التوقيت صيفا لأنى لن أحتمل شدة الحرارة هناك. تبين لى أن آخر عمرة هى عمرة رمضان. لم يكن الوقت كافيا ولا مفر من الانتظار حتى بداية العام التالى. قال لى الموظف المسئول:

- **هناك بديل واحد أمامك ، تضمن فيه الزيارة فى الشتاء**
- **ماهو؟**
- **أن تحج فى ديسمبر القادم**

تفجر السؤال المفاجىء فى رأسى:

- ولماذا لا أحج فى ديسمبر؟!!

تكلفة حج جميلة بلغت خمسة وعشرين ألفا من الجنيهات. وجدت نفسى مندفعا الى الشركة السياحية. شعرت أن هناك مغناطيسا قويا يشدنى بإصرار الى الأراضى الحجازية. طلبوا منى ثلاثين ألفا. استكثرت المبلغ. قالت لى جميلة:

- **كلما تأخرت زادت التكلفة. الحق نفسك أحسن لك وتوكل على الله .**

فوجئت بأموال تتدفق على من جهات عديدة كان آخرها بمناسبة توقيع عقد مع المخرجة ايناس الدغيدى لتحويل روايتى"كف مريم" الى فيلم سينمائى...اذن فقد جاءنى النداء!..وسافرت.

فى الروضة استولت على رغبة قلبية أن أصلى هناك. شعرت بسعادة فائقة عندما علمت أننا سنزور النبى قبل التوجه الى بيت الله . ذلك أن رهبتى من البيت الحرام كانت طاغية كزلزال عتى يكاد يعصف بكيانى ، إذ لا أستطيع تصور قدرتى على الوقوف أمامه دون تمهيد قوى مسبق. وكيف أتجرأ على هيبة المحبوب من قبل أن أزيل أدران الوحشة من قلبى وروحى بالتطهر فى نهر محبة الرسول وأنس روضته وجنتها، وأنا الذى يعرف أن الدخول من باب الطاعة أصعب من الدخول من باب الذل، فالباب الأول مزدحم بالخلق.

يكاد الزحام يتحول الى قتال للولوج من مدخل الروضة.مدة زيارة المدينة أربعة أيام. فشلت لثلاثة أيام على التوالى محاولاتى المستميتة للدخول. عقب المحاولة الأخيرة فى اليوم الثالث أصابنى حزن شديد وغم أشد ، فلم أدر بنفسى وأنا أخرج من باب مخالف للباب الذى اعتدت الخروج منه، والذى يقودنى فى يسر الى الفندق. أمضيت ما يقرب من ساعات ثلاث تائها ضائعا فى خضم الملايين من البشر الهائمين فى رحمته،حتى أدمى النعل قدمى الغارقتين فى العرق لطول الاحتكاك.. لم يكن معى ما يدل على رقم هاتف الفندق أو اسم الشارع الكائن به. كل ما أعرفه هو اسمه فقط. سألت عنه فى كل مكان فلم أهتد اليه. طاف بى سائق عربة أجرة حول معظم الشوارع

المحيطة بالمنطقة ولم أتوصل اليه. أخيرا ذهب بى السائق الى مركز خدمة التائهين رافضا ان يتقاضى من أجرا وقال لى قبل أن أنزل:

- الله يعينك أخى

كان جل تفكيرى منصبا على حضرة النبى ، وقد أوشكت أن أومن بأنه يرفض زيارتى له ، فهو من دون شك غاضب منى وأنا الذى لم أستخدم الدنيا لتخدمنى بل خدمتها فاستخدمتنى. اصطحبنى مرافق الى الفندق حيث قضيت ليلتى بين الحزن والخوف والرجاء والأمل. لم يبق أمامى الا اليوم الرابع والأخير.. لقد أمضيت ما يقرب من ستة أشهر أعد نفسى خلالها لهذا اللقاء النفيس بكل ما أوتيت من قدرة على الاطلاع والمثابرة، حفظت فيها طقوس الحج وتفاصيلها. أما أعظم الوقت فكان لدراسة شخصية الرسول وسيرته وأفعاله وأقواله ومواقفه، حتى أصبحت مجنونا بالرغبة فى مشاهدة قبره..لكن آه من هؤلاء الحراس الغلاظ الأشداء الذين يسيطرون على النظام بشدة لاتخلو من عنف، فلا يسمحون لى بالدخول، ويحرموننى من نفحات الحب التى أهفو اليها، وينفطر قلبى اشتياقا لأوصافها الروحية. لست أدرى لماذا انتقيت من هؤلاء الحراس أشدهم جفوة وأكثرهم غلظة. توسلت اليه أن يسمح لى بالدخول مؤكدا على أننى لن أمكث طويلا كما يفعل البعض، وإنما سأترك الفرصة لغيرى بأن أصلى وأخرج مباشرة. قال لى برقة مذهلة وكأنه على علم بما يمور فى قلبى:

- إبق هنا فى مكانك..ستدخل ان شاء الله

فتح الطريق لخروج دفعة من المصلين. فتح الحارس فرجة ضيقة لدخول دفعة بديلة. كنت أردد مرة وراء مرة فى تذلل ولوعة:

- اللهم صل على سيدنا محمد..ضاقت حيلتى أدركنى يارسول الله

وإذا بى فى كسر من الثانية أجدنى أعوم أو أطير- لست أدرى كيف – فوق هذه المجموعات المتلاحمة المتدافعة من الأكتاف البشرية، حتى رأيت نفسى مقذوفا من بينهم داخل أرجاء الحلم فى قلب الروضة.أصابتنى رعدة قوية ورعشة عتية وهزة لاقبل لى بها. انفصلت عن جسدى تماما، وانهمرت فى بكاء لم أعرفه فى حياتى من قبل.

****

● طعم الحيـــــاة:

ظللت من عشاق البيرة حتى زرت بيت الله الحرام وأصبح البعض ينادوننى بلقب الحاج سعيد، فامتنعت عنها مضطرا رغم أن حنينى اليها لم ينقطع. كنت ألجأ اليها بصفة خاصة حين يعترينى الضيق والتوتر أو الشعور بالزهق والاختناق، فترتاح أعصابى وأشعر بانسجام وهدوء جميل. لم يبق لى الا السجائر أنفث فى دخانها قلقى الدائم وتوترى العصابى الداخلى، حتى أصبت بجلطة حادة فى القلب ، فامتنعت عن التدخين خشية الاصابة بجلطة ثانية ستكون قاتلة لو لم أمتنع نهائيا عن التدخين.

بعد حرمانى من متعتى البيرة والسيجارة شعرت بملل شديد من الحياة التى لم يعد لها طعم بعد عجزى عن ممارسة متعة تغييب نفسى عنها وقتما أريد سواء بفعل الكحول أو المخدر المنثور بداخل السيجارة. أنا لا أحب أن أعيش عمرى كله فى نطاق الوعى والعقل والعرف والنظام والخضوع للكوابح والضغوط الاجتماعية والنفسية والدينية. من حين لآخر أحب أن أتحرر من هذه القيود وأنطلق فى خيال فوضوى سعيد ، بعيدا عن مدار العقل، ثم أعود بعد أن أقضى وطرى من هذه المتعة التى لاحد لها. رغم ذلك فأنا انسان أكثر انضباطا وتعقلا من كثير ممن عرفت فى حياتى من كتاب وفنانين ، ربما يرجع ذلك الى طبيعة تكوينى الذهنى العلمى وحبى للكيمياء وتأثرى الشديد بالفكر التجريبى. عموما فالعلم يحتم أن يكون حاصل جمع واحد زائد واحد مساويا لاثنين ، وأنا أقر بذلك تماما، غير أننى أرى فى كثير من الأحيان – بينى وبين نفسى- عن يقين ، أن حاصل الجمع هذا قد يساوى صفرا وقد يساوى عشرة فى بعض الأحوال.

عندما كنت أصطحب زوجتى للعشاء بأحد المطاعم ، فأطلب لنفسى البيرة بمجرد أن أجلس و قبل أن أقرأ قائمة الطعام ، كانت تستاء من ذلك فتبدو على وجهها إمارات الضيق الشديد دون أن تعلن عنه. تجرأت يوما وأعلنت اعتراضها الصريح على ما أفعل من حيث أنه حرام. فى ذلك اليوم أنذرتها بأننى لن أصطحبها معى بعد ذلك لأى مكان لو اعترضت على مزاجى الذى لايضرها ولا يضر غيرها فى شىء، فأنا وحدى المتحمل لوزره أمام الله الذى لم يعينها حارسة أو رقيبة على أفعالى التى سأحاسب عليها يوم الدين. تعاملت مع المسألة بذكاء شديد إذ امتنعت بعد ذلك عن اظهار امتعاضها واعتراضها فضمنت سعادتى بصحبتها الى أى مكان. غير أن بالها لم يهدأ بصفة نهائية الا بعد عودتى من بيت الله. رؤية جميلة للدين رؤية مصرية صميمة تقوم على الاعتدال والوسطية ولا تعرف التشدد أو التطرف. لذلك أجدها شديدة الاعجاب بالدكتور سعد الدين الهلالى أستاذ الفقه المقارن بجامعة الأزهر، والذى يظهر أسبوعيا فى أحد البرامج التلفزيونية يعلم الناس سماحة الدين الاسلامى ويسره وبساطته ونبذه الشديد للغلو والتعقيد والتطرف، وإيمانه بضرورة الاجتهاد وتنوع الآراء. رغم نفورى الدائم من الوعاظ الا اننى أعجبت بهذا العالم الجليل وداومت الاستماع اليه، حتى فوجئت به يصرح يوما لمحدثه أن شرب البيرة حلال باعتبارها خمر غير عنبية مصنوعة من الشعير وأن الحرام هو السكر نفسه. أمام صدمة المذيع ودهشته راح الدكتور يؤكد على مقولته بأن هناك بعض المذاهب تحلله وأخرى تحرمه ولكل انسان حرية الاختيار بين المذاهب الأربعة. ما أن انتهى من حديثه حتى اندفعت صائحا:

- ينصر دينك يا دكتور !!

انطلقت رغبتى الحبيسة فى العودة الى شرابى المعشوق ومزة الجندوفلى وأنا مطمئن أن حجتى لن تضيع بعصيان تعاليم الاله مادام أهل الذكر قد أفتوا بما يعلمون. فى لمح البصر كنت واقفا بالسوبر ماركت الكائن وسط عدة قنصليات أجنبية قريبا من منزلى حيث لا يمكن للألمان أو الأمريكان أن يستغنوا عن هذا المشروب.

بعد أن كسرت حدة الحاجز النفسى بينى وبين فكرة التحريم ، لاحظت على نفسى قلة الاكتراث بهذا الأمر وعدم تهافتى على تناول البيرة كما كان الحال من قبل. بمجرد أن أمتنع سبب الحرمان تضاءلت الرغبة حتى كادت تنعدم، خاصة وأن نديمى الحبيب قد توفاه الله !!

****

-٩-

من أخطر ممارساتى فى الطريق الذى اخترته هنا هو اللعب على حاجة الناس للإيمان بأى شىء. ان المجتمعات التى يغيب فيها الايمان الحقيقى بأى شىء ، يحول صاحب السلطة نفسه الى قضية يدفع الناس الى الايمان بها وتقديم التضحيات فى سبيلها ، وهو الأسلوب الذى اتبعه الطغاة عبر التاريخ باتباع خطوات أساسية ، أولها أن تبقى كل تصرفاته بسيطة ومفهومة لعامة الناس وليس فقط لطبقات معينة منهم ، وثانيها أن يجعل الناس يركزون على ما يرونه أمامهم من أشياء ملموسة وثابتة ولايتركهم للمخاوف التى يشعرون بها، ويجعلهم يغلبون رغباتهم واحتياجاتهم الحسية على أى تفكير عقلى. أما الخطوة الثالثة فهى أن يعطى الناس الاحساس بأنهم يمتازون عن سواهم بشىء ما، مثلما يتميز أتباع كل ديانة سماوية عما سواهم فى نظر أنفسهم وطبقا لاعتقادهم اليقينى، فاليهود يقولون أنهم شعب الله المختار والمسيحيون يقولون انهم أبناء الله والمسلمون يقولون انهم خير أمة أخرجت للناس. والخطوة الرابعة تتمثل فى أن يدارى صاحب القوة دائما مصدر قوته ودخله عن الناس حتى يعطيهم انطباعا دائما بأنه فوق الجميع لأنهم لايعرفون عنه شيئا. أما الخطوة الأخيرة فهى أن يدعم لديهم الاحساس بأنهم أفضل من كل الآخرين وذلك لأنهم فقط يدورون فى فلكه.

ان أخطر شىء فى لعبة القوة هو أن تبدو خجولا أو غير واثق من نفسك. لابد أن تقتحم اى شىء بجرأة وبأقصى ماتملك من قوة اذا أردت أن تضمن تأثيرا حقيقيا على الناس، وبمجرد أن تواجه شخصا تريد التأثير عليه فاحرص تماما على أن تدارى فى داخلك كل ما تفكر فيه أو تشعر به. انس تماما شعور الخجل، لأن عالم القوة لايوجد فيه مكان لمن لايؤمن بذاته وبقدرته الفذة على التفوق على الناس .

بطبيعة الحال لابد – قبل الاقتحام - من رسم الخطط على المدى البعيد وعمل حساب دقيق لمختلف التوقعات ، فالأشخاص الذين يمتلكون القدرة على توقع ماسيحدث والتنبؤ بما سيقوم به الآخرون، يعطون للناس الانطباع بأنهم أقرب الى الرجل الخارق أو السوبرمان الذى يرى دائما ما يختفى وراء الأشياء الظاهرة. وفى الوقت ذاته لاينبغى أن تكون القناعة بأمر ما شديدة القوة لأن كل شىء قابل للتغير، وما يصلح لليوم قد لايصلح للغد.. وخلال المعركة الكبرى لتحقيق النصر لابد من تجاهل المعارك الصغيرة، لأنه تستنزف القوة ولا تؤدى الا الى الفشل. كان بسمارك يركز دائما على هدفه النهائى ضاربا بقوة كل من يحاول أن يشغله بمعركة صغيرة.

على من سيبحث منكم عن القوة أيها الأحفاد يامن حرمت من نعمتكم ، أن يتظاهر بأنه لايبذل مجهودا، فمن أقوى الاغراءات التى

يواجهها انسان هو الاغراء بأن يكشف للناس كم كدح حتى استطاع تحقيق ذلك الانجاز..ولا يستطيع التغلب على ذلك الاغراء الا أصحاب القوة الحقيقية الذين يعرفون أن الصمت والكتمان يكون لهما أقوى تأثير على الناس.

رغم براعتى فى تنفيذ كل تلك الحيل والألاعيب بمهارة وبراعة ، إلا أننى كنت ضحية خائبة لمحتال خطير سرق منى عمرى دون أن أدرى حتى اكتشفت ذلك فجأة بعد فوت الأوان، وأصبح كل ما أملكه لاأجد عمرا أنفقه فيه..انه الزمن!!!..

****

● كابتن القصعي المشهور:
في مرحلة سابقة من عمرى عرفت صديقا غريب الأطوار يسكن فى غرب الاسكندرية. كنت أحبه وأتوق دوما للقائه وقضاء الأمسيات معه فى سيدى كرير الذى يضج صيفا بزحام المصطافين، ويسكنه الهدوء القاتل فى ليالى الشتاء الموحشة. لم أكن قد اعتدت من قبل أن أرتدى الجلباب ، لكنى كنت أرتديه فى الليالى الصيفية حين كنت أبيت معه فى فيلته الأنيقة المحاطة بحديقة جميلة منمقة، مسقوفة بعناقيد العنب، منغومة بوصوصات العصافير والبلابل. فى سهراتنا الليلية بمطاعم الهانوفيل وكازينوهات البيطاش ، ينفق ممدوح النجار بسخاء على الطعام والشراب والمخدرات والأصدقاء. لايمكن أن يسمح لمخلوق أن يدفع فاتورة الحساب، فهو يعتبر ذلك اهانة له. لم أستطع أن أستأصل منه ذلك الداء المكلف وغير المنطقى والذى يجعله يتفنن فى تبديد ثروته على الغير. تبين لى مع الوقت انه محب للظهور والفشخرة رغم ادعائه الظاهرى بأنه زاهد فى مظاهر الدنيا ، وانه ينتمى الى طريقة صوفية لا أتذكر الان اسم شيخها. كثيرا ما كان يؤم المصلين بالمسجد المجاور للفيلا. مظهره الأنيق وملامحه الجادة الوقورة وذقنه الطويلة المهذبة توحى جميعا بأحقيته فى أن يؤم المصلين ، مثلما توحى بأحقيته فى أن يتصدر مجالس كبار شخصيات الحى. أراه فى كثير من الأحيان كريما سخيا مع الفقراء والمحتاجين لحد الاسراف والمبالغة فى العطاء لمن يستحق ومن لايستحق. فى الوقت ذاته كنت ألحظ بوضوح شديد تعامله فى بعض الأحيان بكبر ومن علياء مع من هم دونه من الخلق بطريقة عنصرية ملفتة، فأتعجب من ذلك التناقض الصارخ فى طباعه والذى أرجعه غالبا الى أرستقراطيته الزائفة التى توارثها عن أجداده. سعادته تفوق الوصف حين ندخل معا أحد المطاعم فيهرع المدير أو صاحب المكان اليه مرحبا ، ويتسابق الجميع مسرعين فى اعداد مائدة خاصة له ولضيوفه من أراذل القوم الذين يعيشون – بموافقته - على نفقته بلا مقابل. يختار أفضل المأكولات وأغلاها ثمنا ، وغالبا مايترك نصف ما فى أطباقه من الطعام حين يغادر المائدة. لايرتدى الا أحدث موديلات الملابس ، ولاينزل حين السفر الا فى أفخم الفنادق. رأيت فى صحبته أماكن لم أكن أحلم بارتيادها فى حياتى ، وتناولت أطعمة وأشربة لم أكن أعرف أسماء معظمها.

تساءلت يوما لماذا يتمسك ممدوح بصداقتى ويصر على مصادقتى مهما تعمدت الابتعاد عنه، رغم الفارق الثقافى والاجتماعى الكبير بيننا. تبين لى أن الاجابة الحقيقية تكمن فى كونه نصف فى كل شىء، فهو نصف مثقف يتباهى باستخدام الجمل والعبارات الجزلة التى يظن انها تعبر عن ارتفاع مستواه الثقافى. وهو نصف موهوب يعشق مصاحبة الكتاب والفنانين والالتصاق بهم ، كما انه يدعى أن له مؤلفات أدبية وأخرى دينية معدة للنشر، غير أنه لم يقدم يوما الدليل على ذلك..هو أيضا نصف درويش يشارك فى حلقات الذكر ويغضب ممن يناديه بغير أن يقرن لقب الحاج بإسمه. كثيرا ما تحدث عن رؤيته للرسول عليه الصلاة والسلام فى منامه. يدعى صراحة ان له كرامات خفية لكنه يخشى الافصاح عنها حتى لاتزول عنه.

كونه نصف فى كل ماذكر تجعله فى حالة اصرار دائم على أن يثبت لى – من دون أن أطلب منه – أنه واحد صحيح – مثلى تماما ولايقل عنى فى شىء – رغم احترامه الحقيقى لفكرى وثقافتى وتعظيمه الدائم من شأنى بمبالغة شديدة أمام الآخرين. كثيرا ما كنت أناوشه حتى أتسلى بالكشف عن المزيد من فكره الغامض وعقليته الحائرة بين المتناقضات. سألته يوما ونحن جالسين بالمقهى:

- هل تؤمن بالتواضع يا حاج ممدوح؟

أجاب بثقة مؤكدا:

- لو بحثت فى العالم كله فلن تجد انسانا أكثر تواضعا منى

كان يكذب وهو يعلم أنه يكذب. لم تكن أمامى فرصة لمواجهته لولا أن اقتحم مجلسنا أحد خفراء الشاليهات المجاورة. انحنى أمام ممدوح فى توقير واحترام شديدين وقال:

- هل تشرفنا ياباشا اليوم بحضور فرح ابنى؟

بعد تصريحه الوهمى الأخير ، لم يعد أمامه الا القبول. قال له فى نبرات غارقة فى الكذب:

- طبعا سأحضر وسيكون بصحبتى صديقى العزيز سعيد صادق

نجح فى اخفاء رفضه القاطع للدعوة وصاحبها حتى يبدو أمامى أكثر الناس تواضعا فى العالم كما ادعى.

حين استقبله الخفير وعائلته استقبال الفاتحين نسى كبره وتعاظمه وسيطرت عليه حالة من الفرحة والخيلاء جعلته يدفع "نقطة" غالية جدا للمطربين والراقصات. أراد أن يثبت لى أهميته أكثر مما أثبته حماس الاستقبال، فكتب بقلمه كلمات لم أنتبه لها على ورقة صغيرة ونادى أحد القائمين على الفرح فأعطاه الورقة ومعها مائة جنيه ليعطيها للمطرب كنقطة. لم أكن أعرف أن هذه النقطة ستكون باسمى ، حتى فوجئت بالمطرب يتوقف عن الغناء ملوحا بيده فى فرحة شديدة بالمائة جنيه ثم يتفحص الورقة المرفقة بصعوبة من لايجيد القراءة ثم قال بثقة شديدة:

- تحية كبيرة لكابتن القصعى المشهور سعيد صادق

ذهلت لهذا اللقب الغريب فسألته:

- ماذا كتبت له فى الورقة؟
- كتبت له ان النقطة المدفوعة بإسم كاتب القصة المشهور سعيد صادق

فى نهاية السهرة جاء المطرب ليصافحنى ويشكرنى فسألته:

- هل يوجد بالاسكندرية ناد اسمه القصعى؟
- والله ما أعرف ياباشا
- فماذا تعنى كلمة القصعى؟
- أعرف أن هناك حيا شعبيا يحمل نفس الاسم

لم يهدأ لى بال حتى سألته:

- هل تعرف معنى كلمة قصة؟

نظر الى فى بلاهة قائلا:

- القصة كلها ياباشا انك منورنا ومشرفنا بوجودك

وانصرف مسرعا ، بينما كشف ممدوح عن خبيئة نفسه دون تردد، معتقدا أنه يجاملنى حين قال:

- لهذا أكره التواضع مع أمثال هؤلاء الجهال!

****

● المرحوم حنيش:

يوسف صبرى موظف يعمل تحت رئاستى. دائم النشاط والحركة.لايكف عن الابتسام والضحك لأتفه الأسباب. يعمل بإخلاص لكن بغباء شديد. رغم مؤهله العلمى فوق المتوسط الا أنه لايستطيع القيام بعملية حسابية بسيطة تحتوى على القسمة والضرب. لاينعى هما لشىء على الاطلاق. عقله مفرغ من الحكمة والمعرفة والمنطق. لذلك كنت أستدعيه الى مكتبى لأضحك منه وعليه ، سواء أظل صامتا فأكتفى بابتسامته الطفولية، أو كان منهمكا فى سرد قصة من قصص حياته الغارقة فى التفاهة والتى غالبا ماتجعلنى أنفجر فى الضحك. طالما قلت له باقتناع شديد:

- يا يوسف ، لقد أكرمك الله بأن حرمك من نعمة العقل

فيضحك ويقول بثقة وجدية:

- رغم ذلك فأن واثق أن مستوى تفكيرى فى نفس مستوى تفكيرك وثقافتى فى نفس مستوى ثقافتك

فأوافقه على قوله طالبا منه أن يحكى آخر نوادره. القصة التى مازلت أذكرها عنه حتى اليوم هى قصة المرحوم حنيش التى رواها لى عن صديقه مصطفى شقيق حنيش الذى يحبه حبا شديدا.

مصطفى هذا معتوه مثل يوسف لكنه أمىّ مسكين ، يعانى من آثار مرض قديم جعله يعانى من شلل جزئى وتهتهة فى الكلام ولثغة فى معظم الحروف، ودائما ما يسيل اللعاب من فمه والمخاط من أنفه فيمسحهما بكم قميصه أو جلبابه. يحكى مصطفى ليوسف كلما رآه عن مأساة وفاة أخيه وحبيبه حنيش ، طالبا منه قراءة الفاتحة على روحه. كان حنيش يبيع المناديل الكلينيكس والأمشاط واللبان وخلافه متقافزا بين الأوتوبيسات وقطار أبى قير. حين نقل نشاطه الى ترام البلد على سبيل تغيير باب الرزق ، ازداد ربحه فأكثر من التنطيط بين العربات سعيا وراء المزيد ، حتى انزلقت قدمه يوما فسقط بين العجلات ودهسته الترام.

كان مصطفى يتجول ذات مساء فى الغيطان المحيطة بمنطقة النخيل فى المعمورة بعد عودته اليومية من قراءة الفاتحة على قبر حبيبه حنيش. سمع أصواتا غريبة تصدر عن امرأة. توقف خلف شجرة يتنصت بتركيز فأدرك انه غنج مؤكد. اقترب من مصدر الصوت دون أن يلمحه أحد. كان المشهد مثيرا للغاية ، فهاهى العروس التى لم يمض على زفافها بالحارة شهر واحد، يضاجعها فتى قوى البنيان ضخم الجثة ، لكنه ليس زوجها. انتظر مصطفى صامتا فى صبر حتى انتهى الفتى من مهمته فاقتحم عليهما خلوتهما متسائلا:

- خلاث يا اختى؟".. يقصد خلاص"..خلثت يا سيدى؟

فزعت العروس رغم استهانتها الشديدة بمصطفى فنهرته بشدة:

- إمشى ياوله يامصطفى رح العب بعيد

لم يتحرك فسألته فى جزع لايخلو من احتقار:

-انت عاوز ايه يابنى آدم؟

قال لها فى ثبات:

- ورحمة اخويا حنيش لاذم"يقصد لازم" انام معك حالا
- غر فى داهية والا ضربتك بالشبشب
- اثمعى الكلام أحثن لك بدل ما افضحك

تدخل الفتى وقد انقضت حاجته لينقذ الموقف هامسا لها ببساطة:

- اتركيه يلكلك أى حاجة بدلا من أن يفضحنا

رغم استنكارها الشديد لموقف الفتى إذ رمقته بنظرة احتقار قاسية ، إلا انها استسلمت للأمر الواقع، لكنها لشدة تقززها وقرفها من مخاط مصطفى ولعابه السائل فقد ضمت فخذيها بشدة بحيث يستحيل عليه مضاجعتها. قال لها بحسم :

- لا يا اختى. افتحى لى. ماتتشنجيش. أنا لاذم أتماذج
بالطبع كان يوسف يروى لى هذه التراجيكوميديا وضحكاته تجلجل فى الغرفة ، بينما كنت أمسح دموعى المنسابة من شدة الضحك. لم تستطع العروس الاستجابة بفتح فخذيها فقال لها منذرا بلهجة عسكرية آمرة:
- افتحى أحثن لك
ظلت متشنجة وقد تصلب جسدها الرافض لمصطفى وهى منهارة فى البكاء ندما على الموقف المهين الذى وضعت فيه نفسها. انصرف الفتى حين صاح فيها مصطفى:
- قلت لك ثيبى نفثك (يقصد اتركى نفسك)
أخيرا دفعت ثمن فعلتها بالرضوخ التام له.ما أن لامسها حتى انتهت مهمته.
****
لقد كان لعبارة"ثيبى نفثك ياختى" التى قالها مصطفى أثرا عميقا فى نفس صديقى المقرب مجدى قناوى الذى خلق من هذا الموقف الغريب فكرة فلسفية جديرة بالتأمل.ذلك أن قناوى يتهمنى دائما باننى أعيش عمرى كله بعقلى وحساباته وتخطيطه وتوقعاته، وبالتالى لا أترك فرصة لروحى أن تتحرر من قيوده، ولا أترك لنفسى أدنى قسط من الحرية، فى حين أننى لو تخليت نسبيا عن ضوابطى العقلية وتركت نفسى لنفسى ، أو بمعنى آخر"ثبت نفثى" فإننى سأتمتع بحياة أكثر سعادة وجمالا. لهذا فكلما جد موقف فى حياتى وحكيت لقناوى عن كيفية مواجهتى له قال لى ضاحكا:
- ثيبى نفثك ياختى
****

● أحلام ذئب عجـــــــوز فقد أنيابه :

●● منـــــيرة:

فى يوم من أيام السنة الرابعة عشرة من سنواتى التى تورقت وتحبرت رغم أنفى ، دق جرس الباب. كانت منيرة بنت الجيران. بيضاء كالقشدة تهيج أعصابى كلما حضرت الينا بصحبة أمها. نتبادل الابتسامات فحسب. أرسل اليها نظراتى الخبيثة على موجة مراهق بلهاء، بينما ترسل هى بنظراتها الموحية على موجة الخبرة والمعرفة فلا تلتقى الاشارات. صراخ جسدها بالاغراء كان تلقائيا، وكنت الشاهد الوحيد. فرصة العمر ياولد.

- أين أمك؟

- بالخارج

- وأخوتك؟

- معها

دار الاستجواب على الباب وقلبى يكاد يحتضر تحت قدميها. لم أجد بنفسى الجرأة ولم تواتنى ذرة من الشجاعة كى أدعوها للدخول، لكنها دخلت بجرأة ودون دعوة. فى عينيها حديث أكاد أفهمه لكنى أحوم حوله ولا أستطيع الولوج الى عالمه واقتحام قدس أقداسه. ينتقل قلبى رغم نزيفه الى الفراش الذى استلقت عليه بجرأة أذهلتنى وأطارت عقلى من رأسى.أى قيد لعين ذلك الذى كتفنى أمامها غير الخوف والجبن والحرص وخشية الصد. لو كان الوازع دينيا لاسترحت، لكنه لم يكن كذلك. اللعنة!. لو واتتنى الشجاعة كسرا من الثانية لتسللت يدى ولو للحظة الى جسدها. أى قوة لعينة زرعت فى طفولتى وصباى ذلك التردد المخزى الذى ظل يلازمنى معظم سنين عمرى. لم يكن نداء عينيها يحمل أكثر من معنى. المهم أننى فهمته واستوعبته وبت واثقا منه الى درجة اليقين، اذ تسلل الى شعيرات دمى وتمكن من خلاياها واستبد بها وصال وجال وعربد حتى طفح على خديها المتفجرين بنداء الحياة. لكن الشلل أصابنى بكبرياء الجبن، لست أدرى أم بجبن الكبرياء. كنت على وشك الموت فى تلك اللحظات ، حين فرق بيننا دهر من الصمت الثقيل قبل أن أودعها الى الباب دون أن ألمسها، وكفى تصب علىّ لعناتها وأسمعها تكاد تثقب طبلة أذنى ، فقد حرمتها من لمسة العمر. لم أكن أدرى ساعتها أن الحياة لاتجود بمباهجها على أحد مالم يكن يتمتع بالجرأة والثقة والقدرة على اقتحام المصاعب والأهوال.

****

●● نعمة الصعيدية ولحظة التوقف:

فى قلب هموم النهار وفى بؤرة الصراع اليومى،سقطت حزمة من أشعة تائهة من عينى فى اتجاه غير مقصود. امرأة ذات ملامح لاتنسى جالسة الى مائدة فى بهو المقهى الكبير المطل على الشارع مباشرة. تدخن سيجارة بثقة هادئة. بشرتها سمراء ،هندية الملامح . شعرها أسود طويل لامع.

بلا ادنى تفكير وفى لحظة خاطفة كومض البرق سرقت من الزمن ، قررت أن أبحث عن أقرب موقف للعربات. لا بأس أن يتوقف السعى وراء الحياة الهاربة أبدا ولو لمدة ساعة. ركنت العربة فى مكان قريب. حاولت استجماع ذاكرتى قدر المستطاع أين رأيتها من قبل؟..العمر يتسرب بخبث شديد.أين التقيت بها؟..لامهرب من انكماش الذاكرة بفعل الزمن. هذه المرأة زمن من تاريخ حياتى الطائر وقطعة منه فكيف لا أتذكرها؟..استعرضت فى عجالة علاقاتى بمجتمعات العمل والفن والثقافة والأصدقاء والأقارب، فلم أذكر أين التقيتها من قبل. كان من الممكن ألا ألمحها فإشارة المرور كانت خضراء، ومع ذلك لمحتها بسرعة العربة. كان من الممكن أيضا ألا يستوقف الذهن صورتها من الذاكرة فأستمر وراء سعيى المنهك. الذى حدث أننى بمجرد رؤيتها اهتز فى كيانى شىء ما. شىء دفعنى الى ضرورة التوقف. التوقف عن كل سعى فى الحياة عدا الرجوع الى هذه السيدة.

****

- من يلعب معنا المساكة؟

- حسن وبهجت ونعمة ووحيد والديبة

عشرة سنوات فى الحارة الضيقة الوديعة، حيث البيوت واطئة متلاصقة فى ود شديد. معالمها الواضحة عندنا – نحن أبناء العاشرة – تتمثل فى انتهائها قرب شاطىء البحر. ملمح خطير يجمع شمل عالمنا فى سهولة ويسر ونقاء، فنحن متحابون جدا كما لو كنا إخوة حقيقيين. أنا ابن كامل افندى الموظف بالسكة الحديد. بهجت ابن الحاج حسين تاجر القطن. وحيد ابن عبده السمكرى. الديبة ابن العربى الصياد ، ثم نعمه بنت عم على البواب. فى لعبة المساكة أحب أن اكون المساك لأبدا باقتناص نعمة. دائما تلفت نظرى وتشدنى اليها بحبل من غموض.البنت الوحيدة من بين أربعة من الصبيان. شخصيتها آمرة ناهية تغرى بالانقياد وراءها دون تفكير. تزيد قليلا عن العاشرة. قبل أن يحضر عم على تكون قد سبقته الى البيت بالطابق الأرضى حتى لايراها تلعب مع الصبية وقد غابت الشمس فيغضب منها ويحرمها من اللعب فى الحارة.

****

علمتنى الحياة أن الجرأة الشديدة هى أقصر الطرق لاقتحامها. بعد القنبلة النيوترونية لم يعد الزمن يسمح بانتظار. تقدمت أمام مائدتها بثبات:

- صباح الخير يفندم

قدمت لى ابتسامة لطيفة مصحوبة بشىء من الدهشة. ما أحلى النساء.على وجهها تجلت علامات الاستفسار. ما أروع الاقتحام.

- هل تسمحين؟

لم أنتظر السماح وجذبت مقعدا. ركزت بصرها على سبابتها التى نفضت بطرفها جزءا من رماد السيجارة بالمنفضة. تأملتنى بنظرة أخفت وراءها كبرياءها ، وما معنى الحياة بلا رغبة فى استكشاف المجهول؟..

- أوقفت عربتى خصيصا لأجل أن أعرف أين التقينا من قبل

ابتسمت. لاتبسم الدنيا الا لغازيها. مطت شفتيها بلا مبالاة. صمتت قليلا. خلق الله الدنيا فى ستة أيام. عادت وأخفت عدم اكتراثها. نظرت الى محاولة التذكر.

- هل أنت واثق أنك تعرفنى الى هذه الدرجة؟

- لو لم يكن الأمر كذلك لواصلت طريقى الى لقاء هام كنت أقصده

قالت بابتسامة امتزجت فيها الطفولة بالأنوثة:

- وماذا لو اتضح أنك كنت تعرفنى؟هل سيغير هذا مسار حياة أى منا؟
- هو داء حب الاستطلاع اللعين وليس أكثر من ذلك

تفرست فى معالم وجهها وفى ملبسها. ثمن الثوب الذى ترتديه لايقل عن ألفى جنيه. لايمكن أن تكون هى. لم يصل الاسم بعد الى خاطرى.اللعنة على الزمن. التزمت الصمت. نفثت دخان سيجارتها فى الهواء وهى تنظر باتجاه مخالف لموقعى منها. أغفلت – عن غير قصد - وجودى أمامها. كانت طبيعية جدا فى كل حركاتها وسكناتها. بعد أن طالت فترة الصمت بدأت أشعر بالحرج.

****

لحظة أذان المغرب تمكنت من اقتناصها. الجميع يختفون خلف البيوت المجاورة وفى حناياها الضيقة. تظاهرت بتتبع بهجت بينما رحت أرقب بطرف عينى مكان اختبائها. انزوت فى ركن مظلم ببدروم سراى البشوتى، واثقة أننى لايمكن أن أهتدى اليها فى هذا المكان الذى لايجرؤ طفل على الاقتراب منه، خوفا من حارس السراى الذى كان بالمصادفة غائبا فى ذلك الوقت. يشدنى اليها حبل من الغموض السحرى. يرتجف جسدى بنشوة مبهمة امتزج فيها الخوف بالرغبة. الرغبة فى إمساك نعمة بالذات وليس بأحد غيرها. نظرت يمينا ويسارا بحذر شديد . ببطء تسللت الى بدروم السراى. أذان المغرب يبدد سكون الزقاق. رائحة الجو توحى بالتوجس والظنون. حفيف الأشجار يناجى نسمات الخريف بوشوشات غامضة.

لحظة أن ارتميت عليها لم تصرخ بمرح كعادتها حين تتعرض للمسك. قال لى شعور خفى انها كانت تنتظر تلك اللحظة حتى تستسلم لعاقبتها دون مقاومة. لم تنطق. لم أتحرك. ران صمت طويل وتبودلت أنفاس ساخنة حائرة لفحت الوجهين. اقتحم الصبية المكان لأول مرة يزفهم صخبهم وضجيجهم. بإحساس فطرى ملهم انفصلت عن جسدها على الفور. مضت لحظة صامتة غامضة، لم نلبث بعدها أن اندمجنا فى المجموع.

****

لم أجد بدا من تبديد جو الحرج الذى خيم على الموقف. سألتها بلهجة قاطعة:

- هل أكون متطفلا لو سألتك عن اسم والدك؟

أجابت بنغمة موحية بها شىء من الدلال:

- سؤال أنت تعرف اجابته
- تقصدين انى متطفل..معك حق
- بل أقصد انك تعرف اسم أبى

باندفاع سألتها بلهفة الاستطلاع المستبد بكيانى:

- عم على؟!
- نعم
- نعمة؟!
- نعم

وابتسمت فى سعادة لم ترغب فى إخفائها.

****

فى اليوم التالى لم تظهر نعمة. سأل الجميع عنها ولم أسأل. انويت فى ركن أفكر بذهن يغلفه ضباب كثيف. مزيج من الخوف والنشوة يغذى قلقى المتزايد عليها. لماذا لم تحضر لتلعب معنا ككل يوم؟!..استرعى انتباهنا جميعا – وأنا بصفة خاصة – وقوف عملاق ضخم أمام بيت نعمة. طوله مخيف. بنيانه عريض. وجهه مدجج بعلامات القوة وإمارات القسوة. يرتدى جلبابا فضفاضا فوقه

معطف أصفر. عم على يفتح الباب الملتحم بالشارع ويستقبله باحترام زائد. يتكرر المشهد ذاته لعدة أيام متفرقة ودون أن تظهر نعمه. تحول التكرار بعد ذلك الى طابع الانتظام مساء كل خميس. التقطت أذناى حديثا عابرا بين نسوة الزقاق لم أفهم مدلوله. قالت احداهن:

- البنت فايرة من يومها

قالت أخرى:

- يعمل مخبرا سريا

لم أفهم شيئا لكنى أحسست بقوة أن هذا العملاق قد اختطف منا نعمة الى الأبد. لم أفهم لماذا يعاملنا الكبار بهذا الاستبداد الكريه، فيفسدون علينا أيامنا الجميلة. خطفوا نعمه. تأكد صدق حدسى حين فوجئت الحارة بالكهربائى يعلق المصابيح حول شبابيك وشرفات المنزل. أخيرا ظهرت نعمه. لم نتبين فيها ملامحها التى نعرفها. كانت ملونة الوجه والملبس ، وبدت كامرأة صغيرة مخيفة غريبة عنا . دب فى روحى شعور عميق بالكراهية تجاه العملاق، وأحسست بنقمة عارمة على نعمه التى اختفت من الزقاق الى الأبد.

****

- أما زلت زوجة للمخبر؟

أجابت بابتسامة ساخرة:

- ما كنت أحسب أن رجال العمال المتأنقين تنقصهم دقة الملاحظة الى هذه الدرجة.

أمنت على قولها بالنظر مليا الى ثوبها الثمين. تذكرت أيام الحارة. عاودنى شعور الصغار تجاه الكبار حين يخطفون احلامهم ، فأين ذهب العملاق؟

- الطلاق؟

- بل الموت المفاجىء دون سبب

اذن فقد اقتص لنا القدر فاختطف خاطف نعمه، والناظر فى عين القدر كالناظر فى عين الشمس يبهره ضوؤها ولايقف على كنهها.

- كيف؟

أجابت باستسلام للقوة التى لاتقهر أبدا:

- لعله تخطيط علوى ، وربك وما يريد

كم أنت خادعة أيتها السنين.. أما العمر فهو كالرزق قدر ومكتوب.

- من تزوجت بعده؟

- تزوجت من ضابط كبير ماتت زوجته . كان المرحوم يعمل فى حراسته وخدمته

- واضح انك لا تقعين الا واقفة

أطلقت ضحكة كاشفة عن سعادتها بالاستسلام لتصاريف القدر وقالت:

- زوجى انسان طيب جدا ومحب للناس والحياة

استعدت هدوئى. امتصصت سنوات عمرى المنسحقة فى لحظة التوقف عن السعى.. مجنون من يحاول أن يفهم كل أسرار الحياة. تأهبت للانصراف. فاجاتنى بقولها فى بساطة وثقة:

- هو على وصول الآن..يمكنك البقاء قليلا لأعرفك به

نظرت الى ساعتى فى قلق. فكرت فى عربتى. انتهت لحظة التوقف.

****

●● لـــــــوزة:

فى دهاليز الماضى تقبع"لوزة" بركن سحيق. عربية من الضفة لست أذكر ما الذى جاء بها الى مصر حتى انتهى بها المطاف الى بيتنا تخدم فيه. تعاملها أمى كابنتها ، ومالك الملك يعز من يشاء أويذله، أما أنا العبد العاصى فقد شعرت أمام جمالها الوحشى الأخاذ أن فى كثير من أمور الدنيا حكمة عليا يستعصى فهمها على عقول البشر. نديم التلميذ المنضبط يوارى وجهه خجلا منى. كانت نصف عارية. ألجمت روعة جسدها المثالى لسانى فكاد أن يتدلى من فمى الى الأبد.استسلامها فى رقدتها المستكينة على الأرض أثار جنونى وشياطينى. انشقت الأرض وابتلعت نديم. أما لوزة فبقيت على حالها فى مواجهة صنم آدمى تنتظر أن تدب فيه الروح ليقول أو يفعل أى شىء. ثارت بيننا عاصفة مزلزلة من الصمت المشحون بنذر الفناء. أفاقت على صفعتى – التى فاجأتنى مثلما فاجأتها – فسارعت بارتداء ثيابها امتثالا لغيرتى الكاذبة على الفضيلة.

عندما انفردت بنفسى ندمت على أشياء كثيرة، كان من بينها توهمى أن لوزة تعرت لسيدها ضمانا لتأمين طعامها، والحق أنها كانت لوزة فعلا. أما الحاضر فقد أسفر عن عجوز شمطاء مثرمة الأسنان تهيم فى الشوارع بعقل نصف واع. رأيتها تسير على غير هدى فى الشارع المواجه لبيتنا. آثار الجمال القديم قد انمحت تقريبا لكن الروح باقية. سألتها بفضول قوى:

- هل أنت لوزة؟

نظرت الى فى بلاهة غير مصطنعة وقالت وهى فى طريقها للانصراف من أمامى:

- إزيك يا حاج

مددت يدى اليها ببعض النقود علها تتوقف لتأخذها ، لكنها لم تهتم. لما أصررت على دفع النقود الى يدها لم تنظر فيها. وضعتها فى جيبها وانصرفت خائفة من شىء ما.

عندما هرب نديم من مواجهتى حفاظا على ماء وجهه باعتباره الأخ الأكبر والقدوة، خلا لى الجو مع لوزة تماما. كانت مطيعة للغاية. كما تركت لى جسدها أعبث به على قدر خبرتى الصبيانية الضئيلة ، كان ينتابنى شعور عظيم أكبر بكثير من عمرى وفكرى ونوايای. كنت أشعر تجاهها بشفقة غير عادية ، وتجاه نفسى بدونية حقيرة لأننى كنت أدرك انها لولا احتياجها الى اللقمة والفراش لما وجدت بهذا المكان من الأصل، ولما تعرضت لهذا العبث الذى لايمثل بالنسبة لها أكثر من طاعة أولى الأمر وأبنائهم الصغار. صرت ألتقى بها كثيرا فى حينا الراقى. كلما سألتها:

- هل انت لوزة؟

أجابت وهى شاردة:

- ازيك ياحاج

فى مرة فاجأتها بنداء مباشر:

- لوزة

توقعت أن تلتفت الى لكنها لم ترد. ستون عاما مضت وقد فصلت بين لوزة البدوية ذات الجسد الفينوسى والعينين الناعستين، ولوزة المتسولة فى غير حماس دون أن تدرى أنها تتسول، وسبحان من له الملك والدوام.

****

● معشوقـــــــــاتى :

●● أم رشاد:

كانت أمى تسحبنى من يسراى بيدها الحانية الدافئة وخطواتها القلقة المسرعة، وتحثنى تلقائيا على ضرورة ملاحقتها. الشعور بحماية الأم يحيطنى بطمأنينته ورعايته ،فلا أرى العالم الا من خلال عينيها.

- الى أين نذهب يا أمى؟

- الى تيزة ام رشاد

- لماذا؟

أحبها حين تتجاهل ذكائى لتتهرب من السؤال.ارتباطى الشديد بها يؤكد لى انها سوف تصنع منى شيئا هاما.

- أسرع حتى لا نتأخر عليها فلا نجدها بانتظارنا

لم أكن أعرف لماذا تصحبنى الى هذه السيدة الثرية الغامضة أكثر من مرة كل عام قرب دخول المدارس وقبل حلول الأعياد وفى مناسبات أخرى أجهلها.

تفتح لنا باب الفيلا خادمة أنيقة كنت أحسبها شقيقة أم رشاد أو ابنتها.. بعد أن نجتاز الحديقة الجميلة تصحبنا الى صالة كبيرة يطل شباكها العريض على صفحة الماء الزرقاء بالميناء الشرقى. أسارع الى الشباك. ألتصق بزجاجه لأتفرج على أسراب النورس وهى تحط فى جماعات متعاقبة على رصيف الميناء وصوارى مراكب الصيد العتيقة. تنظر لى أمى نظرة صارمة دون ان تنطق بكلمة واحدة ، فأفهم مغزاها المحدد على الفور وهو:

- اجلس بأدبك حتى لاتغضب منك تيزة

معظم الحوارات بيننا تدور بالعيون. دربتنى بمهارة على أن أقرأ ما بعينيها دون أن تفصح عنه، فتعلمت كيف أرى فى الكون معانى الحب والعطف والرحمة.

دقائق وتعود الخادمة حاملة صينية ملونة عليها فنجان من القهوة وكوب من عصير الفاكهة أرقبه بعينين قريرتين، لكنى لا أجرؤ على الاقتراب منه قبل أن أتلقى نظرة السماح التى أعرفها من عينى أمى، والتى لاتوجهها الى أبدا قبل وصول تيزة أم رشاد..تهل علينا بخطوات هادئة ووجه سمح عاش مايقرب من خمسين عاما فى هناء ورفاهية. لكنى ألمح بنظرة ابن العاشرة حزنا دفينا قابعا تحت العينين الزرقاوتين المزدانتين بنظارة أنيقة.. تأخذ أمى فى حضنها بمودة عميقة فيرتج لحمها الوفير وتبدو لى كطائر أبيض عملاق يحتضن فرخه الصغير فى حنو غريزى..وتثير ملابس حداد أمى تعجبى ، فكيف يأتى وليد أسود من أم بيضاء ناصعة، لكنى أتذكر قول أبى الراحل وهو يردد دائما:

- سبحانه قادر على كل شىء

فى كل مرة تتبادلان القبلات الضاحكة وعبارات الألفة الشديدة بلا كلفة ، وكأنهما عاشتا العمر كله معا..تقبلنى وتغمرنى بالشكولاتة والعملات الفضية اللامعة وتربت على ظهرى، ثم تأمر الخادمة بفتح الشباك لأستمتع بالفرجة على شباك الصيد والفلايك وأشم رائحة الأسماك المنبعثة من حلقة السمك القريبة. أما اليوم فالأمر جد مختلف ، إذ لمحت من مجلسى بالشرفة دموع تيزة أم رشاد تنهال على خديها المتوردين، فتخلع النظارة وتمسح عدستيها بمنديل جميل مطرز. الذى أدهشنى حقا أن أمى كانت تبكى معها ثم تقول بصدق أخناتونى:

- ان شاء الله ربنا يطمئنك عليه ويفك كربه وكربك

ثم كانت آخر زيارة لتيزة أم رشاد والحزن يعتصر كيان أمى ونحن فى الطريق اليها دون أن تنطق بكلمة واحدة. فى الصالة طال انتظارنا. جاءت أم رشاد متشحة بالسواد كأمى تماما. طال عناقهما الباكى الأليم فانفجرت معهما فى البكاء. جاءت الخادمة كى تصحبنى الى الشرفة للفرجة على البحر

فرفضت الدخول بإصرار شديد. توحدت بالحزن قبل أن أعرفه المعرفة الحقة. لم أقو على مد يدى لتناول كوب العصير حين سمعت أمى تقول لها:

- ربنا يصبرك على مابلاكى

****

فى جلسة هامسة بين أمى وسعدية، اختلست مجلسا قريبا منهما مدفوعا بحب استطلاع رهيب. كان الحديث عن تيزة أم رشاد. قالت أمى بنبرة تنسكب همّا:

- أم رشاد هاجرت من مصر صبيحة إعدام رشاد

تساءلت سعدية فى جزع:

- ماذا سنفعل الآن؟

أجابت أمى فى طمأنينة هادئة:

- ربنا كريم

تساءلت سعدية فى ضيق لم يخف دهشتها:

- أنا أتعجب ما الذى يدفع شابا غنيا متعلما وسيما مثل رشاد الى أن يخون وطنه!!

****

بعد مايقرب من ثلث قرن من الزمان تصادف مرورى بالعربة أمام الفيلا. توقفت قليلا شاردا فى عالم الملكوت. كان ولدى الصغير بصحبتي. لفت نظره أننى أحملق بشدة فى المبنى المتهالك والحديقة المهجورة الجرداء بنظرات مكتسية بالوجد والأسى. قال لى ببراءة:

- لم تنظر باهتمام الى هذه الفيلا المهجورة؟

أجبته فى شجن عميق:

- تعال بنا الى مسجد أبى العباس لنصلى معا ركعتين على روح جدتك العظيمة الحاجة تحية.

****

●● أم أنـــــور:

فى حوالى السابعة من عمرى كنت أتحسس بيدى الصغيرتين ساق أم أنور صديقة أمى فى شغف شديد، بينما هى تقهقه ضاحكة. تنهى أمى عن زجرى لوقاحتى وتطلب منها أن أفعل بساقها ما أشاء، قائلة انها سعيدة بذلك لأننى أقدر جمال ساقها وأستمتع بملامسته، فأفرح وأتشجع وأتجرأ وأصعد بيدى واهبط ملتذا بنعومة ذلك الشىء الطرى الأبيض المخروط. تحاول كفى الصغيرة احتواءه من الأمام والخلف ، غير أن اعتزازى بالخلف كان فائقا حيث يزحف السرور فى عروقى، وتسرى فى كيانى الضئيل نشوة غامضة عارمة لا أدرك بواعثها الكامنة، فأنعم بالذوبان فى تلك النشوة وتحتوينى سعادة حارقة تزداد اشتعالا كلما ازدادت ضحكات ام أنور تصاعدا وصهللة حتى تدمع عيناها الواسعتان وتهتز مرحا وسعادة خصلات شعرها الكستنائية. يتعلق بصرى بفمها المكتنز حين يكشف عن صفين من أسنان مبهرة فى بياضها الثلجى ودقة اصطفافها ولمعان طبقة اللعاب الرقيقة على سطحها المصقول..الساق والأسنان والشفتان والضحكات المجلجلة ونظرات أمى الزاجرة، مازالت جميعا محفورة فى ذاكرتى حتى اليوم.. آه أيتها الساق الحبيبة كم أسفت لفراقك طفلا وشابا وكهلا. أنت جزء من تاريخى حتى بعد أن غاب الربيع وتساقطت دموع الشتاء على عمرى. تلك لحظات عاشقة لاتريد – مثلما لا أريد لها – أن تموت.

أصيبت أم أنور بالسكرى وقطعوا ساقها الجميل فغدت صيحات بلبل قد غاب عن زمنه..هى الآن ذرات ضئيلة من رمال تتطاير فى صحراء بلادى الشاسعة، فكيف استحالت النشوة الى عدم؟!..

****

●● أم رجـــــــــب:

كان نصيب أم رجب من عشقى أعظم وأفدح من نصيب أم أنور، كما كان حظى من جسدها أوفى وأكثر. كانت أم رجب كائنا عملاقا بغير مبالغة. تعاقب الغزاة على مصر من فرس ويونان ورومان وعرب وانجليز ، يمكن أن يقدم تفسيرا مقبولا لعملقتها ، مثلما يقدم التفسير لقصر زوجها ذى الشارب الكث الطويل المنتصب من جانبيه فى عناية الى أعلى. فلاحة من طين الجنوب. جمال وحشى يضرب الفقر فى نخاعه بكل ما أوتى من عزم دون أن ينجح فى تشويهه. تغضب من زوجها العجوز الذى لايستطيع حمايتها من بطش ابنه الشاب وصفاقته وبلطجته وكثرة مطالبتها بالمال، فتترك له البيت هاربة الى أمى تحتمى ببيتها وشخصها. تلوذ بهما من ضعف الزوج وتخاذله وقلة حيلته وضيق رزقه وحياته المقفرة الجدباء الخالية من كل شىء عدا حبه العليل لزوجته.

فى الليل لاتتيح لها ظروف المكان الا أن تبيت على فراشى، وكأنما أمضيت من عمرى اثنى عشر عاما فى انتظار تلك الليلة كى تشاركنى فراشى امرأة على مشارف الخمسين يتجاوز طولها طول الفراش ويحتل جسدها العريض معظم عرضه. وحين يتجاوز الليل منتصفه يكون شخيرها قد تجاوز فضاء غرفتى الضيقة ، وعيناى مفتوحتان على اتساعهما أرقب هذا الكنز الضخم من اللحم البشرى الأبيض المتخم بالثراء، وخيالى عامر بدنيا مجهولة الأصل مترامية الأطراف والأبعاد والأعماق والسماوات والأرض. منبهر بكل ما يحيط بها من أسرار يغلفها الغموض. تتسلل عوالمها الخفية فى عذوبة ساحرة الى وجدانى الأخضر الهش، فأدفن جسدى بأكمله حيا ميتا بين ثنايا تلك الثروة التى هبطت على من حيث لا أحتسب..وأظل ساهرا برعشتى الحائرة حتى الفجر، عابدا متفانيا، حتى يسطو على جسدى المنهك سلطان النوم فلا أشعر بزمان أو مكان.

****

●● أم بطـــــرس:

فى حوالى التاسعة من عمرى تصحبنى أمى فى زيارة لصديقتها الثرية أم بطرس. أجلس معها فى غرفة الضيوف ننتظر خروج المضيفة من الحمام. أسمع بعد قليل صوتها الناعم الريان ينادى أمى كى تتسلى معها بالحديث حتى تخرج. تتركنى أمى وتعبر الصالة المؤدية الى الحمام. تتعقبها أذناى وقد استنفرت كل خلايا أعصابها السمعية وراحت ترصد الكلمات المتبادلة بينهما حرفا بحرف.

كان موضوع الحديث فى بدايته غير ذى أهمية عندى ، لكنه مس فى لحظة صلب وجودى بأكمله حين سمعت أم بطرس تقول لأمى فى دلال:

- لا يهمك..انه صغير والتعرية عليه حلال !

كنت حتى هذه اللحظة أكن لأم بطرس حبا من نوع خاص يختلف عن حبى لأم انور وأم رجب وأم رشاد وأمى ، فقد كانت دائمة المرح محبة للضحك والتفكه، كما أن يدها كانت سخية على بالحلوى والنقود. عند سماعى لقولها الأخير شاب شعورى نحوها شىء من القلق، إذ تستهين بى لمجرد أننى صغير لاينتمى الى عالم الرجال حيث يخضع عرى النساء أمامهم للحلال والحرام. غير أن شعورا غامرا بالبهجة قد استولى على شعورى بالقلق واستوعبه فى يسر حين ترامت الى سمعى كلمة التعرية.

لم يكذب حدسى، اذ خرجت أم بطرس من الحمام فى قميص وردى شفاف مازالت نقوشه الرقيقة الدقيقة مطبوعة فى ذاكرتى وكأننى أراها أمام عينى الآن.. وما الفرق بين الحلال والحرام عند أمى والحلال والحرام عند أم بطرس ياترى. ولماذا أقبل حلال ام بطرس وأرفض حلال أمى لو وافق الأمر هواى فكان حراما بأحد المعيارين؟!.. أما ما شف عنه القميص الوردى فقد رأيته فى منامى بعد مضى مايقرب من عشرين عاما على ذلك اليوم. سحب ملونة وفضاء سماوى لاحدود لقبته التركوازية الصافية كالبللور. نافورة تنبعث منها خيوط الماء فى ألوان قوس قزح، وبخور معطر يعبق الفضاء برائحته المسكرة، ودائرة من الغيد الحسان تحيط بى.يلوحن لى بمناديل خمرية وفستقية. يرقصن على موسيقا تنبع من القلب وتصب فيه، وحين تميل قدودهن يفوح عبير أثدائهن الفلية فأطير الى سماوات علا..وتتوسط الدائرة أجمل ما رأيت فى يقظتى ومنامى من جميلات تخصنى بابتسامة من ثغرها ، فأرى الجنة وآكل من ثمارها ويزول عنى الطين فأذوب فى نهر الفناء الأبدى.

جلست أم بطرس وهى تطلق النكات لأمى الواحدة تلو الأخرى، وأمى تحاول جاهدة أن تمهد للحديث فيما جاءت لأجله من أمرحيوى . وبانتهاء الزيارة كان خيالى قد ابتلع أم بطرس تماما بحواسى الخمس وما فوقها من حواس خفية أخرى، حتى أننى لم أستطع تناول الغداء فى ذلك اليوم، فالطين شىء والنار شىء والنور شىء.. ومن الجنون أن ألمس بوهمى حدود المحال.

****

-١٠-

لاتنـدهش أيهـا الأديـب النـابغ حـين أطالـب الأحفـاد المتطلعـين الـى الذرى العالية وقمـم المجـد فـى هـذه الحيـاة ، أن يلعبـوا دومـا علـى أحلام الناس. لاتصف ما أقوله بالجرم والوضـاعة فأنـت تفكـر بطريقـة مختلفة تماما عن الأجيال الجديدة ، والتي قد تجـد فيمـا أقـول مجـرد وجهة نظر فى الحياة جديرة بالتفكير والتأمل.

ان صـانع الخيـالات لابـد أن يغـرى ضـحاياه بـالاقتراب منـه حتـى يشعرون انهم يكادون يلمسون أحلامهم بأيديهم، وفى الوقت نفـسه يبقـيهم بعيـدا عنـه كـى يـشعروا أن أمـامهم الكثيـر حتـى يلمـسوا أحلامهم. وقد تبين أن أكثر مايمكن أن يعطى لخيال الجماهير قوة هو تزايد قهر الواقع لهم ، وبالتالى يبدو كل من يستطيع انتزاع أمل ما أو رغبـة أو رؤيـة متفائلـة مـن بـين أنيـاب الواقـع، أشـبه بمـن يـصنعون المعجزات..وعادة مايسير الناس وراءهم رغم أنهم مخادعين.

من الضرورى البحث عن نقطة ضعف الخصم حتى يمكن النفاذ اليه من خلالها. ولكى نكتشف مثل هذه النقطـة او النقـاط يجـب أن نزكـز على حركات جسده وتعبيرات وجهـه التـى لايـستطيع الـتحكم فيهـا، خاصة خلال المحادثات اليومية التى تكشف عادة عن أشياء كثيرة لـو تم النظر اليها بالشكل المناسـب.لـذا يجـب تـدريب الـنفس أولا علـى الاستماع جيدا الى الناس، وأن تبـدو دائمـا مهتمـا بمـا يقولـون حتـى يتحدثوا اليك بالمزيد..ومن المهم أن تتظاهر دومـا أنـك تتحـدث الـيهم من القلـب، ولحظتهـا سـتعرف كـل مـا يخفونـه فـى قلـوبهم ، وحتمـا ستتوصل الى نقاط الضعف فتسارع بالالتفاف من حولهـا واسـتغلالها أتم استغلال.

يجب أن تتعامل مع الناس علـى أنـك واحـد مـنهم. سـيحاول أحـدهم التعدى عليك فى لحظة ما. لا تـضيع حياتـك فـى محـاولات صـد هـذه الهجمات السخيفة، بل تعامل دائما على أنك أكثر سموا منهم، وكـأن لديك مواهب وقدرات خاصة تؤهلك لكى تنال أكثـر ممـا ينالونـه هـم. أما المكاسب التى لاتـستطيع أن تنالهـا فاعطهـا ظهـرك علـى الفـور واظهر تجاهلك للأشخاص الذين لم تستطع الوصـول الـيهم، لأن هـذا الأسلوب وحده هـو الـذى يمكـن أن يقـودهم الـى الجنـون. سـيردون على تجاهلك هذا بمحاولـة اسـتعادة اهتمامـك وجـذب انتباهـك بـأى ثمن.

لقد تعلـم كـل أصـحاب القـوة بجناحيهـا منـذ فجـر التـاريخ أن يـداروا مـشاعرهم وأفكـارهم التـى تتعـارض مـع مـشاعر العامـة حتـى لايشعرونهم بـالخوف ، لأن النـاس تخـاف مـن أولئـك الـذين يختلفـون عنهم ،فلا جدوى على الاطـلاق مـن مناقـشة الأفكـار الراسـخة فـى أذهانهم.

هناك عنصر جوهرى من عناصر القوة لايمكن اغفاله وهو تعلم اللعب بفن التوقيت، بحيث تجبر الناس على أن ينتظروا دائما خطوتك الموقوتة. انتظر أنت كماشئت وادرس الأمور والأحوال كما شئت، لكن لاتنشغل بالدراسة عن اقتناص اللحظة المناسبة فى توقيتها المثالى، والتى يمكنك أن تطبق فيها كل القوانين التى علمتها لك ، ولكن إياك أن تغفل لحظة أننى ملازم لفراش المرض بعد أن طبقت تلك القوانين بحذافيرها وأغلب ظنى أننى لن أجنى ثمارها أبدا..أخاطبك أيها الحفيد بصراحة ووضوح حتى لاتلقى على باللوم بعد موتى لو وقعت فيما وقعت أنا فيه من محاذير وأخطاء قاتلة لا أتمنى أن تعانى مرارتها.

لقد فكرت طويلا وترددت كثيرا قبل أن أكتب هذه الأوراق الى أخى سعيد وأطلب منه أن يطلعكم عليها ، ومادمت أحذركم كل حين من اتباع نفس طريقى الذى اتبعته فى حياتى، فقد كان من الأجدر إذن ألا أعرض عليه وعليكم هذه التجارب الحياتية التى شاء المرض أن يجعل منها تجربة فاشلة.. لكنى فى النهاية قررت أن أبعث بها اليه وليتصرف بها كيف يشاء، فأنا متعب ومجهد وعلى وشك الانهيار. بعد أن كادت قدرتى على التفكير السليم أن تتلاشى.

... لو عرفت كيف أهتدى اليه هذا المجنون الذى اختفى ولا يريد لأحد أن يصل اليه أو يتصل به ..لو أعطانى فرصة أن أخاطبه ولو بالهاتف لدقائق معدودة أغلق الخط فى وجهه من بعدها مباشرة، لشرحت له فى عجالة فلسفة الاسلام فى قضية المال التى دمرت حياته. المال مال الله وكلنا سنموت ونتركه لغيرنا. هو مجرد وديعة استودعها الله لدينا لأجل مسمى ، وأرشدنا للطرق المثلى للانفاق منها فجنبنا شدة النهم والتكالب والعذاب فى طلب المزيد. أنا لا أفهم ماذا يريد منى هذا الرجل الذى هو شقيقى ورفيق طفولتى التى أراها جميلة بينما يراها ذروة فى التعاسة.

****

● دنيا اللـــــــه:

كان حلم طفولتى الأعظم هو رؤية ولو بلدة واحدة من بلاد الله وخلق الله خارج بلادى. أكرمنى الله – كما يكرمنى دائما – بأن سافرت الى عشرة دول هى الدنمارك والسويد وقبرص وألمانيا وسويسرة وأمريكا والأردن وسورية والعراق والسعودية. ذكرياتى فى تلك البلاد مسجلة بتفاصيلها الدقيقة فى كراسات عشرة. من المستحيل أن أسرد هنا تلك الذكريات فهى تستغرق مئات الصفحات وتستحق كتابا خاصا بها. لكنى وجدت أنه من الممكن أن أختار بعض الأحداث والمشاهد و المواقف من بعض تلك السفريات، والتى أكدت لى أن الانسان هو الانسان فى كل زمان ومكان.

****

●●السويـــــــــــــد:

اعتادت حكومة السويد تقديم منحة علمية سنوية للمهندسين العاملين بشركات الورق فى الدول النامية ومن بينها مصر. عندما رشحتنى الشركة لهذه البعثة كان لابد من تجهيز أوراق عديدة ، على أن تعتمد فى النهاية من وكيل أول وزارة الصناعة حتى يسمح لى بالسفر. كنت أعلم أن هناك وكلاء كثيرين للوزارة فاخترت المهندس رجائى الذى كان رئيسا لشركتنا قبل ترقيته الى هذا المنصب. توقعت أن يسهل على الأمور ويرحمنى من بيروقراطية موظفى الوزارة. كان أصغر رئيس مجلس ادارة بمصر كلها ، إذ عينه قريبه المشير عبد الحكيم عامر رئيسا لشركتنا وهو فى الثانية والثلاثين من العمر. كان ديكتاتورا قاسيا لاتعرف الابتسامة طريقا الى وجهه. رغم ذلك تعاطف معى فى موضوع مسحوق الألومنيوم حين تلقى اخطارا من المباحث الجنائية بتفاصيل الواقعة. قال لى بنبرة اعجاب:

- يعجبنى طموحك وجرأتك، لكن فى المرة القادمة لاتمارس التجارة بإسمك مباشرة

فرحت بموقفه المتناقض مع طبعه المتشدد ، حين واصل كلامه لى:

- سأوقع عليك جزاء صوريا بخصم أربعة أيام من راتبك ، ثم سألغيه بعد عدة أشهر

وقد صدق بالفعل فى قوله. لكنى صدمت بموقفه المتعنت غير المبرر تجاهى فيما يختص بإجراءات سفرى.وضع أمامى عراقيل عديدة فاضطرنى الى العودة الى الاسكندرية عدة مرات للحصول على المزيد من الأوراق والتوقيعات والأختام. عاملنى بكراهية غريبة واستبداد غير مبرر.قال لى كما لو كان سيدا جبارا يخاطب عبدا من عبيده:

- أنا لا أسمح بسفر مهندس بالوزارة دون موافقتى شخصيا حتى لو كان ابن الوزير

كان واضحا أن مقعد السلطة قد ضاعف من جبروته وغروره وتسلطه. التقطتنى موظفة بالسكرتارية حين لاحظت ارتباكى وغضبى. لايمكن أن أنسى اسمها ماحييت.عطيات مرقص. قالت لى بلهجة بنت البلد الأصيلة المعجونة بالشهامة:

- **قدامك مليون وكيل وزارة لكنك اخترت أرذلهم**
- **لم أكن أنتظر منه ذلك أبدا**
- **عد الى الاسكندرية واطلب من شركتك توجيه الخطاب الى وكيل وزارة آخر وسأعطيك بعض الأسماء**

كان الوقت ضيقا وقد بدأ صبرى ينفد ، فضلا عن تحملى المزيد من النفقات غير المتوقعة بسبب كثرة السفر والعودة. فوجئت بى عطيات – كما فوجئت أنا الآخر – بنفسى أجلس الى مكتبها وأطلب منها موسا قدمته لى وهى مندهشة.قمت بكشط اسم المهندس رجائى بالموسى ورجوتها أن تكتب لى أحد الأسماء الأخرى بآلتها الكاتبة. ضحكت قائلة بعفوية:

- والله فكرة عظيمة

تمت الاجراءات بنجاح بعيدا عن مكتب المهندس رجائى ودون العودة الى الاسكندرية.. فى طريقى الى السفر وفى جيبى الباسبورت وتذكرة الطائرة أردت أن أضرب غطرسته فى مقتل بأن أعلمه أننى سافرت رغم أنفه ودون علمه.
كانت وسيلتى لذلك هى إهدائه آخر رواية من مؤلفاتى. تركتها لدى السكرتارية وعليها إهداء يقول:
- نلتقى بعد العودة من البعثة ان شاء الله
علمت بعد العودة أنه وزع منشورا على كل الشركات والمؤسسات التابعة للوزارة بأنه الوكيل الوحيد الذى يسمح بالسفر أو يمنعه لأى مرشح من قبل شركته.
ويشهد ميدان التحرير منظرا فريدا من نوعه. عربة نقل أميرية تابعة للشرطة تعطل فجأة فينزل المتهمون المكدسون بها تحت حراسة الجنود مترجلين حتى مقر دار القضاء العالى بميدان الاسعاف. مجموعة من رؤساء بعض الشركات الصناعية ووكلاء الوزارة من المتهمين فى قضية عرفت باسم قضية الرشوة الكبرى. كان من بينهم الجبار المتجبر رجائى. مشهد بالغ الإهانة لأصحاب المناصب الكبرى والقيود الحديدية تحيط بمعاصمهم. لم يحتمل رجائى الموقف فسقط ميتا على سلم دار القضاء العالى.
بعد عودتى من السويد بعدة سنوات ألفت مجموعة قصصية بعنوان:"أقاصيص من السويد" وضعت فيها تجربتى كاملة فى هذه البلاد ، أنتقى منها قصتى مع فيرينا، وموقفى من بورش .
****
● فيرينا مازالت تذكرنى:
وصلنى خطاب من فنلندة. ظل على مكتبى لساعات طويلة دون أن أشعر بحافز على فتحه، اذ استبد بى شعور بأن فتحه أو تركه مغلقا أمران متساويان، ثم تحول هذا الشعور بعد ذلك الى رغبة فى تمزيق الخطاب دون قراءته مادام الأمران متساويين.
فتحت المظروف وقد مل انتظار أناملى أن تفتح بابه المغلق على وهم ، مهما ظن كاتبه بأهمية ما احتواه من حروف متصلة ومنفصلة.
.....فيرينا نيـــلز!!!
من هى فيرينا هذه؟..ولماذا يصلنى منها خطاب فى هذه اللحظات بصفة خاصة؟.أحقا أنها تلك الفتاة الفنلندية التى فرق بينى وبينها يوما بحر صغير؟..أتسأل عنى بعد مرور ستة عشر عاما على حديثنا التليفونى الحزين حين استحال لقائنا بسبب اضراب عمال الفرى بوت بالميناء الذى يصل بين السويد وفنلندة. تعبر البحار والمحيطات والأزمنة والقارات بكلماتها الحلوة لتطمئن على صحتى وأولادى وحياتى ورؤيتى للمستقبل. كنا نتراسل منذ كنت طالبا فى المرحلة الثانوية ونتبادل الصور والذكريات دون أن يخطر ببال أحدنا لحظة أنه من الممكن أن نلتقى يوما. فجأة وجدت نفسى فى السويد. ما من شىء فى هذه الحياة أكثر استبدادا من الزمن بأفاعيله الغامضة المباغتة. كانت فرحتنا بقرب اللقاء جنونية.أعدت فيرينا كل الترتيبات للقائى ، لكن للأسف حدث الاضراب وتعذر اللقاء ، ومضى الوقت وغادرت السويد دون أن أراها.
..يـــاه!!..
ان أخى الذى يعمل بالخارج لم يبعث الى برسالة واحدة منذ عدة أعوام ، وهو الذى نزل معى الى الدنيا من مكان واحد ، لكن الخيط بيننا انقطع وتبدد. تحدثنى عن ابنتها وقد تخرجت فى الجامعة، وعن زوجها وقد أحيل الى التقاعد ، وعن عملها وقد تركته الى عمل آخر، وعن مدينتها وقد غادرتها الى مدينة أخرى.
..يـــاه!!..
ظللت ألهث بعينى حتى نهاية السطر الأخير من رسالتها ، باحثا عن السبب الرئيسى الذى ربما يكون قد دعاها الى الكتابة الىّ ، فلم أجد غير التحيات والأمنيات الطيبة.

..يـــاه!!..
على الرغم من بعد المكان وبعد الزمان ، فما زالت فيرينا تذكرنى.
****
●صراع الحضارات:
كان مستر بورش رئيس البعثة السويدى عنصريا بفجاجة وإن كان يجتهد فى اخفاء مشاعره الفوقية البغيضة تجاهنا نحن أبناء العالم الثالث قدر استطاعته. بانتفاخ قاتل دعانا يوما لحفل استقبال أقامه لابنه العائد من أمريكا بعد حصوله على شهادة عالمية في تخصص لا أذكره. سارع الجميع الى الحفل فى لهفة. تعمدت البقاء فى غرفتى بالمقر أقرأ رواية لوليم فولكنر حتى غلبنى النوم. فوجئت به يطرق بابى متعجبا لعزوفى عن الحفل. شاهدت هزيمة كبريائه فى عينيه الكاذبتين وهو يسألنى بأدب شديد:
- نحن نفتقدك فى الحفل مستر صادق. سأكون فى انتظارك وأنا مصر على حضورك
وانصرف واثقا من حضورى ولو من باب المجاملة الاضطرارية.كان منزله قريبا من المقر بحيث يستغرق الوصول اليه دقائق محدودة.
بعد انصرافه واصلت النوم بعمق أشد..فى صباح اليوم التالى قال لى بما تبقى فى نبراته من كبرياء جريح:
- فاتتك ليلة من ليالى العمر
وشعرت بلذة الانتصار ، لكنى تعجبت من نفسى، اذ كانت بى رغبة قوية فى حضور الحفل.
****

-١١-

فى عالم صراع القوة يوصف الناجح دوما بأنه الرجل الذى يجيد التحكم فى حياة خصومه بحيث يدفعهم دائما الى فعل مايريد لتدميرهم ، بينما يتصورون أنهم يدمرونه. اياك أن تصرخ أيها الحفيد فى وجه أى شخص لأى سبب. لوفعلت هذا فسوف تشعره بالخوف منك لدقيقة أو دقيقتين ، لكنك ستفقد احترامه لك لسنوات. لاتستسلم لمحاولات الآخرين استفزازك. خاصة تلك المحاولات التى تأتى من خصوم يزاحمونك فى الطريق الى القوة. لابد أن تحرص دائما على هدوئك ونظرتك الموضوعية للأحداث بينما تسعى فى الوقت نفسه الى إثارة جنون خصمك وأنت جالس فى هدوء تراقبه ، لأن كل شخص غاضب دائما يبدو فى نظر الناس سخيفا غبيا لايعرف ماذا يفعل بنفسه وبالآخرين

لقد أدرك كل صاحب قوة أهمية انفاق جزء من ثروته على الناس لاجتذاب اعجابهم..كازانوفا كان يدرك أنه لكى يستميل قلب المرأة لابد أن يفتح لها قلبه ومحفظته فى الوقت ذاته، أما زكريا المرسنلى الصياد فى رواية الياطر فينصح الرجل بوضع أى شىء فى سروال المرأة ولو حتى سمكة حتى يضمن انصياعها له.

تعلم دائما أن تدفع مقابلا لكل شىء يأتى اليك وليس فقط لأى شىء تطلبه. لاتفرح بأى هدية تأتى اليك لأن من يقدمها اليك سوف ينتظر منك خدمة ما فى وقت قد لاتكون مؤهلا فيه لأدائها.لذلك يجب أن تؤمن دائما بضرورة دفع مقابل لكل ما تحصل عليه، وتسارع بدفع هذا المقابل بالأسلوب الذى تريد وفى الوقت الذى يناسبك حتى لايكون لأى شخص فضل عليك.

بطبيعة الحال من الضرورى أن يتواجد بعض المتمردين الذين يثيرون المتاعب فى وجه الباحث عن القوة. والطريقة المثلى لمواجهتهم هى اتباع قاعدة: اضرب الراعى حتى تتفرق الأغنام. ان سياسة عزل العدو عن جماعته ومشاركيه ترجع الى الممالك الصينية القديمة التى كان ملوكها أبرع من يعزلون تأثير المتمردين عن باقى أفراد الشعب. كذلك عندما غزا الأسبان دول أمريكا الجنوبية لم يضيعوا وقتهم فى ضرب الشعوب التى كانوا يواجهونها. من ناحية لأنهم لم يكونوا يمتلكون الوقت ، ومن ناحية أخرى لأن عدد هذه الشعوب كان كافيا لسحق جيوش الأسبان ثلاث مرات على الأقل. لذلك سعى الأسبان الى اعتقال أباطرة هذه الشعوب والسيطرة عليهم تماما، مما جعل امبراطوريات كاملة تستسلم للجيش الأسبانى بسبب القبض على قوادها.

****

●●قـــــــبرص:

● ستافروس يهدى الينا الورود:

المدينـة اسمها بـافوس والفنـدق اسمه سيبراماريس. اصطحبنى المهندس كمـال عبـد الهـادى مـع الخـائن مصطفى المهداوى قبل أن يطلعنى كمـال علـى تفاصيل الخيانـة. الفنـدق يطل علـى البحـر مباشرة. الأشجار والمظلات والمقاعد المصنوعة من ورق الأشجار وكل ما يحيط بالمكـان من طبيعة ساحرة ، وأنغام البوزوكى تتهادى الى الأسماع من بعيد لتبعث النشوة فى كيانى وتعيدنى الى أيـام الـصبا حيـث كانـت تتنـاثر البرجـولات المواجهـة لـشاطىء الاسكندرية فـى الميـادين الدائريـة الصغيرة بكل محطة ، كالابراهيمية وسبورتنج وكامب شيزار. فى المساء كانت تأتى فرق موسيقية من الشباب تعزف على البوزوكى والبزق والجيتـار ، ويـرقص الفتيـان والفتيـات فـى عـالم مشحون بالسعادة والفرح. أنظر الى هذا العالم السحرى بدهشة شديدة، فقد كان ارتيادى لهذه الأمـاكن شبه منعدم ، مـالم يصحبنى أخى الأكبر معه فـى طريقـه الـى مكـان أو موعد مـا. لفت نظرى أن شعب قبرص شبيه بشعب الاسكندرية فى كل شىء تقريبا من حيث الطباع المرحـة والانفتـاح علـى الآخـر وحب البحر والحياة. الفارق الوحيد بيننـا وبينـهم أنهم يقدسون السياحة باعتبارها مصدر رزقهم الرئيسى. خدمة السياحة والسياح تجرى فى دمائهم ويؤدونها بإتقان شديد ومحبة فائقة ولو بدون مقابل. اعتدنا أن يصحبنا سائق اسمه ستافروس بصفة يومية من فندق سيبراماريس الى الشركات والمصانع التى نحددها له. فى يوم إجازة انطلقنـا نلهو بالموتوسيكلات فى شوارع المدينـة فوقع زميلنا المحاسب سامى حنفى بعد أن اختل توازنـه. كسرت ساقه ووضعت فى الجبس. فى اليوم التالى اكتشف ستافروس غياب سامى عن المجموعة وسأل عنـه فعلم بقصته. فى المساء فوجئنـا بستافروس يحضر الى المستشفى ومعه باقة ورد وزجاجة شراب هديـة لسامى كمـا لـو كـان واحدا من أفراد أسرته أو على الأقل صديقا حميما له.

فى مطعم جميل من بين عشرات المطـاعم المتنـاثرة علـى الشاطىء جلست مجموعتنـا يتصدرها المهندس كمال عبد الهادى ورجل أعمـال قبرصى والسمسار الذى يتوسط لنـا فى شراء مصنع مستخدم من مصانع الورق القبرصية.

للرفاهيـة طعم مميز ومذاق غريب. أن تجلس لتنـاول العشاء وأمامك مائدة مزدانـة بـالورود ، عليها أطباق مكتظة بالطيور المشوية كالحمام والسمان والعصافير، وأطباق أخرى عليها تـلال من قطع اللحم الطرى المتبل وعليه الصوص برائحته المثيرة، فتلك متعة لاتدانيها متعة. ومما يضاعف من المتعة أن تكون الصحبة متجانسة متفاهمة ، تعزف معا على أوتار السعادة المتناغمة مع أوتار البوزوكى التى تبعث البهجـة فى المكـان وتعكسها علـى وجوه الحاضرين. هذا ماحدث معى فى قبرص بلا ميالغة. كان عازف البوزوكى متألقا خبيرا بإثـارة رغبـة الشباب والشيوخ فى الرقص. يأكلون تارة ويرقصون تارة أخرى. فى النهاية حدث مشهد لم أر مثله من قبل. توسط أحد العاملين بالمطعم دائرة الرقص حاملا صفين طويلين من الأطباق الصينية الفارغة، وراح يكسر بيده الواحد تلو الآخر حتى تكومت القطع الصينية المكسورة وسط الدائرة على الأرض، حين تعالت صيحات الابتهاج والسعادة من أفواه الرواد وكانت أنسام المحبة تهفهف على القلوب.

قبرص تشبه الاسكندرية فى بعض مناطقها فقط ، لكن روح الاسكندرية تسكنها فى كل مكان. أحببتها كثيرا ولم تفارق ذاكرتى أيامى السعيدة بها، غير أنها تحمل أيضا ذكرى بغيضة الى قلبى وهى واقعة خيانة الصديق . مرت بضع سنوات على تلك الأيام الجميلة ، حين زارنـى سامى حنفى بصحبة زوجته اللبنانية الجميلة. مرت سنوات أخرى وعلمت أن سامى قد توفى تاركا أربعة أولاد. فى البداية شعرت بحزن شديد على فراقه ، لكن اليقين عاجلنى بأننى ميت وكلنا ميتون ، ولا معنى للحزن ، لا على الأموات ولا على الأحياء.

*****

● زجاجة عطيل:

فى يوم دعانا رجل أعمال أردنى الى الغداء فى أحد المطاعم الشهيرة. في ذلك اليوم علمنى صاحب المطعم كيف آكل الجمبرى المشوى بالشوكة والسكين بالطريقة الصحيحة دون أن أفقد أدنى قطعة من لحمه مع القشر. كان الأردنى نفسه يرفض استخدام الشوكة والسكين فى أكل الجمبرى بصفة خاصة والأسماك بصفة عامة، قائلا انه يشعر بلذة فائقة فى استخدام أصابعه ، وأن هذه الوسيلة الطبيعية هى أقرب الى الفطرة من استخدام القطع المعدنية. لست أذكر تماما كيف تحول الحديث الى مشروب النبيذ القبرصى ذى الشهرة العالمية.. لاحظ الرجل أننى أشرب النبيذ باستمتاع غير عادى. استأذن منا قليلا ولمحته عن بعد يخاطب صاحب المطعم ثم عاد على الفور. بعد قليل جاء صاحب المطعم حاملا لفافة داخل كيس أنيق سلمه له. عند انصرافنا سلمنى الكيس قائلا:

- نبيذ أوتللو.. أشهر نبيذ معتق فى قبرص

تأثرت كثيرا بكرمه. شكرته بحرارة ونويت أن أخصص لهذه الزجاجة الثمينة سهرة غير عادية مع النديمين محمد ونسيم اللذين شاءت الأقدار أن يرافقانى فى رحلتى الى أمريكا ، والتى ساتناولها فيما بعد. اتفقت معهما على انتظارى بمنزل نسيم قبل أن أزف لهما بشرى اقتنائى لزجاجة عطيل. طلبت من نسيم أن يعد لنا عشاء فاخرا على شرف هذه الزجاجة بحيث يليق العشاء باستقبال العروس التى سال لاسمها لعابهما معا. الزجاجة كبيرة الحجم تكفى ثلاثتنا كى نمضى ليلة هنيئة نسبح فيها فى بحور الخيال والمتعة. على الهاتف أبلغنى محمد أنه سيساهم فى ادخال السرور والبهجة الينا بعلبة من السجائر المحشوة بالحشيش ننسفها معا ، فنسيم لايدخن رغم أنه يستمتع دوما باستنشاق الدخان الأزرق حين تعبق به الغرفة.

قرب الباب نظرت الىّ جميلة نظرة خبيثة وعيناها على الكيس الذى لم تسأل عن محتواه وأنا على ثقة من أنها تدفع عمرها ثمنا لمعرفة ما بداخله من ممنوعات. ابتسمت لها عرفانا منى بعدم تدخلها فيما لايعنيها. خرجت وأغلقت الباب من خلفى فى سعادة بينما أمنى النفس بقضاء أمسية لن تتكرر. ما أن خطوت خطوتى الأولى على السلم حتى انزلقت الزجاجة من الكيس فانكسرت محدثة صوتا مسموعا. فى لمح البصر فتحت زوجتى الباب لتجد سائلا أحمر اللون ينساب على الدرج وقد انتشرت رائحته الفواحة فى أرجاء البيت. سارعت بمحاولة التغطية على الفضيحة بأن صببت على السلم عدة زجاجات من الماء أعقبتها باستخدام الممسحة الجلدية لإزالة أثر النبيذ من الأرض. كانت النتيجة أن مر سيل النبيذ المخفف بالماء على جميع أدوار المنزل التى تقع تحت شقتنا. لم أحتمل الصدمة. حملت فجيعتى على كاهلى وذهبت متخاذلا منهزما الى بيت نسيم. تحملت سخرية الصديقين من خيبتى ، بل وشاركتهما السخرية من نفسى. انتهز نسيم الفرصة لمجاملتى بتحويل مجرى الحديث الى شكواه المزمنة عن اضطهاد المسيحيين فى مصر ، وعن مقاطعة دور النشر المصرية له منذ أن نشر بعض مؤلفاته الروائية فى اسرائيل متحديا قرار مقاطعة التطبيع الذى اتخذه كتاب مصر. أما محمد فقد كان على عادته مدمنا لخصلة إرضاء جميع الأطراف، فهو يؤيدنى حين أعارض وجهة نظر نعيم ، ويؤيد نعيم حين يعارض وجهة نظرى، أما وجهة نظره هو ، والتى لم يعرفها أحد فقد ذهبت معه الى قبره.

****

●● سويـــــسرة:

● رأيت الله وجنته على الأرض:

لم يكن الهاتف المحمول قد انتشر بعد، حين جاءنى تليفون من المهندس عبد الهادى بالقاهرة. كانت مفاجأة العمر بكل المقاييس. يطلب منى الاستعداد للسفر معه بعد أيام ثلاثة الى سويسرة لتفقد أحد المصانع المستخدمة هناك لاحتمال شرائها. لم أستطع التماسك لفرحتى الطاغية وسعادتى الفائقة. كنت قد قرأت رواية فرانكنشتين بالانجليزية من سلسلة البنجوين والتى كتبتها مارى شيلى. لم أنبهر برواية أجنبية مثلما انبهرت بهذه الرواية التى فاق الخيال وصف مناظر الطبيعة الخلابة بها من شلالات ومساقط مائية وبيوت صغيرة قابعة على قمم الجبال وسفوحها ، تعلوها الأسقف الهرمية القرميدية الحمراء. خلال قراءتى للرواية كنت أتصور بخيالى الواسع جمال هذه المشاهد وأعيش فيها بكل جوارحى كما لو كانت مشاهد حية ماثلة أمام عينى. جاءنى هذا الهاتف السحرى فى يولية١٩٨٦ على غير توقع ولا فى الأحلام. على الفور سارعت بالحصول على بعض المطبوعات عن سويسرة من مكتب الاستعلامات بمحطة سيدى جابر.عرفت أن بها مطارات ثلاثة هم مطار زيورخ ومطار جنيف ومطار بازل.

فجأة وجدت نفسى فى مطار زيورخ ومنه الى الفندق المعجزة شيراتون زيورخ. الفندق يقع فى قلب غابة من الأشجار تحيط به كما لو كانت جزءا منه أو كما لو كان جزءا منها. الاثنان متوحدان منصهران متكاملان فى مشهد طبيعى خلاب لامثيل لروعته الساحرة.. ومن على البعد يمكن رؤية مساقط المياه الخفيفة تنحدر من أعالى الجبال وتصب فى بحيرات صغيرة ، تصب بدورها فى نهر الراين الذى يغذى معظم أوروبا. كنت على يقين من أن البقاء فى هذا الفندق يوما واحدا سوف يطيل عمرى عاما كاملا. كان المهندس عبد الهادى على موعد مع بعض رجال الأعمال فى لندن. فوجئت به يفتح حافظة نقوده ويعد لى بضع مئات من الجنيهات الاسترلينية ويضعها فى يدى قائلا:

- أمامك يومان فى سويسرة تستمتع فيهما بلا عمل حتى أعود اليك

حدث ذلك قبل توحيد العملة الأوروبية، حيث كان الفرنك السويسرى يعادل ما قيمته جنيها مصريا. غيرت الاسترلينى الى فرنكات سويسرية فى البنك الملحق بالفندق. أحصيت مئات الجنيهات التى أصبحت فى حوزتى وحولتها فى ذهنى الى جنيهات مصرية حتى تتضاعف سعادتى.. حجزت أكثر من ثلثى المبلغ للبيت والزوجة والأولاد، أما الباقى فقد قررت أن أستمتع به لأشعر أننى أجنى ثمار عملى ومثابرتى واجتهادى، فمن سعى رعى ومن لزم المنام رأى الأحلام.

التقيت فى الفندق بفتاة فنلندية شديدة الجمال تدرس علم السياحة والفنادق وتعمل جزءا من اليوم بالفندق. أشرت لها الى صورة كبيرة ملونة معلقة على أحد الجدران يمرق فيها قطار ملون جميل وسط غابة من الشجيرات تحيط به من الجانبين. بهرنى المنظر فسألتها:

- كيف أذهب الى هذا المكان؟

نصحتنى بأن أركب القطار حتى نهايته بعد أن شرحت لى كيفية الوصول الى المحطة التى سأركب منها ثم قالت بهدوء:

- سأدعك تكتشف بنفسك مواطن الجمال فى تلك المناطق وعندما تعود نتكلم

أهل زيورخ يحتفلون بذكرى مرور ألفى عام على نشأة مدينتهم بانتشار تماثيل للأسود فى معظم الشوارع، فالأسد هو شعار المدينة ورمزها. يتكلم أهلها بلغات أربع مختلفة.منهم حوالى٢٠% يتكلمون الفرنسية وحوالى٧٠% يتكلمون الألمانية بلهجة مختلفة عن ألمانية الجنوب التى تشكل حوالى٩% من المجموع بينما يتحدث حوالى ١% منهم بلغة غريبة تسمى الرومانشية وهى لاتينية على وجه التقريب..وهذا الشعب يأكل حوالى ١٢٠ صنفا من أصناف الجبن الممتاز.

وقفت على محطة القطار فى أقرب منطقة للفندق.على الرصيف لافتة موضح عليها أسماء المحطات ومواعيد الوصول اليها بالدقيقة. قال لى عجوز واقف الى جوارى ان القطار سيصل فى

تمام الساعة كذا والدقيقة كذا. ظننته يبالغ فى الدقة لكن ما قاله هو الذى حدث بالفعل. عقول السويسريون تشبه ساعاتهم تماما فى النظام والدقة والانضباط. أما الغابات والحدائق والجبال فقد سيطروا عليها وجعلوها مهذبة الأطراف كما لو كانت أشكالا هندسية مدببة الحواف. هذا الانطباع يقلل فى نظرى من جمال المشهد، على عكس ماشاهدت الغابات والحدائق فى أمريكا وفى دول أوروبية أخرى ، حيث يتركونها دون تهذيب من الحواف والأطراف ، فتبدو طبيعية فطرية خالصة ، وبالتالى تكون أكثر جمالا وتلقائية. وصل القطار فى الدقيقة التى حددها العجوز. العربات من الداخل بمقاعدها وأرففها وممراتها ودورات مياهها والكافتريا الملحقة بها، جميعا تنطق بآيات الرفاهية التى ينعم بها هؤلاء القوم. ركبت القطار وعشت أسعد لحظات عمرى وانا أتمتع بالمشهد الذى حلمت به يوم زرت السفارة.

● العـــــرب:

بعد جولة مبهرة بين الجبال والمساقط المائية ، حجزت تذكرة سياحية لرحلة تطوف بالبحيرات السبع. عندما تأملت موظفة الشركة السياحية فى بشرتى السمراء ، حاولت خداعى بأسلوب فج مفضوح حين قالت لى:

- سأحجز لك تذكرة فى الأوتوبيس السياحى على مقعد شديد الخصوصية
- كيف؟
- سأجلسك بجوار فاتنة حسناء ستكون رفيقتك طول الرحلة

حين جلست طبقا لرقم المقعد فوجئت بعجوز شمطاء تجلس بجوارى فتأكدت من صدق حدسى. انهم لايرون فى أهل الشرق – والعرب بصفة خاصة - الا حيوانات آدمية يسيل لعابها على أى امرأة ، ولايتحركون الا بدافع جنسى. يسمون العرب بأصحاب الباءات الأربعة أو الفور بيز four bees أى الصفات الأربعة التى تبدأ بحرف الباء وهى:

١- أصحاب الكروشbelly owners
٢- الارهابيونbombers
٣- سفهاء المشترياتbazar buyers
٤- راقصات هز البطنbelly dancers

والحق اننى – رغم استيائى من سوء ظن المضيفة السياحية بى كعربى همجى – قد استمتعت كثيرا بصحبة تلك السيدة العجوز المحبة للحكمة والعاشقة للحياة، وفى الفترة الزمنية القصيرة التى قضيتها معها تعلمت أكثر من درس فى فن الحياة. فى المساء تجولت عند سفح أحد الجبال. رحت أتأمل بانبهار كيف صنعوا مدقات مستوية دائرية حول محيط الجبل ، تسير عليه العربات مثلما يسير المترجلون. على كل مدق دائرى يوجد سهم خشبى مثبت بالأرض مكتوب عليه اسم المكان والزمن الذى يستغرقه الوصول اليه سيرا على الأقدام أو باستخدام العربة. وتتنوع الأماكن هنا بين مطاعم وكافتريات وملاهى ليلية ومتاحف طبيعية. اخترت مطعما للأسماك على بعد نصف ساعة سيرا على الأقدام حتى أستمتع بالمزيد من المشاهدة والتأمل لشعب من أرقى شعوب العالم وقد سيطر بإتقان شديد على الطبيعة وسخرها لمتعته وسعادته. أعتقد أن هذه الشعوب تفهم جيدا أن الله خلق الحياة الدنيا ليسعد بها الانسان فى أى مكان ، وكل حسب سعيه واجتهاده.

طلبت طبقا من السلمون المدخن الذى أعشقه والذى يباع هنا بسعر زهيد نظرا لتوافره بكثرة. جاءت لى عاملة المطعم بصينية كبيرة مليئة بقطع مستديرة كبيرة من شرائح السلمون المدخن الوردى اللون ، تحيط بها شرائح مستديرة أيضا من البصل. لم تكن العاملة تعرف الانجليزية ولم أكن أعرف اللغة الغريبة التى تتحدث بها والتى ليست فرنسية أو ألمانية، فكان حوارنا كله بالإشارة مع الاستعانة ببعض الجيران فى الموائد القريبة ليكتمل التفاهم بيننا. كلما انتهيت من شرب زجاجة من البيرة طلبت أخرى. تعمقت رابطة الاشارات بيننا حتى انقلبت الى ضحك شديد انعكست

عدواه على الموائد المجاورة حتى صرنا نضحك جميعا من قلوبنا دون أن نعرف من أى شىء نضحك، وإنما هى السعادة حين تحط بمزاجها على الخلق والزمان والمكان. كلما جاءت العاملة حاملة زجاجة جديدة من البيرة قالت لى بلهجة مرحة وابتسامة جميلة كلاما لا أتفهمه، فأقول لها كلاما لاتفهمه هى الأخرى بمزيج من الانجليزية والفرنسية والعامية المصرية المتعمدة حتى تزداد جرعة الضحك. لم آكل وأشرب فى حياتى بهذه الشهية والسعادة وأنا قابع فى قلب جنة من جنان الله على الأرض حيث خرير المياه وخضرة الشجيرات وألوان الورود التى لاحصر لها والوجوه الباسمة السعيدة، وصوت غناء الطبيعة المسموع من تغاريد الطيور الملونة وقهقهات الانسان السعيد. عندما بدأت رأسى تثقل قررت العودة الى الفندق. على بابه التقيت بالفنلندية التى أمطرتنى بالأسئلة عن نتيجة رحلتى التى أرشدتنى اليها. قلت لها بصدق:

- أنا متعب جدا

سألتنى وخيبة الأمل تطل من وجهها:

- وماذا ستفعل الآن؟
- سآخذ حماما وأنام

لم أفكر فيها كامرأة على الاطلاق، رغم ادراكى لميلها نحوى ولسهولة اقامة علاقة كاملة معها حسب تصورى. كانت بى رغبة طاغية مستبدة فى أن أصلى لله الذى خلق هذا الجمال الذى عشته وتلك الجنة التى سكنتها لساعات قليلة. بالغرفة سريران وفى الوسط مائدة صغيرة عليها باقة ورد وطبق ملىء بالفواكه وبطاقة ترحيب بإسمى. بعد خروجى من الحمام فتحت التلفزيون. أغلقته بعد دقيقتين حتى لايخرجنى من حالة الوجد الالهى التى أعيشها. لم أفكر فى اتجاه القبلة وأنا أعلم أننى أينما توجهت فثمة وجه الله. قبل أن أنوى الصلاة وقفت قليلا فى الشرفة المطلة على الغابة المحيطة بالفندق ، فتضاعف انبهارى بجنة الله على أرضه حين لمحت غزالين صغيرين يجريان على البعد. استغرقت فى صلاة تعبدية لم ولن تتكرر فى حياتى. لو لم يكن حراما على لقلت اننى رأيت الله فى هذه الصلاة العبقرية الفريدة التى غسلت روحى بعد تأديتها فى خشوع رائع ، ثم نمت على سجادة الأرض نوما عميقا فى المسافة الفاصلة بين السريرين.

****

-١٢-

هنـاك آلاف الطـرق التـى تـؤدى الـى التفـرد والعظمـة وأغلبهـا لـم يكتشفها الكثيرون. القوة تعتمد على القدرة على سد الفجوات التـى يتركها من سبقك، وعلى جعل صورتها تتلاشى من الأذهان- كما كان الفراعنـة القـدامى يفعلـون بإزالـة صـور وتماثيـل مـن سـبقوهم مـن المعابد – وأعظم طريقة لذلك هو تجنيد الجيل الجديـد الـذى سـتاتى به معك ضد الحرس القديم الذى كان متسيدا قبل ظهورك.

فـى الممالـك القديمـة كـان بعـض الملـوك يبلغـون مـن القـوة حـدا يجعلهم يتصورون أنفسهم فى مراتب الآلهة. وتدريجيا كان اهتمامهم الأساسى يتحول من حماية ممتلكاتهم الى محاولـة الـسيطرة علـى باقى الأفراد. لذا كان من الطبيعى جدا أن يغتال أبناء الملك أباهم ثم يختارون واحدا منهم ليخلفه حتى يضمنوا تأثيرهم عليه وولاءه لهم.

ان لعبة الفوارق بين الأجيال تأتى دائما بأفـضل النتـائج، كمـا فعـل جون كينيدى الذى حرر نفسه من تأثير أيزنهاور الرئيس القـوى الـذى سبقه. لقد قام لويس الرابع عشر بتصرف بسيط حتى يظهر اختلافـه عن الملـوك الـذين سـبقوه ، فبنـى قـصرا جديـدا يقـيم فيـه بـدلا مـن القصور التقليدية ، وواصل اللعبة حتى النهاية فرفض أن يرتـدى تاجـا أو يمسك بيده صولجانا، لأنه أراد أن يـشعر النـاس أنـه يـستمد قوتـه من نفسه وليس من مجرد تقاليد ومظاهر ملكية بالية.

القانون الأخير فى قوانين القوة هـو أنـه لايوجـد قـانون واحـد ثابـت للتعامل مع أى فكرة. المرونة هى التى تربح دائما فى النهايـة ، فمـا كان صالحا من قبل قد لايصلح اليوم وما يصلح اليوم قد لايـصلح غـدا. لذلك عندما تجد نفسك فى صراع أو مواجهة مع شخص جامد شـديد الصرامة فى أسـاليبه وتفكيـره، لابـد أن تتركـه ينتـصر عليـك انتـصارا صغيرا مؤقتا، وثق بأن مرونتـك هـى التـى سـتربح الحـرب كلهـا فـى النهاية. لابد أن يظل هدفك ثابتا فى جميع الأحـوال ، أشـبه بالأشـياء المقدسة التى لايجوز لأحد أن يقتـرب منهـا.. المتغيـر فقـط هـو تنـوع الطرق التى قد تؤدى الى هذا الهدف.

****

لوث فلاسفة القوة عقل أخى فأحالوه الى كائن غير آدمى. وليت الأمر قد اقتصر على ذلك ، وإنما شاءت الأقدار أن يصيب التلوث والعطب جسده أيضا فسقط فى بئر بغير قرار.

****

●● أمريكـــــــا:

بلاد المتناقضات والعجائب:

لم يخطر ببالى يوما أننى سأتواجد أنا وأخى نديم فى بلدة واحدة دون أن يعرف أحدنا مكان الآخر ، ودون أن يكون لدى أدنى أمل فى العثور عليه لوفكرت فى البحث عنه والاهتداء الى مكانه. آلمنى ذلك الأمر بشدة ، ولكنى حاولت أن أتناساه ليقينى أن هناك بهذه الدنيا آلاما أشد وأعتى . غير أننى لم أيأس وتوجهت الى السفارة المصرية فى العاصمة الأمريكية لأسأل عنه ، فأحالونى الى الملحق الاقتصادى المختص. انتفض قلبى فرحا حين قال لى الرجل انه يعرفه فهو – على حد قوله – رجل أعمال شهير . تبادلنا وسائل الاتصال مكتوبة حتى يتوصل اليه فيحيطنى علما.

خلال جولاتى المتعددة بأمريكا اتصلت بالملحق عدة مرات. آخر مرة قال لى:

- انه لايمكث فى مكان واحد..اعذرنى لو تأخرت فى العثور عليه

لم أفقد الأمل ، و بعد فترة اتصلت به تليفونيا من ولاية كنت فى زيارتها. كانت ردود الرجل مرتبكة فقد كان يعانى من حرج شديد وهو يخبرنى أن نديم قال له انه لايعرف أحدا بهذا الاسم!!

الحق أننى لم أفق من هذه الصدمة حتى الآن....

****

على مدى خمسة أسابيع ابتداء من منتصف سبتمبر١٩٨٩ أمضيتها بالولايات المتحدة الأمريكية، زرت ولايات تسع من شمال القارة الى جنوبها ، ومن شرقها الى غربها. جاءتنى الدعوة من وزارة الإعلام الأمريكيةUSIS وهى اختصار لعبارة:United states information service . كان نجيب محفوظ قد تحدث فى برنامج الأمسية الثقافية الذى يقدمه الشاعر فاروق شوشة عن ثلاثة من كتاب الاسكندرية هم محمد ونسيم وأنا، مشيدا بأعمالنا الروائية. التقط منه الخيط الدكتور نبيل خورى مدير المركز الثقافى الأمريكى بالاسكندرية واستند الى شهادته كدافع لدعوة ثلاثتنا الى برنامج IVP أو "الزائر العالمى"International visitor program بدعم من مارك هامبلى القنصل الأمريكى العام بالاسكندرية، الذى كان مشهورا بمغامراته النسائية وصداقاته المتنوعة مع رجال السلطة والثروة فى المدينة، فضلا عن صداقته لأصحاب المحلات الكبرى والمقاهى الشعبية التى كان يجلس بها ليدخن الشيشة كأى سكندرى مخضرم.

كان مرافقنا الدائم فى تلك الزيارة شخصية أمريكية مثالية رغم أنه مصرى الأصل. جمال هلال شاب تجسدت فيه البراجماتية الأمريكية تماما، فهو لايفعل الا المفيد ولايتكلم الا القليل ولايضحك الا فيما ندر. مثقف سياسى من طراز رفيع حاصل على الماجستير فى دراسات سياسية تخص الشرق الأوسط. كان اختياره لمرافقتنا اختيارا عبقريا بوضع الشخص المناسب فى المكان المناسب تماما.

بعد جولة فى متحف التاريخ الطبيعى بواشنطن دى سى ، تناولنا الغداء فى مطعم قريب. تحدث جمال – الذى لم يأكل غير طبق من السلطة- عن أساليب التفكير الرئيسية فى العالم Pattern of thinking فقال ان أفضلها هى الطريقة الغربية والأمريكية حيث تمثل خطا مستقيما يتجه مباشرة نحو الهدف ويعبرون عنها بقولهمHitting the target ، أما طريقة التفكير الروسية فهى وصول الفكرة الى الهدف من خلال خط زجزاجى، بينما تعتمد طريقة التفكير الآسيوية بوجه عام على حصار الهدف بالفكرة التى تحيط به وتلتف من حوله على شكل دائرى ، ويبقى أسوأ أنواع التفكير وهو اسلوب التفكير الشرق أوسطى الذى يعتمد على خطوط ملتوية لاتصل الى الهدف الا بعد عناء.

أردت أن أعاكس نادل المطعم فطلبت منه طبقا من الزنابير ناطقا الاسم بالعربية. نظر الى الرجل فى دهشة وقال:

- عفوا ياسيدى لايوجد لدينا زنابير

وكان نطقه لحرف الراء مضحكا لنا جميعا عدا جمال الذى أثار واقعة إقالة مبارك للمشير أبو غزالة وزير الدفاع. أرجع السبب فى ذلك الى أن الوزير المصرى بالتعاون مع أستاذ جامعى مصرى يعمل فى أمريكا ، كانا يهربان الى مصر مادة تسمى كاربون/ كاربون التى تستخدم فى صناعة الصواريخ طويلة المدى، وذلك دون علم مبارك.

فى مكتبة الكونجرس فوجئت بوجود روايتى المتواضعة"عمالقة أكتوبر" ضمن الكتب الموجودة بالمكتبة ولم أتوصل الى معرفة الجهة التى أرسلتها الى هنا. دار حوار بيننا وبين جورج سالم المشرف على القسم العربى حول علاقة الدولة بالاعلام فى أمريكا. فوجئت بجمال يقول ان الدولة لاتمتلك قناة تلفزيونية ولا اذاعة ولا صحافة ولاشىء اعلاميا على الاطلاق!!..ويقتصر الارسال التلفزيونى الحكومى على السفارات الامريكية بالخارج. ما تملكه الدولة هو السكة الحديد ووزارتى الدفاع والخارجية. أما قرارات الدولة وآراؤها وتوجهاتها فتذاع بواسطة المتحدث الرسمى للبيت الأبيض حيث تنقلها وسائل الاعلام بعد ذلك. أما وزارة الداخلية فمسئولة فقط عن رعاية المنتزهات العامة وصحة الشعب!!!

- وماذا عن البوليس؟
- البوليس قوة محلية لاعلاقة لها بالداخلية
- ومن الذى يحرس المنشآت والممتلكات العامة؟
- هناك شركات حراسة خاصة تكلف بهذه الأمور

حكى لنا جورج قصة غريبة عن أحد القضاة الذى كان يحاكم رجلا ضبط وهو يمارس الجنس مع صديقته فى عربته الخاصة المسددة أقساطها بالكامل على بارك فى الطريق السريع. وقع القاضى فى حيرة لأنه لم يجد فى قانون العقوبات نصا يتعامل مع مثل تلك الحالة، فاضطر الى اصدار الحكم ببراءته من الفعل الفاضح حيث اعتبر العربة ملكية خاصة مثل شقته التى يسكن فيها تماما. لكنه أصدر عليه عقوبة أخرى بتهمة تعطيل الطريق العام بسبب تزاحم الناس وتوقف العربات للفرجة عليهما أثناء الممارسة.

فى نيويورك التقيت بدونالد هيردوك صاحب دار النشر الشهيرة"القارات الثلاث". حكى لنا دونالد باستمتاع غريب قصته مع الكاتب المصرى غير المعروف فى أمريكا والذى اسمه نجيب محفوظ. قال انه أراد أن يعطى فكرة للقارىء الأمريكى عن أهم الكتاب المصريين فى رأيه، فطبع له رواية أو روايتين على ما أذكر وقام بتوزيعها على المكتبات ودور النشر. فوجىء أن أحدا من الناشرين لم يهتم بهذا الأمر نهائيا، كما أن الجميع لم يستجيبوا لرجائه المتكرر بمحاولة الاهتمام بتوزيع هذا الانتاج الجديد للكاتب المصرى غير المعروف.

ثم تمطع دونالد على مقعده ومد قدميه الى آخرهما وقد انبسطت أساريره فجأة وهو يقول:

- ثم حصل محفوظ على جائزة نوبل !!

انفجر فى الضحك وهو يقول انه كان يحتفظ بترجمات انجليزية لبعض من رواياته حصل عليها من الجامعة الأمريكية بالقاهرة، والتى قال لنا محفوظ عنها فيما بعد بالنص الحرفى:

- أنا لولا ترجمات الجامعة الأمريكية كنت رحت فى داهية

قال هيردوك انه كان يبيت فى المطبعة لأيام عديدة متتالية ليلاحق طبع هذه الروايات وقد انهالت عليه الطلبات من نفس الناشرين والموزعين الذين سبق لهم تجاهل دعوته ، يتوسلون اليه فيخاطبهم بعظمة وكبرياء قائلا:

- انتظر حتى يأتى دورك فأسلمك عددا محدودا من النسخ !!

كان سعيدا جدا وهو يحكى عنهم بنبرة مكتظة بالتشفى وروح الانتقام. أهدانى منها روايات أربع هى: أولاد حارتنا ، وكان عنوانها Children of Gebelawy وميرامار وزقاق المدق وحكايات حارتنا التى كان عنوانها:

.Fountain and tomb

فى الصباح اصطحبنا المرافق الى تجمع شعبى شبه نقابى للمحالين الى التقاعد من مقاطعة ديكسون الصغيرة التابعة لولاية الينوى. حضرنا الاجتماع الذى بدأ بأن دق الرئيس جرسا صغيرا فوقف الجميع ينشدون تحية العلم الأمريكى، ثم وقف أحدهم بين الصفوف وراح يتلو بعض الآيات من الانجيل ، ثم عرفهم بنا فصفقوا لنا بمحبة وترحيب. خلال الاجتماع ناقشوا أمورا محلية تخص أحياءهم السكنية. كان من الواضح أنهم أشبه بمجلس محلى مصغر ، لكنه قادر على اتخاذ القرارات واجبار السلطات على تنفيذها فورا. فى ذلك اليوم اتخذوا قرارا بشراء موتوسيكلات طوارىء تخصص للنجدة العاجلة فى الشوارع والطرقات الضيقة.

زرنا متحف جون دير صاحب أكبر مصانع للمحاريث فى أمريكا. سلمونا كتيبا صغيرا يحكى قصة حياة ذلك الحداد العصامى منذ كان صبيا فقيرا غرق والده فى البحر وعاش فى ضنك مع أمه التى كانت تغزل الخيوط باستخدام ابرة التريكو على ضوء مصباح صغير. كان الطفل جون منبهرا بحرف الابرة حين ينعكس عليه ضوء المصباح فيصدر عنه مايشبه الفلاش المتقطع على نوبات زمنية ثابتة. كبر جون ومازالت الحافة المدببة كامنة فى سريرته حتى اخترع المحراث وأقام الشركات الكبرى لصناعته وأصبح من كبار رجال المال والصناعة الأمركيين.

انتقلنا بعربة الى مطار أوهيرا بشيكاجو ثم بالطائرة الى بوزمان بولاية مونتانا الواقعة فى الشمال الغربى من القارة الشاسعة التى أنعم الله عليها من خيراته بغير حساب. من الفندق توجهنا الى مزرعة يمتلكها أمريكى يرتدى زى الكاوبوى كاملا واسمه جورج. يسمون المزرعة Ranch وفيها تربى الأبقار والأحصنة والدواجن وتزرع انواع عديدة من الفواكه والحبوب. يساعد جورج فى المزرعة مجموعة من الطالبات القادمات من ولايات مختلفة نظير أجور مناسبة تعينهم على نفقات الدراسة. وقفت بعيدا أراقب الغزلان تجرى فى الأحراش القريبة حين اقترب منى جورج هامسا فى نبرة صادقة:

- نحن لانعيش من الطبيعة فقط وانما نعيش معها

قالت لى احدى الفتيات حين لاحظت انبهارى بالغزلان انه ممنوع صيدها فى أوقات محددة من العام لاتاحة الفرصة للحمل والتكاثر. دعانا جورج لتناول الغداء ببيته الكائن وسط المزرعة. كانت صدمتى شديدة حين انتهينا من تناول الطعام ونحن نعبر عن امتناننا الشديد لكرم جورج الزائد، واذا به يقول لنا بكل بساطة ودون أدنى حرج:

- حساب كل واحد منكم عشرون دولارا !!!!!

اذن فقد دعانا الى مائدته ولكن على نفقتنا..أنا لا أفهم هذا العالم المادى فى كثير من الأحيان.

أقلتنا طائرة الى مدينة سولت ليك ثم طائرة أخرى الى مطار لاكس وهو اختصار لجملة مطار لوس انجيلوس بولاية كاليفورنيا. توالت نوادر محمد ونحن متجهين الى هذه الولاية، ففى المطار دخل بذهوله المعتاد دورة مياه السيدات دون أن يدرى، حيث فوجئنا بسيدة تخرج صارخة من التواليت فى فزع، بينما لم يدرك محمد مافعله حتى بعد خروجه وصياح السيدة الذى لم يكن يدرى ما سببه. أما فى الطائرة المحلية الصغيرة التى نقلتنا الى مطار لاكس فقد كانت المطبات الهوائية كثيرة فى الطريق ، وربما لم يكن الطيار ماهرا بما فيه الكفاية بحيث يمكنه تفاديها أو التعامل معها بمهارة، لأننا كنا نتعرض كل بضع دقائق الى مايشبه السقوط المفاجىء للطائرة فى الهواء والذى يكاد القلب ينخلع منه خوفا ودهشة. راح نعيم لشدة فزعه يقرأ آيات من الانجيل فى رعب شديد وكأنه على ثقة تامة من أنه سيودع الحياة بعد قليل. أما محمد فقد راح يتنقل فى بلاهة من مقعد لآخر لاعتقاده الساذج أن بعض المقاعد لن تعرضه للاحساس بالهبوط من جراء تلك المطبات. ولأنه لم يستقر على مقعد محدد فى النهاية فإنه دون أن يدرى أثار اشتباه المضيفة فى كونه ارهابيا أو

مجرما من قناصى الطائرات فنهرته بشدة وطلبت منه الجلوس فورا على أقرب مقعد وربط حزامه بدلا من الذهاب والمجىء بطول الطائرة.

لم ينس محمد قبل امتثاله فى رضوخ لأوامر المضيفة أن يتوجه الى نسيم فى ركنه متوسلا اليه فى مكر:

- وحياة النبى يانسيم تقرا لنا ربعين من الانجيل بتاعك لأنى متأكد ان نهايتنا قربت خلاص.

ذهبنا يوما فى رحلة نيلية على ظهر باخرة بنهر المسيسيبى أطول انهار العالم وانتهت الرحلة بزيارة حديقة الحيوان. شربنا وانتعشنا وضحكنا كثيرا أنا ومحمد ونحن نتنقل من مكان الى آخر بالباخرة ، بينما راح نسيم يشكو لشاعر مجهول التقينا به من اضطهاد المسيحيين فى مصر وخاصة الكتاب. عندما عدنا الى الفندق التقطت صورة لتمثال فارس على حصان يمثل آندرز جاكسون الذى أنقذ أورليانز أثناء الحرب ضد انجلترة عام١٨١٥. ولم أكن أعلم حتى ذلك اليوم أن كولومبوس قد اكتشف قارة أمريكا دون أن تطأها قدمه، لأنه توقف عند المكسيك، وكان فاسكو دى جاما قد اكتشف من قبله طريق رأس الرجاء الصالح كبديل للطريق البرى الى الهند التى كانت أهم المستعمرات البريطانية..وما كاد خبر اكتشاف أمريكا يصل الى العالم حتى سارعت دول عديدة بإرسال المستكشفين اليها، كما أرسلت اليها المتمردين والمنفيين فضلا عن راغبى الهجرة من انجلترة وفرنسا وأسبانيا وألمانيا. حدث ذلك تحت الحكم البريطانى الذى كان يجبر المستعمرات المختلفة على دفع الضرائب وشراء منتجاته اجباريا، حتى جاء يوم قرر فيه أصحاب هذه المستعمرات الامتناع عن دفع ضريبة الشاى تمردا على الملك جورج. أرسل الملك جيشا لتأديبهم ، لكن هذا التمرد كان ارهاصا لتحرير وثيقة الاستقلال فيما بعد والتى وقعها جورج واشنطن وتوماس جيفرسون وثلاثة آخرون ، وقد عرف هؤلاء جميعا باسم الآباء المؤسسين: Foundation fathers ، ومن مقولاتى الساخرة ان تاريخ امريكا قد أسسه صبى محامى هو لنكولن وسكير هو سكوت.

فى حوار مع الكاتبة والناشرة الفلسطينية سلمى الجيوشى وكان بصحبتنا المرافق جمال هلال وصديق لهما ، قال الصديق ان أمريكا ودول أوروبا يتعاطفون مع اسرائيل لكونها دولة ديموقراطية محاطة بوحوش من العرب المتخلفين ، ولذلك كانت سعادتهم بالغة بهزيمة العرب الساحقة فى يونيو١٩٧٦، لكن بمرور الزمن بدأت تظهر مؤشرات لتحول ملحوظ للرأى العام عن هذا الموقف وهو اعادة النظر فى التأييد المطلق لاسرائيل فى مقابل العداء المطلق للعرب. وقد أرجع الصديق هذا التحول للأسباب الثلاثة الآتية:

١- مبادرة السادات للسلام مع اسرائيل
٢- غزو اسرائيل للبنان غير المبرر سوى بالعنصرية والاستيطانية
٣- الانتفاضة الفلسطينية

وقال جمال هلال فى حماس: "ان كل الأنظمة العربية بما فيها مصر – عدا الشعب الفلسطينى- قد استفادت من وجود اسرائيل بالمعونات الأمريكية والتى يخص مصر منها ثلاثة ونصف مليار دولار ، لاتدفعها الا لأجل عيون اسرائيل وأمن اسرائيل وليس لسبب آخر.. ان نصف المعونة الأمريكية الاجمالية الموزعة على العالم تستهلكها مصر واسرائيل معا، ولو كانت الحكومات المصرية أكثر وعيا لاستفادت من هذه المعونات فقى اصلاح اقتصادها المتدهور، لكنها تستخدم معظمها لشراء الأكل والشرب للشعب والباقى لشراء الأسلحة."..ثم ضرب جمال مثلا على ذلك بإصرار مصر على الحصول على امتياز تصنيع الدبابة (إم وان) بمصر رغم تهالك مصانع حلوان للحديد والصلب والتى أصر الكونجرس على تحديثها أولا حتى تستطيع انتاج السبيكة اللازمة لماسورة الدبابة، وقال ان اصرار مصر على تنفيذ ذلك المشروع سيجعل الدبابة تتكلف على مصر ثلاثة ملايين دولار، بينما تبيعها أمريكا للعرب بسعر يقل كثيرا عن ذلك.

واستمرارا فى حديثه المنحاز الى اسرائيل قال:" انه لولا اسرائيل لما تمكنت الأقلية العلوية برئاسة حافظ الأسد من حكم سورية رغم ان العلويين لايتجاوزون خمسة بالمائة من الكتلة السورية والتى يشكل السنيون فيها الأغلبية العظمى. وسوريا لاتستطيع ولا تريد أيضا أن تحارب اسرائيل لكنها تردد دائما أنه لاصوت يعلو فوق صوت المعركة ولكن فقط فى الميكروفونات ووسائل الاعلام الخاضعة تماما للحكم والمؤتمرة بأوامره والخاضعة لاتجاهاته.. أما بالنسبة للأردن فلا توجد دولة من الأساس اسمها الأردن ذات تاريخ معروف، لكن الأصل فيها أن التقسيم البريطانى جاء بأسرة سعودية هى الأسرة الهاشمية من الضفة الشرقية لنهر الأردن حيث نجح الملك حسين فى تكوين دولة من لاشىء، ورغم أن كل سكانها من الفلسطينيين الا أنه جنسهم بالجنسية الأردنية، أما نسبة البدو الذين هم عرب هذه المنطقة الأصليين فهى ضئيلة جدا ، وهم فى الواقع أعدى أعداء اسرائيل، كما أن الفلسطينيين أنفسهم يكرهونهم أكثر مما يكرهون الاسرائيليين".

عندما نظرت بالتلسكوب من أعلى برج الامبايرستيت على تمثال الحرية القابع فوق جزيرة صغيرة اسمها جزيرة الحرية، ثار بداخلى تساؤل ملح: "هل أمريكا فعلا دولة تمارس الحق والعدل والحرية مع العالم أم مع شعبها فقط"؟.. وأخيرا اندفع جمال المصرى الأصل الأمريكى الجنسية والروح قائلا:

- ان أساس تخلف العرب هو الدين

نظرت اليه فى دهشة دون أن أعلق على وجهة نظره القاطعة. لم يعبأ بنظراتى وواصل قوله:

- واسرائيل تلعب على هذا الوتر دائما بنجاح شديد فتعمد الى اثارة الفتن والضغائن والحروب بين الشيع والمذاهب الاسلامية والمسيحية المختلفة، ولا ينسى أحدكم أن شارون هو الذى فتح الطريق للموارنة ليتمكنوا من انجاز مذبحة صابرا وشاتيلا بخسة منقطعة النظير.

التقينا بالدكتورة المصرية منى ميخائيل فى مكتبة بوبست الملحقة بجامعة نيويورك، وقد جمعت معظم تحف هذه المكتبة من بيت آل القوتلى بسوريا حيث كان قد اشترى هذه الممتلكات منذ زمن بعيد، كما وضعت نافورة سورية فى المدخل ومن حولها بلاط فسيفسائى على الأرضية من طراز دمشقى فريد.

كانت المفاجأة أن وجدت لى مجموعة قصصية عنوانها"قبلة الملكة" ضمن محتويات المكتبة مسجلة باسمى وهى صادرة عن مطبوعات اتحاد الكتاب العرب بدمشق قبل ذلك بعدة سنوات. أهدى نسيم روايته الأخيرة"بقطر"- الصادرة من اسرائيل- الى الدكتورة منى متفاخرا بأن طالبا اسرائيليا سيحصل عنها على الدكتوراه فى جامعة تل أبيب. فوجىء بأنها اعادت اليه الرواية بغلظة قائلة:

- خذ بلا نيلة !!

تجاهل اعتراضها الصارخ على نشره أعماله باسرائيل قائلا:

- ان البروفيسور ساسون سوميخ أستاذ محترم وناقد عالمى، وقد التقيته بالاسكندرية وأعطيته كل أعمالى لنشرها باسرائيل

قالت له متأففة:

- خل بالك كلهم أوساخ..سيستغلونك سياسيا ثم يلدغونك بعد ذلك

تدخلت فى الحوار مستفزا نسيم عن عمد:

- أنا التقيت بهذا الرجل يوم فرض نفسه على ندوة نجيب محفوظ بسان استفانو ، وهو رجل أقل ما يمكن أن يوصف به – فى رأيى – انه ابن وسخة!!!

ثار نسيم وأشاح بيده غاضبا معترضا على لفظتى البذيئة لكن لم أعبأ به بل على العكس كنت سعيدا.

هو ملكى دائما أكثر من الملك ، ففى الحفل الختامى للبعثة برئاسة مستر جراهام تحدث نعيم عن الأقليات فى أمريكا قائلا انها لاتعانى من أى نوع من انواع الاضطهاد، وأن امريكا تعتبر دولة رائدة فى تعليم شعوب العالم كيف تحترم الأقليات وتحافظ على حقوقهم. لكن جراهام رفض هذا الرأى قائلا ببساطة ان هذا لايحدث فى معظم الأحيان ، فما زالت التفرقة العنصرية موجودة بدرجات متفاوتة فى مناطق مختلفة. لم يرعو نسيم أمام هذه المواجهة القاسية وانما تمادى فى احتقار ذاته ووطنه بأن قال انه كان يعتقد- كما يعتقد سائر المصريين- أن مصر هى أم الدنيا ، لكنه تعلم من أمريكا أن مصر ماهى الا بلدة صغيرة ضئيلة الشأن لدرجة أنه التقى ببعض الأمريكيين الذين لايعرفون أن هناك بلدا على الخريطة اسمها مصر.

فى كلمته التى ألقاها فى الحفل بالغ فى شكر حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بشكل غير لائق، أما محمد فكان أقل مبالغة وكانت الكلمتان مرتجلتين، أما كلمتى فكانت مكتوبة ومعدة سلفا بعناية فائقة، تحدثت فيها عن جودة الترتيب والتنظيم للبعثة، ثم انتقلت الى الموضوعات التى التى أوليتها كل اهتمامى خلال الزيارة مثل الفوارق بين الشعب الأمريكى والشعوب الأوروبية، والفرق بين ممارسة الحرية فى أمريكا وفى الدول النامية مثل مصر، وتأثير الحرية على حياة الانسان وسعادته فى أى مكان، كما تحدثت عن المشاكل الاجتماعية فى أمريكا مع التركيز على الحياة الزوجية والعائلية. كما عبرت عن اعجابى بأقوام جاءوا من أصول مختلفة ومتنوعة ثم نجحوا فى اقامة حياة رائعة فى ظل القانون والدستور. التفرد الأوروبى والتنوع الأمريكى كان أيضا من الموضوعات التى اهتممت بتناولها فى كلمتى. أخيرا تحدثت عن الهموم العالمية المشتركة بين الأدباء فى مصر وأمريكا وكل بلاد العالم رغم تفاوت الامكانيات والقدرات.

فى صباح الأربعاء١٨/١٠/١٩٨٩ غادرنا نيويورك من مطار جون كينيدى الى مطار شارل ديجول بباريس ومنها الى مطار النزهة بالاسكندرية حيث وصلنا يوم الخميس، وكانت هذه الطائرة هى الطائرة رقم١٤ التى ركبتها خلال هذه الرحلة بأكملها.

بعد وصولنا بأيام قلائل فوجئت بمحمد رفيق الرحلة يأتى الى منزلى بأنفاس لاهثة كأنه يحمل فى جعبته أهم نبأ فى الدنيا. فوجئت به يستعجلنى بإلحاح قائلا بلهفة صبيانية تتعارض تماما مع عمره:

- يلا بسرعة..القنصل الأمريكى العام بانتظارنا فى فيلته ، ونسيم سبقنا اليه

صببت عليه جام غضبى من هذا القنصل المتغطرس الذى يطلبنا للقائه على الفور دون موعد مسبق. الحق أننى لم أكن مرتبطا بما يمنعنى من الذهاب ، ولكنى بعد شحنة هائلة من التوبيخ ألقيتها على محمد لشدة تهافته على طاعة القنصل والامتثال لرغبته وأوامره، قلت له أن يخبر القنصل اننى مرتبط بموعد آخر ولن أستطيع الحضور وأنه كان ينبغى عليه اخطارى برغبته فى اللقاء مسبقا. وبالفعل لم أحضر اللقاء ، لكنى – بعد يومين- حضرت المؤتمر الصحافى الذى عقده القنصل بالمركز الثقافى الأمريكى لثلاثتنا حتى نتحدث عن انطباعاتنا العامة عن الزيارة التى استغرقت أكثر من شهر بالولايات المتحدة الأمريكية كأدباء وضيوف على هيئة الاستعلامات الأمريكية.

قبل الحضور أعددت مقالا بعنوان"أمريكا فى عيون مصرية" سلمت نسخة منه يوم المؤتمر الى الصديق الصحافى علاء رفعت بجريدة الوفد وقد قام بنشره فى الجريدة بعد يومين من انعقاد المؤتمر.

استفاض كل من نسيم ومحمد فى كيل المديح للحكومة الأمريكية وسياساتها الدولية والاطراء على النعيم الذى يتمتع به الشعب الامريكى من حرية ورخاء ورفاهية. لم يتعرض أحدهما لأمريكا بكلمة نقد موضوعية واحدة.

أهم ماجاء بكلمتى أن أمريكا كانت وما زالت وستظل منحازة لاسرائيل على حساب المصالح العربية. أعقبت ذلك بتحديد بنود أربعة سبق أن أرسلتها مكتوبة الى القنصل الأمريكى الحالى والذى سبقه أيضا. تؤكد هذه البنود صحة ادعائى الذى أطلقته فى البداية عن الانحياز الأمريكى المطلق لاسرائيل. ذكرت فى البند الأول تصريح الرئيس الأمريكى رونالد ريجان الغريب والمثير للغيظ بأن الانتفاضة الفلسطينية ليست انتفاضة شعبية كما يدعى العرب، وانما هى أعمال اجرامية بتحريض خارجى!!!.. ثم أشرت فى البند الثانى الى الواقعة المخزية بتصويت امريكا فى الممم المتحدة بالموافقة على قرار يلغى قرارا سابقا كان قد أقر بأن الصهيونية حركة عنصرية، كما نوهت فى البند الثالث على مهزلة اجبار مصر على التوقيع على اتفاقية الحظر النووى دون أن توقع اسرائيل عليها بمباركة ودعم أمريكى.. وأخيرا تحدثت عن مغزى نقل سفارة أمريكا فى اسرائيل من تل أبيب الى القدس باعتبارها العاصمة الموحدة لاسرائيل. وبالطبع لم أغفل فى خطابى ذكر المناطق المضيئة فى الحياة الأمريكية والتى تطمح كل دول العالم فى أن تنال حظا مثلها من السعادة والحرية والرخاء.

كان القنصل السعودى بالاسكندرية يتابعنى بنظرات ملؤها الاعجاب والتقدير، بينما كان بعض المصريين فى دهشة بالغة واستنكار لما أقول. ما أن وصلت الى المنزل حتى جاءتنى مكالمة هاتفية من السيدة آمال سرحان الرئيسة المصرية للمركز الثقافى الأمريكى. كانت تخاطبنى وهى فى منتهى السعادة مرددة المثل الشعبى المصرى القائل:

- ستى لئيمة وأنا ألئم منها..تعد اللحمة وانا اقطع منها!!

كانت تقصد أننى رغم كل ماقلته لم يغضب الأمريكان منى لأنهم يتمتعون بثقافة اختلاف الرأى دون غضب ، وقد أكد لى صحة رأيها القنصل الثقافى الأمريكى نبيل خورى حين سألته:

- هل أغضبكم اعتراضى الواضح على سياستكم فى الشرق الأوسط ؟

ضحك بخبث عربى أمريكى ثم قال:

- اننا لسنا بحاجة لمن يمتدحنا، لكننا بحاجة الى من ينتقدنا حتى ننتبه الى عيوبنا ونصلحها
- وما قولك عن المصريين الذين غضبوا منى واعتبروا تصريحاتى بمثابة نكران لجميلكم ؟
- انهم يريدون أن يكونوا ملكيين أكثر من الملك.

****

●رســـــائل من عالم الملكوت :

قلت من البداية انه استرسال، وهكذا أسميت روايتى – أو ان شئتم تقاسيمى الروائية- قبل أن أخط فيها حرفا. إذن فلا يلومننى أحد حين لا ألتزم بتسلسل زمنى، او أنسى بفعل الشيخوخة فأكرر ذكر حدث سبق أن ذكرته فى موضع سابق. ان من يصبر على قراءة استرسالى حتى نهايته سوف يعد فى نظرى من الأبطال ، فضلا عن أننى لن أنسى جميله مدى الحياة لو أعاد ترتيب فصول هذه الرواية بمعرفته حتى يأنس اليها ويحبها.

أريد أن أقول ان هناك رسائل شفرية عديدة ترسلها السماء الى الانسان، وصاحب الحظ السعيد هو الذى يحسن استقبال هذه الرسائل، فلا تمر عليه دون أن يدرى بها. صاحب الحظ السعيد هذا لابد أن تكون مرآة قلبه السليم مصقولة بالتنقية والتخلية، متخلصة تماما من حجب الدنيا المتغيرة والزائلة، والمتمثلة فى صور ومظاهر الجمال النسبى فى الكون. حينئذ يستقبل قلبه الأنوار العلوية من شمس الحقيقة الكلية وأصل الجمال الأزلى الالهى فى يسر ودون عناء، ليكون من السعداء المحظوظين فى الدنيا والاخرة.

رغم أخطائى البشرية التى لاتعد ولاتحصى ، الا أن الله قد وهبنى جهازا شديد النقاء والحساسية أستقبل به الرسائل الواردة الى من جلالته الى شخصى الضعيف على الوجه الأكمل ، حتى لو لم أستجب لدواعيها..وكثيرا ما أقول لأصدقائى ان ربنا"مدلعنى" أى أنه يدللنى كثيرا فوق ما أستحق من رعاية وعناية وتدليل.

من تلك الرسائل الهامة ليلة أن تمنيت الموت لشدة الألم الذى ظل يعتصر صدرى فجر ليلة من ليالى نوفمبر الباردة ومع ذلك فقد كنت أنوى تحمل الألم حتى يطلع النهار فأتوجه الى المستشفى ، لكن جميلة أصرت أن ننزل على الفور وكانت الساعة تقترب من الرابعة والشتاء ينهمر بشدة. أوقفت "تاكسى" وذهبنا الى أقرب مستشفى خاص. قال الطبيب انها جلطة حادة بالقلب فسقطت جميلة مغشيا عليها. عندما أفاقت شكرتها الطبيبة على اصرارها على سرعة احضارى فور حدوث الأزمة. قالت انها لو تأخرت ساعة أو أكثر لحدثت لى كارثة. أنا واثق أن السبب المباشر لحدوث هذه الجلطة هو شدة ألمى وأنا أكتب رواية الحب والزمن مسجلا وقائع الفساد العظيم الذى ساد عصر مبارك. ولسوف أكتفى بذكر واقعة واحدة من وقائع الفساد التى أدمت قلبى ، إذ أمر رئيس مجلس ادارة شركة خدمات البترول الجوية بإعداد طائرة تسع خمسين فردا، جهزت بأحدث أطقم"السرفيس" المستوردة لزوم السادة ركاب هذه الطائرة ، دفعت تكلفتها من المال العام المتروك فى يده، كما لو كان ملكية خاصة، وذلك لنقل وزير البترول وأسرته، ونائب رئيس مجلس الوزراء وأسرته، من القاهرة الى مرسى مطروح لقضاء المصيف هناك.. ويا الهى فقد نسيت زوجة الوزير حقيبتها بالقاهرة، وعلى الفور أصدر سيادته أمرا بإقلاع طائرة أخرى سعة اثنين وخمسين راكبا لحمل حقيبة الهانم فقط واعادتها الى مرسى مطروح..وقد أقلعت الطائرتان فى اليوم نفسه خاليتين بلا ركاب!!.

نشرت الرواية فى يونيه ٢٠٠٧ على حلقات مسلسلة بجريدة الدستورالمصرية، حيث لم يكن يجرؤ رئيس تحرير جريدة معارضة فى مصر – عدا ابراهيم عيسى - أن ينشر مثلها على الاطلاق ، وأنا لايمكن أن أنسى توسلات زوجتى ألا أنشرها ، محذرة إياى من السجن والضرب والتعذيب ، حيث كانت سلطات الأمن التى لاتعمل الا فى خدمة الرئيس وأسرته ، فى حالة سعار جنونى ضد الفكر والمفكرين والكتاب المعارضين الأحرار ، وحيث كانت حالتى الصحية فى الحضيض على أثر الجلطة التى داهمتنى بمجرد الانتهاء من كتابة الرواية..كان ردى عليها بالحرف الواحد:

- أموت وتنشر هذه الرواية ، لأنها لو لم تنشر الآن سأموت بالفعل !

ثم أعطيتها كشفا بمجموعة أسماء من أصدقائى الصحافيين الأحرار ، مازلت أحتفظ به حتى اليوم، طالبا منها الاتصال بهم بعد اعتقالى ، لإعلان الخبر على الرأى العام .

الجديد فى تجربتى مع "الحب والزمن" دونا عن سائر رواياتى السابقة ، هو أننى كنت طوال كتابتى لهذه الرواية ، وطوال نشر حلقاتها الثلاثة عشرة أسبوعيا بجريدة الدستور، أتخيل رجال الأمن والمباحث وهم يقتحمون بيتى فجرا كما اعتادوا بحقارتهم ودناءتهم منذ أن ابتليت مصر بحكم العسكر ، ورغم ذلك فقد انقلب الأمر معى الى تحد وعناد ، وأصبحت مسألة شخصية الى جانب كونها مسألة عامة، إذ استبد بى اعتقاد راسخ بأننى لو لم أفعل ما أفعل ، فسوف أمضى بقية أيام حياتى شاعرا بالجبن والتخاذل ، الى جانب الشعور بالذنب لجريمة السكوت عن الحق والخوف من مواجهة السلطان الجائر، كما استبد بى إحساس يقينى بأنى بعد الانتهاء من كتابة هذه الرواية ونشرها بأننى سوف أموت راضيا عن نفسى ، شاعرا أننى أديت رسالتى وقمت بدورى فى تسخير الموهبة التى منحنى الله إياها لخدمة وطنى الحبيب.

شفيت من الجلطة وآثارها، كما أعمى الله عيون وزارة الداخلية عن روايتى فلم يمسسنى أحد بسوء. رسالتين مباشرتين تلقيتهما من السماء فأحسنت استقبالهما، ولم أكن أعلم أن هناك رسالة جديدة فى الطريق.

عندما بدأت مظاهر سرطان البروستاتا تأتى بأفعالها القبيحة فى جسدى، تلقيت رسالة من هذه الرسائل بينما كنت ممددا تحت جهاز الأشعة المقطعية ، إذ ما أن بدأ تشغيل الجهاز حتى انطلق صوت اذان الظهر وفهمت الرسالة فشعرت بطمأنينة شديدة وارتسمت على وجهى ابتسامة رضا.

بعد ذلك توجهت لجهاز المسح الذرى لتتبع خطوات انتشار المرض اللعين فى جسمى. ما أن بدأ الفنى المختص فى تشغيل الجهاز حتى أذن لصلاة المغرب. أدركت أنها رسالة طمأنينة ثانية من جلالته وكأنه يقول لى لاتخف فأنا معك. أنا الذى ابتليتك بالمرض وأنت الذى ستصبر وأنا الذى سأشفيك بإذنى..وجاءت نتيجة المسح الذرى مطمئنة إذ تبين أن اللعين لم يغادر منطقة البروستاتا بحمد الله.قرر الأطباء أن تجرى لى عمليتين متعاقبين الأولى هرمونولوجية والثانية اشعاعية. من الغريب أن تأتينى رسالة أخرى بأن يتحدد موعد العملية الأولى ليلة غرة ربيع الأول١٤٣٠هجرية ليتوافق مع عيد ميلادى الثانى والستين. بعد نجاح العملية بعدة أيام بدات جلسات العلاج الاشعاعى وعددها أربعون جلسة. أذهلنى أن تكون تكلفتها عشرة آلاف جنيه. لولا ستر ربنا أننى كنت قد اشتركت مؤخرا فى مشروع للرعاية الطبية تدعمه الشركة لكان لزاما على تدبير تلك التكلفة ولو باللجوء الى الجن.

ثم جاءت رسالة المفاجأة الطبية الكبرى بخلو جسدى تماما من خلايا السرطان اللعين ، وذلك بعد انتهاء العلاج وإجراء التحاليل اللازمة. طلب منى الطبيب المعالج أن أصلى ركعتين شكرا لله على تلك النتيجة الأشبه بالمعجزة. واظبت على صلاة هاتين الركعتين وفوقهما تسع ركعات قبل صلاة الفجر منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم.

غير أن معاصرتى لأحداث ثورة ٢٥يناير ٢٠١١ تعتبر أهم الرسائل الالهية ، ساعة انهمرت فى البكاء من شدة الفرحة وسط المظارهرات الصاخبة أمام جامع ابراهيم. بسقوط الطاغية شعرت أن تعبى وارهاقى واصابتى بالجلطة لم يذهب هباء وأن رسالتى بالحث على الثورة قد تحققت ، وألا داعى للكتابة بعد الآن.

بالفعل لم أرغب فى الكتابة لفترة طويلة حتى سرق الإخوان الثورة ، فانصدت نفسى عن الكتابة أكثر وأكثر، وشعرت أن مصريتى قد ضاعت منى وأن مصر لم تعد مصر على الاطلاق. كانت أسوأ أيام عمرى هى الأيام التى حكمنا فيها هؤلاء الظلاميون أعداءالحب والفن والحياة.

فى نفس هذا العام المشحون بالأحداث ابتليت برسالة أكثر خطورة من كل الرسالات السابقة ، إذ انزلقت قدمى فى الطريق واصطدمت رأسى بشدة بموتوسيكل واقف أمام الرصيف، فأصبت برشح

فى المخ راح يتسرب تدريجيا حتى أفقدنى اتزانى وأحدث لى مايشبه الشلل النصفى وأصبحت مهددا بحدوث جلطة فى المخ وشلل كلى. حدث ذلك كله نتيجة لسوء تشخيص الطبيب. أجريت لى عملية شفط للسائل النخاعى من داخل الجمجمة بعد ثقبها بواسطة "الشنيور" كأى جسم معدنى ، وقد قام ابنى الحبيب أحمد سعيد بكل الأعمال الادارية الخاصة بأوراقى مابين الشركة المعالجة والمستشفى والطبيب والصيدليات التى كان يحضر لى منها الأدوية. كان انزعاجه شديدا بعد أن شرحوا له فى غيابى نتيجة الرنين المغناطيسى. أخبرتنى زوجته رانيا أنه فى تلك الليلة ظل يبكى وينهنه فى بيته كالأطفال ، ولم يخبرنى بما عرفه الا بعد نجاح العملية.

وتأتى رسالة أخرى شديدة الوضوح والأهمية. كان الاتصال بينى وبين صديقى الجميل فكرى سعيد قد انقطع منذ حوالى عشرين عاما ، حين انتقل فكرى للمعيشة وحده فى العجمى بعد انفصاله عن زوجته. اتصلت به هاتفيا لأطمئن على أحواله بعد صعوبات مالية عديدة مر بها واضطرته الى اغلاق دار النشر التى كان يملكها ويديرها بمعاونة أبنائه. واظبت على الاتصال ببيته فى العجمى دون أن أتلقى ردا. حصلت على رقم هاتفه الجوال فعلمت أنه مرض مرضا شديدا وأصبح يعيش بمنزل احد أبنائه فى سان استفانو للاشراف على علاجه. فرح باتصالى كطفل ، وعبر لى عن رغبته الشديدة فى أن يرانى ويتحدث معى فوعدته بزيارة قريبة وكانت نيتى مخلصة لوجه الله فى هذا الوعد بقدر صدق نبراته المعبرة عن رغبته فى لقائى. تحدثنا عن أبنائنا حديثا عابرا عرف منه أن منى لم تتزوج بعد. مرت أيام قليلة على تلك الزيارة وإذا به يتصل بى بعد عدة أيام ليتحقق على يديه حلم من أهم أحلام حياتى وهو زواج منى. حدثنى عن محمد ابن أخيه الذى يعمل مخرجا بالتلفزيون ، وكان هو نصيب ابنتى وزوجها الذى أصبح بمثابة ابن رابع لى بسبب زيارة بريئة لصديق مريض.

انهالت على مكافآت السماء بعد ذلك ، فحصلت على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب وعلى وسام الجمهورية من الطبقة الأولى للعلوم والفنون وتوالى اصدار كتبى وبدأ أكثر من باحث وباحثة فى اعداد رسائلهم الجامعية عن أعمالى الروائية والقصصية. يوم فرح منى رقصت كما لم أرقص فى حياتى من قبل ، وكان ذلك خير تعبير عن شكرى وعرفانى لله الذى حقق لى معظم أحلام عمرى فى منح ربانية متعاقبة ومفاجئة.

كان لابد أن أجد شيئا أفعله فى شيخوختى بعد ذلك ، فوجدت أن أفضل مايمكننى انجازه ككاتب هو أن أحاول استرجاع مامضى من تجارب فى حياتى دون التزام حرفى بسيرتى الذاتية الحقيقية، فهذا فى رأيى أمر مستحيل، لأنه لايمكننى الكشف عن كل الأسرار الخاصة والعامة المتعلقة بحياتى وحياة الآخرين بلا استثناء.

...وهأنا أواصل استرسالى فى: "استرسال".. وبين الحين والآخر أعود الى رسائل نديم.. أقارن بين حالى وحاله فأسجد لله شاكرا ممنونا.

****

● ما بين الزهد والارادة:

بعد بلوغى الثانية والسبعين بدأت أشعر بملل شديد من رتابة الأيام وتكرارها السخيف بلا معنى وهى تتعاقب دون جديد. أنا أعرف تماما أن الملل ما هو الا حالة من الشلل تصيب الارادة الانسانية وتفقد الانسان الشعور بأهمية أى شىء فى الحياة، ومن ثم يساق حتما نحو الاكتئاب.

ان الرسائل الالهية العديدة التى ذكرتها تؤكد صدق مقولتى التى أرددها دائما للأصدقاء ان"ربنا مدلعنى". ذلك أنه حين اشتد بى الملل فى الآونة الأخيرة تمنيت من الله أن أغير جو حياتى بأى جديد مبهج أو مثير يقتحم حياتى دون سابق تخطيط. كان السفر الى أى مدينة خارج الاسكندرية على رأس تلك الأمنيات.

بدأت أفكر فى المدينة التى سأسافر اليها بغرض التغيير وكسر الرتابة اليومية ، وكان نهر النيل العظيم فى ضميرى، وإذا بدعوة غير منتظرة تجيئنى من المجلس الأعلى للثقافة للمشاركة فى الملتقى الدولى للرواية العربية لعام٢٠١٥، والذى كان يعقد دوما كل عامين لكنه توقف منذ قيام الثورة عام٢٠١١ حتى الآن.

كانت فرحتى غامرة بهذه الدعوة التى ستتيح لى قبل أى شىء فرصة السفر الى القاهرة والمبيت فى فندق فاخر أمام النيل لما يقرب من أسبوع، فضلا عن لقاء الأدباء المصريين والعرب وتبادل الأعمال والأفكار، بالاضافة الى المشاركة الشخصية فى فعاليات المؤتمر. شاركت بالفعل على احدى موائد البحث المتعددة بتقديم بحث عن أثر وسائل الاتصالات الحديثة على الرواية الحديثة. تستمر موائد البحث فى أعمالها يوميا من الصباح حتى المساء ، تتخللها فترة راحة لتناول الغداء مرة والعشاء مرة ، مع ترك الفرصة مفتوحة أمام الجميع للحضور أو التخلف دون مساءلة.

لم أكن أتصور أبدا بعد تحقق هذه الأمنية على غير انتظار ، أن أصاب بالقلق والأرق والتذبذب والتردد ، أو أن أقع ضحية صراع نفسى داخلى شديد الوطأة على أعصابى ومزاجى ، لكن هذا ماحدث بالفعل. لاحظت التهافت الشديد والتكالب الأشد من الناس على كل شىء ، بينما أنا قادم بخبرة لابأس بها فى تدريب النفس على الاستغناء عن كل مايمكن الاستغناء عنه فى هذه الحياة ، وعدم الاندفاع وراء رغبات الذات التى قد انتهت من تحقيق نفسها خلال العمر المنصرم بشكل أو بآخر، ولم تكن بحاجة الى المزيد من الاثبات وجهد التحقق. رأيت طواويس الأدب من الكتاب المصريين والعرب سواء كانوا مشهورين أو غير مشهورين وهم يختالون فى التقاط الصور التذكارية بجوار المتلهفين الى لقائهم والوقوف بجانبهم كأصنام مبتسمة. وجدت نفسى – دون عمد - أتجاهل بشدة تلك النماذج من البشر ولا أعرفهم بنفسى ولا أجلس معهم على مائدة واحدة، بل اننى كنت أشعر تجاههم بنفور شديد واستنكار أشد لغرورهم وإعجابهم غير المحدود بأنفسهم. لم أهد أحدا من هؤلاء أى عمل من أعمالى المنشورة والتى أحضرتها معى لهذا الغرض. اكتفيت بإهدائها الى أصدقائى من الكتاب المصريين الذين لا يعنينى أن يكتبوا شيئا عن هذه الأعمال ، وانما الذى يهمنى ويسعدنى حقا هو أن يقرأوها.

كنت أستغرق فى التعجب من هؤلاء الناس المتزاحمين المتدافعين لاثبات وجودهم، وفى الوقت ذاته كنت أراهم على حق فيما يفعلون، فالغرض الجوهرى من المؤتمر هو تبادل المعرفة والتعارف بين الكتاب العرب ونقادهم الذين ينالون حظا وافرا من الاحترام والنفاق فى مثل تلك التجمعات..ويصل التدافع والتكالب الى ذروته عند الشباب فألتمس لهم العذر وهم يتقربون بشتى الوسائل الى النقاد بصفة خاصة، ثم الى كبار الكتاب بعد ذلك. العناوين تتبادل. أرقام الهواتف تسجل هنا وهناك. أسئلة عن أرقام الغرف حتى يمكن توصيل المؤلفات..إذن فأنا المخطىء. أنا انسان غير طبيعى يستخدم الزهد فى غير موضعه والاستغناء فى غير توقيته.

بين الاستغناء والرغبة أتأرجح. فجأة أجد نفسى وقد أصبحت واحدا منهم. أتبادل المؤلفات مع الاخرين. أسجل أرقام هواتفهم وغرفهم وأجلس الى موائدهم وأدعوهم للجلوس الى مائدتى ، بل وأجد متعة فى ذلك!.. أخبرنى صديق بوجود ناقد مغربى معنا فى المطعم أصدر كتابا عن الرواية المصرية. توجهت اليه واتفقنا على اللقاء فى ندوة المساء حيث أهدانى كتابه وأهديته كتابين من تأليفى. عدت الى غرفتى وفتحت كتابه. وجدت مايقرب من عشرة صفحات تقريظا فى فى روايتى"الحب والزمن" وكانت دهشتى بالغة حين امتزجت بفرحة من القلب.

أرى أنه من الطبيعى أن يتدافع الشباب فى حماس لتحقيق أهدافهم فى المكان والزمان، ولو لم يفعلوا ذلك لاتهمتهم بالكسل والتواكل وقلة العزيمة ، فعندما كنت فى عمرهم كنت أقاتل بشراسة لتحقيق أهدافى..وتعاودنى حالة الرغبة فى العزلة والابتعاد فأهرب من المؤتمر ومن الفندق لأتجول فى القاهرة وحدى أحيانا ، وأحيانا مع صديقى الجميل المخرج سليمان خليل الذى يصحبنى بسيارته فى كل زيارة للقاهرة الى أماكن جديدة لم أعرفها من قبل.. ويستمر الصراع بين الحالتين مستعرا بداخلى ، حتى أننى أمضيت بعض الليالى عاجزا عن النوم المستقر. بقى يوم واحد على انتهاء المؤتمر وعودتى الى الاسكندرية.

جلست فى المطعم للعشاء الى مائدة ذات مقعدين فقط حتى أضمن وحدتى. كنت عازفا عن كل شىء حتى عن الكلام مع الزملاء. سيطرت علىّ مشاعر غريبة غارقة فى الغموض عن حالة الانسان حين يطول به العمر وتتدافع فى مخيلته ذكريات الماضى منذ أيام الطفولة وحتى سنوات الشيخوخة، يعقب ذلك تفكير مكثف فى الموت الذى أصبح قريبا ولا يدرى أحد كيف يجىء. ما أغرب هذا المخلوق الذى اسمه الانسان. تناولت طبقا صغيرا من شربة الطماطم قبل أن أبدأ فى اختيار طعامى من البوفيه المفتوح. وضعت بعض المأكولات فى طبق وعدت الى مائدتى.فوجئت بسيدة سمراء ذات عينين جذابتين وابتسامة ناعسة تجلس على مقعدى وأمامها طبق حساء فارغ كنت واثقا أنه طبقى. وقفت أمامها متسائلا بعينى دون كلام. قالت مشيرة الى المائدة المواجهة لها وكانت ذات مقعدين أيضا:

- كنت تجلس هناك
- بل كنت أجلس هنا..وهذا هو طبق شربتى الفارغ
- هذا طبقى أنا
- لو كان الأمر كذلك فأين ذهب طبقى الفارغ اذن؟
- رفعه النادل منذ قليل ويمكنك أن تسأله

كان حوارنا لطيفا باسما ، أنهاه النادل حين جاء ليؤكد على صحة كلامها حين قال:

- بالفعل لقد كنت تجلس هناك

فكرت قليلا قبل أن أقول له مداعبا:

- لاعليك. اننى أتلكك وأتمحك حتى أجلس معها

ابتسم وانصرف. أما هى فقالت:

- أهلا وسهلا
- من أى بلد انت؟
- من السعودية
- ما اسمك؟
- اسمى فاطمة.. وأنت؟

حديثها عذب ونظرات عينيها أكثر عذوبة. ليتنى عرفتها منذ بداية المؤتمر.. هأنا أرغب الآن وأريد- وبشدة - ولكن بعد فوات الأوان. لم تبق عندى رواية من مؤلفاتى أهديها لها. هى الأخرى

وزعت كل ما كان لديها من روايات. تبادلنا عناوين البريد الالكترونى والفيس بوك. التقينا مرة واحدة بعد ذلك بالمصادفة. قلت لها:

- أنا لا أصدق أنك سعودية
- لماذا؟
- أكاد أجزم أنك مصرية مائة بالمائة
- يبدو أنك صاحب بصيرة نافذة
- وكيف عرفت؟
- لأن أبى هو السعودى ، لكن أمى مصرية وأنا صورة كربونية منها

حين عدت الى الاسكندرية لم تفارقنى نظرات فاطمة الطفولية وإيماءاتها الموحية بما حملته من معان حلوة بريئة. تعجبت من نفسى فأنا منذ سنوات ست انقطع اتصالى العاطفى بالمرأة انقطاعا كنت أحسب انه سيستمر بلا رجعة حتى نهاية العمر. بدأت حالة عزوفى عن المرأة عقب العملية الجراحية الأخيرة وما أعقبها من جلسات اشعاعية مكثفة. أعتقد أن هذا العزوف كان جزءا لايتجزأ من حالة الاستغناء شبه الشاملة التى توصلت اليها بعد جبل من الخبرات المتراكمة التى تجاوزت السبعين عاما. كنت قد تحاورت مع الطبيب بشأن ارتباط آثار الاشعاع على قوة الذكورة وانصراف اهتمامى عن عالم المرأة انصرافا ملحوظا وغير عادى. اقترح على عقارا يعادل ذلك الأثر الضار بل وربما يقضى عليه مع الوقت. فوجىء الطبيب بقولى له فى نبرة شديدة الصدق:

- لا أريد أن آخذ هذا العقار ولا أريد حتى أن أعرف اسمه
- أمرك غريب يا رجل..لماذا؟...
- لأننى أتمنى أن اتحرر نهائيا من عبودية الجنس

شرد قليلا ثم قال:

- يبدو أن معك حق ، فتجاربى حتى الآن تؤكد على تلك العبودية
- تجاربك ليست محل مقارنة بتجاربى ، فأنت لم تبلغ بعد الخمسين ولكنى تجاوزت السبعين وقد شربت من الجنس حتى الثمالة، كما أننى قد رزقت البنات والبنين ، لذا فنسيانى لهذه الطاقة الجهنمية واعفائى من أعبائها سيحررنى من قيد كبير لازمنى عمرا طويلا وآن الأوان لأرتاح منه الى الأبد ، ولو أنى أشك فى قدرتى على الانفلات من سحره الجهنمى الذى لايقاوم.

رغم ذلك فقد شدتنى هرمونات الذكورة الى نبرات صوت فاطمة الموحية فطلبتها على الهاتف ولقيت منها ترحيبا. وعدتنى بإرسال بعض أعمالها الى بالبريد الخاص ، على أن أرسل لها أنا الآخر ببعض أعمالى.. فى نفس اللحظة أعلنت تراجعى أمام نفسى واتصلت فى لهفة بالطبيب:

- ما اسم العقار ؟!!

ويظل الصراع بين الرغبة والاستغناء يتأجج عندى حينا ويخبو حينا آخر. أصبحت أفكر كثيرا فى معنى الحياة والموت ، وكثرت تأملاتى فى عبث الأقدار بالبشر وابتلائهم المتناوب بالأفراح و الأحزان. أرى الدنيا تبهرنى بمفاجآتها التى تنثرها أمامى فى خبث باعثة برسائلها المتناقضة الى كل البشر. هنيئا لسعيد الحظ الذى يستوعب الرسالة وتعسا لذلك الذى يحول غباؤه دون ذلك فتضيع عليه فرصة لم يكن يحلم بها ، وربما كانت فرصة عمره التى لن تتكرر.. غير أن رمادية الحياة كما يعرفها من عرك الواقع وتعامل معه بكفاءة ، لايمكن أن تقبل الخيار الأوحد بين الأبيض والأسود ، بقدر ما ترفض الاستسلام الى أحد اللونين وإقصاء اللون الآخر، فليس هناك خيار حاسم بين الزهد والارادة أو بين الاستغناء والرغبة.

****

● أنا لا أريد شيئـــــــــــا:
كنت في العشرينات من عمرى حين وقعت على مسرحية"الحضيض" لمكسيم جوركى وترجمتها الحرفية هى:"الأعماق السفلى"The lower depths". أبطال المسرحية مجموعة من الفقراء والمشردين الذين يسكنون العشوائيات ويتكدسون معا كمجموعات من حثالة البشر الضالة فى غرف صغيرة قذرة ذات دورات مياه مشتركة ، وكلهم يحصلون بالكاد على قوت يومهم. أكثر ما لفت نظرى بهذه المسرحية كان الأغنية التى يرددها الاسكافى اليوشكا مساء كل يوم على الأكورديون المتهالك وهو فى حالة سكر بيّن هربا من اختناقه بحياة مزرية تعسة لاينبغى أن تعاش.تقول كلمات الأغنية:"أنا لا أريد شيئا".. كان ومازال تأثير هذه العبارة على عقلى ومشاعرى طاغيا . طالما تأملتها وتعقبت مدلولاتها العديدة التى حاولت أن أستوعبها على مدى سنوات العمر. لم أكن وقت اكتشافها على المستوى الثقافى والفكرى لهضم معانيها العميقة. ما معنى ألا يريد الانسان شيئا من هذه الحياة؟.. لماذا يعيش اذن وكيف توصل الى هذه القناعة وهل توصل اليها مرغما أم بكامل ارادته كما يقول. أغرب ما فى الأمر أننى شعرت بشىء من الحسد تجاه هذا الانسان، وكأننى تمنيت أن أتمتع مثله بهذه الحالة الانسانية النادرة من الزهد والاستغناء بغض النظر عن اختلاف الدوافع والظروف. غير أنه كنموذج بشرى ضال فاشل يهرب بالسكر من تعاسته، لم يكن النموذج الذى يمكن أن أحتذى به للوصول الى هذه الحالة ، مهما بلغ اعجابى بتلك الفكرة التى يتغنى بها.

على أية حال فإن طبيعة المرحلة العمرية المتأخرة لاتترك مجالا كافيا لرفاهية الاختيار بين الاستغناء والارادة، فالأرجح أن الشيخوخة ترغم صاحبها على الاستغناء متى كان سوى النفس خاليا من النوايا العدوانية تجاه سنة الكون والحياة والتى يمكن أن تتمثل فى التمرد والمقاومة والتجاهل لكل ما لايجوز التمرد عليه أو مقاومته أو تجاهله من نذر الشيخوخة. رغم ذلك تبقى الحيرة قائمة عند الانسان لو تناقضت ارادته التى انتهى الى اختيارها مع ارادة القدر الذى قد يكون له رأى آخر، وغالبا ما يكون الأمر كذلك. فصاحبنا المخمور كذب على نفسه وراح يغنى بأنه لايريد شيئا بينما هو مستعد لبيع نفسه لقاء زجاجة خمر رخيص يدفن فيها آلامه ويهرب بها من واقعه، فهو قد اختار قدره مثلما اختاره قدره.. أما أنا فأكرر ربما للمرة العاشرة أننى اخترت الاستغناء ، ورحت أدرب نفسى عليه بنجاح غير متوقع ، لكن القدر كان له اختيار آخر.

****

● أمسكت بالزمن :

مجنون من يدعى أنه قادر على الافلات من مطاردة الزمن له، فما بال هذا الذى يتصور أنه هو الذى يطارد الزمن، ثم يتمادى فى تصوره بأن لحق به فأمسكه من رقبته وراح يمزقه إربا.. انه أنا وقد أمسكت بيدى كراسة كبيرة تحوى مئات الصفحات التى سجلت فيها ذكريات عمرى منذ كنت طالبا فى المرحلة الثانوية وحتى يوم الاثنين٣١ يناير٢٠١١ ، حيث توقفت منذ ذلك اليوم عن تدوين مذكراتى بعد أن تحققت أغلى أمنيات عمرى بقيام ثورة عارمة انتهت برحيل مبارك وطغمته الفاسدة. لم أعد أجد رغبة فى الكتابة ولامعنى لها ولاحافز منذ أن قامت الثورة. كنت أريد البحث عن تاريخ مناسبة اجتماعية أسرية نسيته، وقد سبق لى تسجيله فى حينه بالكراسة.

بعد أن وجدت ضالتى رحت أتصفح أوراق الكراسة بفضول شديد وقد انتابنى شىء من الخوف مجهول المصدر، وكأننى أقرأ محتوياتها لأول مرة. تساءلت عما يدعونى الى الاحتفاظ بهذه الكراسة بعد أن تجاوزت السبعين من العمر، مالم تكن لدى رغبة أكيدة فى أن يطلع عليها أبنائى وأحفادى من بعدى. كانت الكراسة قابعة فى ركنها الثابت بمكتبتى. أمر عليها وأنظر اليها مئات المرات منذ عشرات السنين. فى عمر الشباب كنت مواظبا على تسجيل أهم أحداث الحياة الشخصية والأسرية والوطنية والعالمية أولا بأول وبحماس شديد. ظل هذا الحماس يتناقص بمرور العمر ، حتى وضعت نفسى اليوم فى مواجهة حاسمة مع نفس السؤال الحائر: ما الذى يدعونى الى الاحتفاظ بهذه الكراسة؟..هناك آلاف من الكتب المكدسة بأرفف المكتبة، لكنى لم أهتم كثيرا بمعرفة مصيرها بعد رحيلى، وإن كان أغلب ظنى أن الأبناء والأحفاد لن يواصلوا الاحتفاظ بها. لم يزعجنى ذلك الخاطر فقد سبق أن رأيت بعينى زوجة أحد أصدقائى الكتاب تبيع مكتبته الضخمة القيمة بعد وفاته لبائع روبابيكيا بمائتى جنيه وهى تمطره بعبارات الشكر والامتنان أن خلصها من هذه الرزية التى كانت تزحم البيت دون جدوى. لكن هذا الخاطر نفسه يزعجنى حين يخص مؤلفاتى التى بلغت ثلاثين كتابا حتى الآن مابين روايات ومجموعات قصصية وموضوعات أخرى ، أفنيت عمرى فى كتابتها ونشرها. الأبناء لم يقرأوها فى حياتى فماذا سيفعلون بها بعد موتى؟..

كل هذه الكتب كوم وكراسة زمنى وذكريات حياتى كوم آخر. اهتمام الدنيا والآخرة انصب عليها فجأة حين قررت تمزيقها دون أن أقع أسيرا لإعادة قراءة أى صفحة من صفحاتها حتى لا أراجع نفسى فى قرارى..إذن فكل السنوات التى مضت من عمرى أصبح مصيرها سلة المهملات، وليس من حقى أن أحزن أو أغضب فبدنى نفسه مصيره الى التراب والديدان.

بدأت فى تمزيق الكراسة من منتصفها بحيث تحولت الى شطرين يسهل تمزيق كل منهما على حدة. أمسكت بالنصف الأول مترددا فى تمزيقه. كنت على وشك التراجع عن تمزيق نصف عمرى ففتحت بعض الصفحات عشوائيا ورحت أقرأها بعينين غائمتين بضباب شجن حائر.

****

●● صفحات من النصف الأول:

" أخى العزيز سعيد ..تحياتى وأشواقى وبعد؛

فشكرا لك على هديتك(آلهة من طين) التى تلقيتها اليوم فى الأهرام، والتى أرجو أن أقرأها فى أقرب فرصة ان شاء الله. وتلقيت رسالتك أيضا، وأسفت جدا لحرمانى من صحبتك الجميلة للأسباب التى ذكرتها ، وقد كان يعزينى تصورى أنك مشغول بتمهيدات عملك الجديد الذى أتمنى لك فيه كل توفيق.. وما عسى أن أقول؟.. لابد من اتساع الصدر وتحمل الكثير مما يكره الانسان لكى يواصل حياته، وعلى أى حال فنحن – مستقبلا – لانقبل أى عذر يحرمنا من رؤياك والاستمتاع بصحبتك، وانها لمناسبة لاهداء تحياتنا الى جميع الأحبة التى تلقاهم".. ودمت للمخلص:

نجيب محفوظ

١٩٨٥/١١/٤

تذكرت أننى فى تلك الأيام شعرت بملل شديد من مجلس نجيب محفوظ – الذى شهد أجمل أيام عمرى – بعد أن اعتاد بعض الحاضرين كثرة الحديث عن أنفسهم واثارة موضوعات تافهة ومجادلات عقيمة لاتخلو من المتعة الفكرية فحسب، وإنما تبعث أيضا على القرف والمرارة. بدأت مرات حضورى للمجلس تتباعد تدريجيا، ولما شعرت بالحرج من الأستاذ الذى كان يسأل الحاضرين فى كل مرة عن سبب غيابى، فقد حضرت خصيصا لأتعلل له – كاذبا – بانشغالى خلال ذلك الصيف بعمل هندسى خارجى مع احدى الشركات الخاصة. لكن بعد انتهاء الصيف وعودة الأستاذ الى القاهرة بعثت اليه بخطاب اعتذار صريح أوضح له فيه السبب الحقيقى فى إحجامى عن المواظبة على حضور الندوة بصفة يومية. جاءنى منه ذلك الرد البليغ الذى أعطانى درسا فى أهمية وكيفية التواؤم مع المجتمع قدر المستطاع. اننى مازلت أذكر قوله لى هامسا بلهجة مرحة عند أول لقاء بعد ذلك:

- ياسعيد معظم الجالسين لايحبون بعضهم البعض لكن الدنيا لازم تمشى

وقد نشرت هذا الكلام فى كتابى"نجيب محفوظ الانسان"الذى صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام٢٠١١ .

تشجعت فمزقت الشطر الأول من الكراسة بيدين مرتعشتين مهزوزتين خائفتين، ثم أمسكت بالشطر الثانى وتصفحته فى عجالة حين وجدت به صفحات تسجل انطباعاتى عن أحداث ثورة٢٥ يناير العظيمة.

****

●● صفحات من النصف الثانى:

"يبدو أن ارتخائى لصيق الصلة بالارتخاء الذى أصاب الدولة على يد المتحكمين فى تقاليد أمورها، والذين لايزيد عددهم فى اعلى تقدير عن أربعين شخصا يديرون شئون الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة.اننى واثق من عودة الانتصاب لكلينا – أنا والدولة – لو تم تغيير هؤلاء الأربعين واستبدل بهم أربعون آخرون من الشرفاء المحترفقين فى تخصصاتهم، ومن الأكرم أن يتم هذا التغيير بيدى لابيد عمرو، والا سيكون الثمن فادحا يدفعه المنتصبون والمرتخون معا، وسيدفعه معه المتسولون وسارقو الأحذية من المساجد، والباحثون عن الطعام بين أكوام القمامة الملقاة بالشوارع، وسارقو الغسيل من المناشر وقد عادوا للظهور من بعد اختفاء، ومنادو السيارات وباعة المناديل الورقية، وأهالى المحترقين بقطار الصعيد رقم٨٢٣ ، ومستنشقو السحابات السوداء والصفراء فى القاهرة ، وأبناء الطبقة المتوسطة بعد أن تهلهلت وانهارت قيمها ومبادؤها أمام الفقر والظلم واغراء الصعود الى الطبقات العليا بكل الأساليب النازلة من رشوة ودعارة واختلاس ومتاجرة بالمهنة والسلطة. أما طوفان الشباب العاطل فسوف يدفع الثمن حقدا وغضبا وتطرفا، حتى تحرق النار الجميع..ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولاتدعون الداخلون يدخلون. أنتم تبدأون دامما كالملائكة الطهار ثم تنتهون الى شياطين مردة، ولاتعلمون أن ذاكرتنا يقظة لاتموت. هكذا فعل عبد الملك بن مروان وكاليجولا ونيرون وبن على التونسى ومبارك والقذافى وعلى صالح وحافظ الأسد ومن بعده ابنه بشار.

لم أخبر أحدا بالبيت الى أين أنا ذاهب. توجهت الى ميدان جامع ابراهيم لأشهد المعجزة التى كنت أحلم بها ودعوت الله فى الكعبة أن يحيينى حتى أشهد وقوعها.ما أن اقتربت من المسجد حتى رأيت آلافا مؤلفة من شعب الاسكندرية الرائع محتشدة فى الميدان حاملة علم مصر رجالا وشبانا وشيوخا ونساء وأطفالا. لم أتمالك نفسى من البكاء الهستيرى الذى لم يسبق له أن حدث فى حياتى غير مرة واحدة أثناء تمكنى من الصلاة فى الروضة عام٢٠٠٥. لم أصدق أن حلمى قد تحقق ،

وكان شكرى لله قد وصل الى مداه فى تلك اللحظات رغم أن مبارك كان هو الحاكم الفعلى للبلاد حتى تلك اللحظة.لكنى أيقنت أن هذا المشهد ونظيره فى ميدان التحرير بالقاهرة وسائر الميادين العامة فى كل أقاليم مصر ، هما اشارة تؤكد قرب رحيل الطاغية ابن محضر المحكمة محدود الدخل كشأن أى موظف ، ثم أصبح من أهم أغنياء العالم، كما تؤكد على رحيل عائلته الطاغية المستبدة ممثلة فى زوجته وأبنائه، وعلى رحيل وزير الداخلية القاتل الذى اتخذ من مبارك الها له يسبح بحمده من دون الله،.. لم يكن يعرف أن هذا الاله سيتخلى عنه فى اللحظات الحرجة ويذهب الى شرم الشيخ تاركا اياه للمساجين يزفونه لدى دخوله الزنزانة مرددن الأغنية الشعبية الشهيرة:

- ياحلوة يابلحة يامقمعة شرفتى اخواتك الاربعة".

****

مزقت النصف الثانى وألقيت به مع نصفه الأول فى سلة المهملات ورحت أبكى زمنى وعمرى فى صمت وبلا دموع.

****

توقفت عند هذا الحد من الاسترسال الذى ربما لا يروق للبعض ، ومثلما لم يكن هناك سبب لاختيار البداية فلست أعرف السبب المؤكد الذى جعلنى أتوقف عند هذه النهاية ، ولكن قبل ذلك ينبغى أن أوضح لمن تابع استرسالى أننى ذهبت الى المحامى لأضع حدا للمهزلة النديمية التى أوقعتنى فى صراع نفسى رهيب. فشقيقى يموت الآن وربما يكون قد مات بالفعل وأنا لا أعلم عنه شيئا سوى الأوراق التى تحوى ممتلكاته وأرصدته المالية ، فضلا عن النصائح المدمرة التى يرى أنه من الضرورى أن نطلع أبناءنا وأحفادنا عليها ونعلمهم – قسرا - على الالتزام باتباعها. أنا بالطبع أرفض تلك الآراء رفضا باتا ، ولكنى تساءلت هل من حقى أن أخفيها عن أبنائى وأبناء أخوتى وأخواتى محتكرا لنفسى حق حمايتهم من ذلك الفكر النازى العنصرى ، فلم أتوصل الى اجابة. لقد كانت سقطته الكبرى التى أنزلته من نظرى تماما أن أنكرنى حينما أوشكت على الاهتداء اليه..ماذا يريد اذن؟..

انه لم يخجل من التصريح العلنى بأنه رغم دنو أجله الا أنه لايستطيع ولايريد أن يوصى بكيفية توزيع ثروته على أهله قبل أن يتسبب غباؤه فى أن تذهب هذه الثروة الى الخزانة الأمريكية. هل أراد أن يساوم بنصائحه التى يتحتم على الأبناء والأحفاد أن يلتزموا بتنفيذها حتى يوزع عليهم ثروته كارها مضطرا؟..

أخيرا دلنى المحامى على اسم المستشفى الذى لم يكن يعرفه هو الآخر ، وانما توصل اليه مؤخرا بوسائله الخاصة. اندفعت بلهفة الشقيق ضاربا بكل الاعتبارات الأخرى عرض الحائط:

- أريد أن أزوره
- أقدر مشاعرك تماما ولكن الزيارة أصبحت عديمة الجدوى
- لماذا؟
- لأنه فى غيبوبة ولم يعد يدرى شيئا
- أموت وأفهم لماذا تعرف أنت أخبار أخى وأنا لا أعرفها الا من خلالك؟
- أنا وكيله ومن واجبى ألا أصرح الا بما يصرح لى به
- وما العمل الآن؟
- تقصد بخصوص الثروة

ثرت فى وجهه صائحا:

- نحن لانريد ثروته الملوثة بجراثيم الحقد والانتهازية وجنون العظمة، ونرفض شروطه اللاانسانية ولن نطلع أبناءنا عليها
- هو لم يشترط الايمان بمعتقداته حتى توزع ثروته عليكم آل بيته، كما أنكم أحرار فيما تقررون ، ورغم ذلك فالثروة ستؤول حتما الى الأسرة بحكم القانون وبالتعاون مع القضاء الأمريكى، فى اللحظة التى يفارق فيها الحياة

وضعت المظروفين أمامه على المكتب قائلا بنبرة غاضبة:

- نحن لا نريد منه شيئا
- قد يصح هذا لو كنت تتحدث عن نفسك فقط ، لكن من المؤكد أن لبقية الأسرة رأى آخر.

حين وقفت للانصراف نظر الى بخبث من تحت نظارته السميكة قائلا:

- فى جميع الأحوال أرجو أن ترتب لى لقاء عاجلا مع جميع أفراد الأسرة المستحقين للميراث

****

● كبير وسط الصغـــار:

ها هى الأعوام قد جرت بالعشرات من سنين عمرى حتى بلغت بى زمنا لايختلف كثيرا عن زمان الطفولة والصبا. أيامها كنت أشكو من ندرة الأصدقاء المقاربين لى فى العمر ، فكنت أضطر الى مجالسة الكبار. اليوم أعاود نفس الشكوى من ندرة الأصدقاء المقاربين لى فى العمر فأضطر الى مجالسة الصغار. معظم الكبار ماتوا. بعضهم هاجروا. بعضهم أقعدهم المرض وعزلتهم أمراض الشيخوخة. البعض فرق بينى وبينهم السعى وراء لقمة العيش فى مدن بعيدة. آخرون متواجدون ولكن دوامة الحياة أخذتهم الى مسافات سحيقة فى البعد. هناك فصيل آخر من الاصدقاء الذين يعيشون أمامى ولكنى أراهم أمواتا يستحيل التواصل معهم. لم يبق لى من أصدقاء الطفولة غير الفنان التشكيلى مجدى قناوى الذى أقعده المرض . لا أنقطع عن زيارته باستمرار لنعيش معا أحلى ذكريات العمر ونخالف تعليمات الأطباء فندخن بعض السجائر ننفث فى دخانها أيامنا الغابرة ، ونستعرض معا ما قرأناه من كتب.

غير أن الله قد خصنى بنعمة كبرى لامثيل لروعتها هى نعمة الإبداع ، لولاها لكنت مستسلما للعزلة أسيرا لقسوة الشعور بالوحدة والاغتراب عن العالم المحيط بى . أعرف كثيرا من الأصدقاء دمرتهم الوحدة وقتلهم الاكتئاب فاستعجلوا الموت لأنفسهم لعدم رغبتهم فى الحياة. كما أن لى العديد من الأصدقاء الذين أواظب على الالتقاء بهم صباح كل يوم فى نادى سموحة من باب الامتاع والمؤانسة.. أشاركهم الحديث فى موضوعاتهم اليومية المكررة لمدة لاتتجاوز نصف الساعة ، ثم أختلى بكتبى وقلمى وأوراقى فى حديقة النادى لما يقرب من ساعتين، أستمع بعدهما من هاتفى الى نصف ساعة من أغانى عبد الوهاب القديمة أغادر بعدها النادى الى البيت. الطعام الذى تعده جميلة لى لايدانيه فى الروعة طعام فى الدنيا. أشم رائحته وأنا أصعد السلم فأميزه من بين أى طعام يعد فى شقة أخرى بالمنزل. أصبحت شهوة الطعام احدى المتع الرئيسية فى حياتى فضلا عما ذكرته من متع.

فى المساء بعد أن أفرغ من قراءاتى المختارة ، أتسلى مع أصدقاء العالم الافتراضى المدعو بالفيس بوك ، ولست أنكر أنه يحقق لى متعة فائقة ، خاصة حين أنشر به مقتطفات من كتاباتى وأسعد بتعليقات قرائى وأتحاور معهم ، وأعرف أخبار بلادى وأهم الأحداث التى تجرى فى العالم دون أن أنخرط بعمق فى السياسة التى لم تعد تستهوينى كما كان الحال من قبل. أحيانا أعزف على العود وأحيانا أشاهد الأفلام الكوميدية القديمة ذات اللونين الأبيض والأسود، أوأذهب الى جميلة فى غرفتها فأعاكسها وأطمئن عليها.

وأخيرا لم يبق لى فى هذا العالم من حب نقى برىء جارف يملك على كل مشاعرى، غير حب حفيدى الأول ياسين الذى بدأ منذ أيام فى محاورتى بالانجليزية بعد أن وصل فى الروضة الى مرحلة كى جى تو، حين فاجأنى بقوله بثقة تامة ردا على سؤال طرحته عليه:

- I know every thing!!!!

خلق منى ياسين انسانا جديدا وأعادنى الى مشاعر الأبوة التى حرمت منها فعشتها معه ، والى مشاعر الطفولة التى قاسيت فيها فغمرنى بفيض جمالها وعذوبتها. لو قدر لى أن أعيش لسنوات أخرى فلسوف يكون أحفادى القادمين هم أصدقائى الحقيقيين الذين سأمضى معهم بقية عمرى.

****

● البحـــــــــــــــر :

يا جب أسرار العشق وتباريح الهوى.يا مليك الحب والانطلاق. لم يتغير فيك شىء بينما تغيرت أنا فى كل شىء. أمواجك مازالت تعلو وتهبط حاملة معها ضحكات الصبا والشباب وقصص الحب ودموع فراق الأحباء. تحلق نوارسك البيضاء فى فضائك فأجوب معها بقاع الدنيا حيث البحار والمحيطات والبشر والحكايات. تبعث برسائلك الى البر مع طحالبك الخضراء وأصدافك غامضة الألوان ونسماتك الرطبة المنعشة المشبعة بحب الحياة. علمتنى فى طفولتى متعة التأمل فى إبداع الاله وعظيم صنعه، ولما صرت شيخا أصبحت ملاذى الذى أفضفض له بأسرارى وأفراحى وأشجانى فيبادلنى البوح بأنغامه الساحرة الباعثة على الرضا والأمل والتوكل والأمان.

بقايا جنون شبابى لاتنجلى الا أمامك. فهأنا بداخل القارب مع أصدقائى نستمع الى موسيقا الشباب الصاخبة ونشرب ونضحك ونغنى ونرقص ونطبل ونصفق ، غير عابئين بشىء فى هذه الدنيا على الاطلاق. نلقى بعلب البيرة الفارغة فى الماء وندخن بشراهة رغم جلطات القلب وتصلب الشرايين. المحبة تغمرنا والبهجة ترفرف من حولنا وكآبة واقعنا الوطنى ساقطة منا عن عمد فى بئر النسيان. الوقت المتبقى قليل لايتسع للكآبة والأحزان. دورنا فى الحياة قد انتهى وسلمنا الراية للأبناء والأحفاد فلا مفر أمامنا من استقطار الفرح والبهجة حتى الرمق الأخير. هأنا أتجرد من ملابسى فجأة مطلقا صيحة صبيانية مترعة بالسرور والغبطة ، وأقذف بنفسى الى البحر عاريا كما ولدتنى أمى لأذوب فى أحضان عروس البحر، وسط صياح وتصفيق الصحاب وقهقهاتهم النابعة من قلوبهم وعشقهم للحياة.

سعيد سالم
الاسكندرية فى نوفمبر ٢٠١٥

تعريف بالكاتب "سعيد سالم"

E mail,,,saidsalem170@hotmail.com ,, saidsalem62@yahoo.com

سعيد محمود سالم- من مواليد الاسكندرية ١٩٤٣... face book:saeed salem

- عضو اتحاد كتاب مصر و عضو اتحاد الكتاب العرب و عضو هيئة الفنون و الآداب و عضو أتيليه الفنانين و الكتاب وعضو لجنة النصوص الدرامية باذاعة و تليفزيون الاسكندرية سابقا .

- حاصل على ماجيستير الهندسة الكيميائية من جامعة الاسكندرية ١٩٦٨ .

- رئيس قطاع سابق بشركة الورق الأهلية بالاسكندرية وحاليا على المعاش.

- عنوان المنزل : ٥ شارع على باشا ذو الفقار – شقة ١٠ – مصطفى كامل / الاسكندرية .

- تليفون منزل : ٥٤٦٢٨٦٩ (٠٣) . – محمول ٤٣٩٠٢٥٩ / ٠١٢٢

<u>الروايات (١٦ رواية)</u>

"جلامبو" جماعة أدباء الاسكندرية ١٩٧٦ – "بوابة مورو" جماعة أدباء الاسكندرية – "عمالقة أكتوبر" هيئة الكتاب ، مصر ١٩٧٩ــ"آلهة من طين" (طبعة أولى) هيئة الكتاب ، مصر ١٩٨٥ / (طبعة ثانية) دار الجليل ، دمشق ١٩٨٦ – "عاليها أسفلها" (طبعة أولى) مطبوعات وزارة الثقافة ، دمشق/سوريا ١٩٨٥ – "الشرخ" دار طلاس ، دمشق/سوريا ١٩٨٨" – "الأزمنة" روايات الهلال ١٩٩٢ – "عاليها واطيها" (طبعة ثانية) دار المستقبل مصر ١٩٩٢ – "الفلوس" دار المستقبل ، مصر ١٩٩٣ – "عاليها أسفلها" (طبعة ثالثة) هيئة الكتاب ، مصر ١٩٩٥ – "الكيلو ١٠١ الوجه و القناع" طبعة خاصة ١٩٩٧ و طبعة عن هيئة الكتاب ١٩٩٩.- "حالة مستعصية" دار الهلال ٢٠٠٢ – " كف مريم" مطبوعات اتحاد الكتاب ٢٠٠١.-"الشيء الآخر".دار ومطابع المستقبل ٢٠٠٤- الحب والزمن.(نشرت مسلسلة بجريدة الدستور على ١٣ حلقة)عام ٢٠٠٧ ثم بروايات الهلال عام٢٠١١.. المقلب-مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة(٢٠٠٩)- الفصل والوصل هيئة الكتاب-٢٠١٦ – استرسال(تحت النشر)

<u>المجموعات القصصية :(١١ مجموعة قصصية)</u>

"قبلة الملكة" مطبوعات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٨٧ – "رجل مختلف" هيئة الكتاب ، مصر ١٩٩٥ – "الموظفون" مطبوعات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩١ – "الجائزة" دار قايتباى للطباعة و النشر ، مصر ١٩٩٤ – "الممنوع و المسموح " مختارات فصول.مصر ٢٠٠٢.- "أقاصيص من السويد"الهيئة المصرية العامة للكتاب٢٠٠٥– "قانون الحب"سلسلة الكتاب الفضى.مصر٢٠٠٦ ،هوى الخمسين(نهضة مصر)٢٠١١، الكشف.(هيئة الكتاب) ٢٠١٣- المعضلة الكبرى.هيئة قصور الثقافة٢٠١٦-رحيق الروح(المجلس الاعلى للثقافة- تحت النشر)

**** كتاب نقدى بعنوان"الاسكندرية ٢٠١٠ فيض من الابداع المتألق".صدر عن مكتبة الاسكندرية٢٠١٦**

****كتاب بعنوان"نجيب محفوظ الانسان" صدر عن سلسلة نجيب محفوظ.هيئة الكتاب ٢٠١١**

<u>القصص القصيرة منشورة بالجرائد و المجلات الآتية :</u>

الأهرام – الأخبار – الجمهورية – المساء – أكتوبر – حواء – مايو – الهلال – الثقافة – الكاتب – ابداع – آخر ساعة – روز اليوسف – القصة – عالم القصة – أمواج –

الاسكندرية – الأيام – البحث – تشرين – الموقف الأدبى – الثورة – الأسبوع الأدبى – الكتاب العربى – البيان – الأنباء – العربى – الفيصل – المجلة – الحرس الوطنى – الشرق الأوسط – الدستور – الرأى – – صباح الخير – الناشر – العربى – الكويت .

المسرح : **الجبلاية (مسرحية كوميدية٣ فصول) – الدكتور مخالف (مسرحية كوميدية ٣ فصول) .**

نماذج من الدراما الاذاعيةوالتلفزيونية :

حجر النار – العائد – سباق الوهم – بوابة مورو – زارع الأمل – رحلة الصعود و الهبوط – رجال من بحرى – الدكتور مخالف – أحلام الناس الطيبين – عيون الليل – مفتاح السر- الحب والزمن و غيرها وهى مسلسلات اذاعية شهرية باذاعتى الاسكندرية و القاهرة ، فضلا عن العديد من السهرات الكوميدية وبرنامج عالم القصة..والمسلسل الكومیدى التلفزيونى" عاليها واطيها انتاج " صوت القاهرة ٢٠٠٨ ..والمسلسل التلفزيونى الدرامى"المقلب" ..تحت التنفيذ.

فى النقد الأدبى :

مجموعة مقالات نقدية عن أعمال بعض الكتاب العرب نشرت بمجلات و جرائد مختلفة .

أهم الجوائز :

١- **الجائزة الأولى عن رواية "الأزمنة" فى مسابقة احسان عبدالقدوس للرواية ١٩٩٠ .**
٢- **جائزة الدولة التشجيعية فى القصة لعام ١٩٩٤ عن مجموعة (الموظفون) الصادرة عام ١٩٩١ عن مطبوعات اتحاد العرب بدمشق .**
٣- **جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام ٢٠٠١ عن رواية "كف مريم".**
٤- **جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام ٢٠١٠ عن رواية المقلب.**
٥- **جائزة الدولة التقديرية فى الآداب لعام٢٠١٢**
٦- **وسام الجمهورية للعلوم والفنون من الطبقة الأولى عام٢٠١٣**

****